جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

أصول الدعوة وطرقها (1)

IDWH2013

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2008

المحتويات

الدرس الأول	:	مدخل إلى علم الدعوة	٧- ٣٩
الدرس الثاني	:	الدعوة إلى الله أشرف الأعمال وأعظمها	٤١- ٦٥
الدرس الثالث	:	أسباب استمرار الدعوة وبقائها	٦٧- ٧٨
الدرس الرابع	:	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تعريفهما وأهميتهما وصلتهما بالدعوة	٧٩- ٩٢
الدرس الخامس	:	تحديد المعنيين بخطاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأسباب المعصية، وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٩٣- ١٢٥
الدرس السادس	:	أنواع البشر الذين يوجه إليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيفية علاجهم، ومراتب إنكار المنكر	١٢٧- ١٥٦
الدرس السابع	:	الصغائر والكبائر، ومراتب إنكار المنكر، وإزالته وضوابطه	١٥٧- ١٨٦
الدرس الثامن	:	أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٨٧- ١٩٧
الدرس التاسع	:	تابع: أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٩٩- ٢٠٥
الدرس العاشر	:	الآثار السيئة الناتجة عن تقاعس المسلمين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقيقة الدعوة الإسلامية	٢٠٧- ٢٢٣
الدرس الحادي عشر	:	من خصائص الدعوة الإسلامية	٢٢٥- ٢٤١
الدرس الثاني عشر	:	تابع: من خصائص الدعوة الإسلامية	٢٤٣- ٢٥٦
الدرس الثالث عشر	:	تابع: من خصائص الدعوة الإسلامية	٢٥٧- ٢٧٤
الدرس الرابع عشر	:	من صفات الدعاة	٢٧٥- ٣٠٥
قائمة المراجع العامة	:		٣٠٧- ٣١٥

مدخل إلى علم الدعوة

عناصر الدرس

العنصر الأول	: التعريف بالدعوة، وحاجة البشر إليها	٩
العنصر الثاني	: حكم تبليغ الدعوة، وآراء العلماء في هذا	١٧
العنصر الثالث	: ملكة البيان، ووسائلها	٢١
العنصر الرابع	: العلوم التي لها ارتباط وثيق بعلم الدعوة	٢٥
العنصر الخامس	: العلوم التي تتناول أصول الدين وفروعه	٣١
العنصر السادس	: المواد العلمية الكونية	٣٥

التعريف بالدعوة وحاجة البشر إليها

الحمد لله الذي بفضله تتمّ الصالحات، وبتوفيقه تُزكّى الأعمال وبرحمته تُرفع الدرجات. قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]. وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤، ٥].

وأشهد أنّ سيدنا محمدًا عبد الله ورسوله، شرّفه الله بحَمْل رسالته، وتبليغ دعْوته، وخاطَبه بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

اللهمّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه، ومَن دعا بدعْوته إلى يوم الدِّين.

وبعد:

التّعريف بالدّعوة:

الدعوة لغة: جاء في (دائرة معارف القرن العشرين) ما يلي:

"دَعاه" يَدْعوه دعاءً ودعوى: ناداه، وصاح به. و"دعا له": طلب له الخَير من الله تعالى. "دعا عَليه": طلب له الشَّر من الله تعالى. "تداعى الناس": دعا بعضُهم بعضًا.

وجاء في (لسان العرب): "الدعوة": المَرة الواحدة من الدّعاء. و"الدُّعاة": قومٌ يدْعون إلى بَيعة هدًى أو ضلالةٍ، واحدُهم: داعٍ. ورجُل داعِيَة، إذا كان يدعو الناس إلى دِين أو بدعة، وأُدخِلت الهاء في "داعية" للمبالغة.

وبهذا يتّضح أن كلمة "دعا" ومشتقّاتها تدور في اللغة بين الداعي وما يَدعو إليه من خَير أو شَر.

الدعوة اصطلاحًا: عُرِّفت بعِدّة تَعريفات، منها ما يلي:

التعريف الأوّل: حَثّ الناس على الخَير والهُدى، والأمْر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ليَفوزوا بسعادة العاجل والآجل.

التعريف الثاني: هي: قيام العلماء المُستنيرين في الدِّين بتعليم الجمهور من العامّة ما يُبصِّرهم بأمور دِينهم ودُنياهم، على قَدر الطاقة.

التعريف الثالث: إنقاذ الناس من شرٍّ واقع، وتحذيرهم من أمر يُخشى عليهم من الوقوع في بأسه.

ثانيًا: حاجة البشر للدعوة إلى الله:

لقد خلَق الله الإنسان في أحسن تقويم، واستخلفه في أرضه، واْئتَمنَه على بعض أسرار كوْنه، وفضَّله على كثيرٍ مِن خَلْقه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

الغاية من خلق الإنسان:

هذا التكريم والتفضيل ليس لكوْن الإنسان يأكل، أو يشرب، أو يتناسل؛ فهذه أمور يَشترك فيها مع كثير من الكائنات، ولكنْ خَلقه الله لرسالة كريمة وغاية عُظمى، تَنحصر في الأمور التالية:

أولًا: استخلاف الله للإنسان في الأرض، وتسخير الكون لخدمته: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

ثانيًا: تحمُّل الأمانة التي شرَّفه الله بحَمْلها، واصطفاه للقيام بأعبائها، وتقبَّلها طَواعيةً: بينما اعتذرت السموات والأرض والجبال عنها، لِعظم شأنها وخُطورة تبعاتها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثالثًا: عبادة الله ﷻ وطاعتُه، والتزام ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه:

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

رابعًا: توطيد الرَّوابط الأُسَريّة من خِلال النَّسب والمُصاهرة: قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النحل: ٧٢].

كما عمّق العلاقات الإنسانية بالتعارف والتعاون. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحُجُرات: ١٣].

ولن يستطيع الإنسان أن يُحقّق هذه الأمور بنفسه، أو أن يَمضيَ في الحياة مُعتمدًا على عَقله فقط، أو أن يَسير وفق رغباته ونَزواته وتَبَعًا لأهوائه؛ فكان من رَحمة الله بالبَشر أن أرسل لهم الأنبياء والمرسلين، وأيّدهم بالوحي والمعجزات، ليدْعُوا الناس إلى الطَّريق المُستقيم. قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

حاجةُ البشرية الشديدة للدّعوة إلى الله:

هذا، ولقد ظهرت حاجةُ البشرية الشديدة للدّعوة إلى الله، التي تَرتكز على وحْي السماء، ورسالات الأنبياء، وسلوك الأتقياء، وذلك للأسباب التالية:

أولًا: إن الصراع بين الإنسان والشيطان لن يَنطفئ لهيبُه، ولن تَخمد جَذوته. فمنذ أن خلَق الله آدم # وأمَر الملائكة بالسجود له -سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة- فامتثلوا لأمْره ﷻ إلّا إبليس الذي أنكر وأعرض، وأدبر واستكبر، وهدَّد وتوعّد، فأُخرِج من الجَنة صاغرًا ذليلًا.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣- ١٨].

وبهذا أصبحت الكرة الأرضية مَيدانًا فَسيحًا وساحةً رَحبة للنِّزال بين الإنسان والشيطان. ولو تُرك الإنسان في هذه المَعركة وَحْده -دون وحيٍ من السماء يَحفظُه، ويُرسل الله الرسل لتُرشِده، والدعاة ليُحذِّروه- لتمكَّن الشيطان منه،

وأفسَدَ عَقيدتَه، وشوّه فِطرتَه؛ لذا كانت حاجة الإنسانية ماسةً للدّعوة إلى الله، لتَتخلّص من شَرّ الوسواس الخَناس الذي يُوسوس في صُدور الناس.

ثانيًا: لقد أودع الله بين حنايا النَّفس البَشرية العديدَ من الغَرائز: قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وهذه الغرائز تَغْلي داخل كيان الإنسان كالمِرْجل، وكلّ غَريزة تَتدَافع وتَتزاحَم لبَسْط إرادتها على سلوك الإنسان وتَصرّفاته.

وهذه الغرائز إن لم تُحكم بميزان الشَّرع، وإن لم تُضبط بمقاييس وحْي السماء ورسالات الأنبياء، فإنها تَنطلق مَسعورة لإشباع حاجاتها دون تَدبّر ورَويّة، ودون التفات لأوامر الله، مُتجاهِلة الأحكام الشرعية، مُحطمةً للتَّقاليد والأعراف الاجتماعية، فيَنتكس الإنسان إلى سلوك الحَيوان، بل أضلّ من الحيوان. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لذلك كانت الحاجة ضروريةً للدّعوة إلى الله، لتنظيم تلك الغَرائز البشريّة، وإشباعِها في إطار شَرْع الله الذي لا يَكبِتُها، ولا يَحرم الإنسان منها، ولا يَترك لها الحَبل على الغَارب، كالجَواد الجامِح؛ بل نَجد الإسلام العَظيم يُهذّبها، ويَضبط دوافِعها. ولن يتمّ ذلك إلّا من خِلال الدّعوة إلى الله على هدًى وبصيرة.

ثالثًا: إنّ العَقل البشري، مع أنه مَركز التَّوجيه، ومحور التَّفكير، ومَناط التَّكليف، وهو الذي يُميِّز الإنسان عن الحَيوان، فإنه لا يُحقِّق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، للأسباب التالية:

١. **قُصور العقل الإنساني**، لأنه يَستقي المَعلومات من الحَواسّ، بواسطة الجِهاز العصبي الذي يَمتدّ بين خلايا الجسم وأنسجته وعظامه، ليتّصل بالمخ في نظام عَجيب، وتناسُق مُعجِز مُبهر، يُنبئ عن قُدرة الخالِق، وعظَمة الصّانع ﷻ. ومع ذلك، فالعَقل ليس مَعصومًا من الخطأ، وأحكامُهُ ليست صوابًا على وجْه الإطلاق؛ فهو يَحكم على الشيء من خِلال ما تُقدِّمه الحَواسّ الخَمس من مَعلومات، فإذا فَقَدت إحدى الحواسّ عَملها بسبب مَرض أو عِلّة بها، تَوقّف العَقل عن مَعرفة الحَقيقة الجُزئية الخاصّة بتلك الحاسّة المُعطَّلة.

٢. **تفاوت العَقل البَشري**، فعقول البَشر تَختلف في الفَهم، وتَتفاوت في الإدراك، وتتدرّج في الذكاء، ممّا يَجعل الحُكم على الأشياء يَختلف اختلافًا ظاهرًا بين بني البشر، كما أنّ العقل يَخضع لمؤثِّرات كَثيرة، ولا سيما في هذا العصر الذي يحاصَر الإنسان بالغزو الفكري الذي تَبُثّه أجهزة الإعلام المَرئية والمَسموعة والمَقروءة، ممّا أدّى إلى التفاوت العَقلي في شتّى المجالات، واختلفت النظرة والحُكم على الأشياء من دولة لدولة، ومن جماعة عن جماعة أخرى. ولقد صوّر القرآن الكريم اختلاف العقول في قوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

٣. **عَجْز العقل البشريّ عن مَعرفة ما وراء عالَم الحواسّ والمُشاهدة.** إن العقل البَشري تقف حُدودُه عند عالَم الحِسِّ والمُشاهدة، أمّا ما عدا ذلك، كالبَعْث والحَشْر، وعالَم الغيب، وما يتعلّق بالرُّوح، والملأ الأعلى، فلا طَريق لمعرفته من خِلال العَقل، وإنّما تتمّ المَعرفة عَبر الوحي الإلهي، ورسالات الأنبياء. ولقد حَدّد القرآن الكريم الأمور التي يقف العقل البشري قاصرًا وعاجزًا ومستسلمًا

أمامها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤]، وكذلك ما يتعلّق بالروح وأسرارها، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وكلّ ما يتّصل بعالَم الغيْب، قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

٤- خُضوع العقل للْهوَى، "الهوى" في اللغة هو: مَيْل النفس وانحرافها عن الشيء، ثم استعمل في المَيل المَذموم، فيقال: "اتّبع هواه"، و"هو من أهل الأهواء". وقد حذّر القرآن الكَريم مِن اتّباع الهوى، وانسياق الإنسان وراء نَزواته ونَزعاته التي قد تَطمس الحَقيقة. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ [النساء: ١٣٥].

ولقد بيّن القرآن الكريم خُطورة اتّباع الهوى، وآثارَه السَّيئة على الإنسان، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

والعَالَم المُعاصر الآن يَشهد خَللًا في العَقيدة، واضطرابًا في الفِكر، وانحرافًا في السُّلوك، بسبب الأهواء. نَجد ذلك واضحًا في ميادين السِّياسة، والاجتماع، والثقافة، والاقتصاد. فاتّباع العُقول دون ضوابط الشَّرع، يَفتَقد في كثير من الأحيان للرؤية الصائبة، والفِكر السديد، والعَمل الرشيد.

٥- عَجْز العقل البَشري عن إدراك الحِكمة من التَّشريع ؛ فهناك أمور قد يَعْرف العقل حِكمةَ تَشريعها، ويعرف الفوائد المُترتِّبة على هذا التَّشريع. وهناك أمور يَقف العقل البشري عاجزًا عن إدراك الحِكمة من تَشريعها، ويَظل حائِرًا مُتسائلًا عن سِرِّ تَحليلها أو تَحريمها.

ممّا سَبق، يتَّضح أنّ العَقل البَشري لا يستطيع وحْده أن يوجِّه الإنسان إلى السعادة، وأن يُحقِّق له الطمأنينة والأمْن، وأنّ الدَّعوة إلى الله ضَرورة فِطرية يَحتاج إليها الإنسان لتَحقيق خَيرَيِ الدنيا والآخرة.

٦- إنّ الدعوة إلى الله أثَرٌ من آثار رحمة الله بالعباد، وشفقته ﷻ بهم، وتَعطّفه عَليهم ؛ فهي تَحمل بين ثناياها ينابيع الخير للإنسان، حيث تَزْكو بعَقله، وتُطهِّرُ قَلْبَه، وتُنقِّي نَفسَه، وتُربِّي ضَميره، وتُوقِظ فيه معانيَ الفِطرة السّويّة التي فَطر الله الخَلْق عليها. ولقد شَملت الرحمةُ الإنسانية كلّها، بدعوة أشرف الخَلق وخاتم الرُّسل محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال ﷺ: ((إنّما أنا رَحمة مُهداة)).

وبهذا، يتبيَّن مَدى حاجة الإنسانية إلى الدّعوة إلى الله، وشَوق العالَم وتَطلّعه وتلهّفه إلى دعاةٍ يأخذون بيده من الكهف المُظلم الذي يَختَنق فيه، وتَنعدم رؤية الطريق المُستقيم وَسْط العَواصف التي تَعصف به، حيث أفقدته آدميَّته، وأنْسَتْه إنسانيّته ؛ فالأمل مَعقودٌ، والرجاء مقصودٌ، وأيدِي البشرية تَمتدّ لأمّة الدعوة، تَستغيث بها، وتُناشِدها أن تُنقِذها ممّا هي عليه الآن.

قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

حُكم تبليغ الدّعوة، وآراء العلماء في هذا

الدّعوة إلى الإسلام من خَصائص هذه الأمّة، مِن أجْلها خُلقت، وبالانتساب إليها شَرُفت، وبتَبليغها وتَعريف البَشر بالإسلام بلَغَت ذُرى المَجْد، وارتَقت مراقيَ الكمال.

والدّعوة إلى الله إحدى المَهام الرئيسيّة للمسلمين، ومَعلم بارزٌ يَنفردون به بين الأُمم. وهم مسئولون أمام الله يوم القيامة عن قيامهم بالتَّبليغ، أو تَقاعسهم عنهم. قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ٤٣، ٤٤].

والأمّة الإسلامية في مَجموعها أمّةُ الدّعوة إلى الله، يَجب أن تتوافر جهودُها، وتتكاتَف كلمتُها، ويُرصد جزءٌ من مواردها لتبليغ الإسلام ونشْره، ودَفْع الشبهات عنه، وردّ كيْد كلّ مَن يَعتدي عليه.

ولقد أوضح القرآن الكريم، وبيَّنت السُّنّة النبوية الشريفة حُكمَ تَبليغ الدّعوة إلى الله؛ ومِن خِلال نُصوص الكتاب والسُّنّة قسَّم العلماء هذا الحُكم إلى قسميْن:

القسم الأول: إنّ الدّعوة إلى الله فَرْض عَيْن على الأنبياء والمرسَلين، ثم العلماء الذين فقِهوا دين الله، ووقفوا على أحكامه، وتَعرَّفوا على شَرائعه.

- ومن أدلّة الوجوب من القرآن الكريم ما يلي:

ما أمر الله به رسوله ﷺ في أوائل ما نزل من الوحي، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدَّثّر: ١ - ٣]. وقال تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحِجر: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. ولقد أمر الله المسلمين أن تكون مِن بينهم جماعةٌ تَتفرّغ للدّعوة والقيام بأمْرها. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: "ولتكُن منكم أمة منتصِبة للقيام بأمْر الله في الدّعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر؛ وأولئك هم المفلحون".

هذه الجماعة التي يُناط بها أمرُ الدّعوة إلى الله، يجب أن يَحْسُنَ اختيارها، وأن تُعدَّ إعدادًا خاصًّا يؤهِّلها لهذا العمل الشريف، وأن تُنتقَى من بين المَواهب المُتفرِّدة والقُدرات المُتميِّزة. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

- والأدلّة من السنة النبوية الشريفة على وجوب تَبليغ الدعوة، وأنها فَرْض عَين على العُلماء، يشاركُهم في المَسئولية ولاةُ الأمر من حُكّام المسلمين وزُعمائهم، كَثيرة:

فعن أبي سعيد الخدري > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَن رأى منكم مُنكرًا فليُغيِّرْه بيَده، فإن لم يَستطع فبلسانه، فإن لم يَستطع فبقَلبه؛ وذلك أضعفُ الإيمان)) رواه مسلم.

وعن حذيفة > عن النبي ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده! لتأمُرُنّ بالمَعروف ولتَنهوُنّ عن المُنكر، أو ليوشكنّ الله أن يَبعث عَليكم عِقابًا منه، ثم تَدْعونه، فلا يُستجاب لكم)) رواه الترمذي بإسناد حسَن.

وعن عبد الله بن عمر } قال: قال رسول الله ﷺ: ((بلِّغوا عَنِّي ولو آية)) رواه البخاري.

ومن فوق جبل عرفات، في حجّة الوداع، قال ﷺ قوْلته الآمرة الخالدة: ((ألا فليُبلِّغ الشّاهدُ منكم الغَائب)).

من خِلال هذه النصوص، انعَقد إجماع المسلمين على وجوب تَبليغ الدّعوة إلى الله، وأنها فَرْض عَين على العُلماء والدُّعاة، وأنه يَجب على ولاة الأمر مؤازرتهم ومساندتهم، لتحقيق هذا الغَرض الدِّيني.

القسم الثاني: تعاون جَميع أفراد الأمّة فيما بَينهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو حقّ لدَى جَميع المسلمين، وفَرْض كِفاية إذا قام به البَعض سَقط الإثم عن الجَميع. أمّا إن تقاعست الأمّة عن التّناصُح فيما بينها، فإنّ الجَميعَ مسئولون ويأثمون عن هذا التقاعس.

والأدلّة من القرآن الكريم:

ومن الأدلة على أنّ الأمّة الإسلامية مُتضامنة فيما بينها على الأمر بالمَعروف والنَّهي عن المُنكر، قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير: "هذه الآية عامّة في جَميع الأمّة كلّ قَرن بحَسَبه".

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى آمرًا المسلمين جميعًا بالتعاون فيما بينهم على البرِّ والتقوى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

يقول الإمام الشافعي: "لو لمْ يَنزل من القرآن غير هذه السورة، لكَفَتِ المسلمين". ويقول أيضًا: "إنّ الناس أو أكثرهم في غَفلة عن تَدبّر هذه السورة".

ومِن السُّنّة:

عن أبي رُقيَّة تَميم بن أوس الدَّاري > : أن النبي ﷺ قال: ((الدِّين النَّصيحة، قلنا: لِمَن يا رسول الله؟ قال: للهِ، ولِكتابه، ولِرسوله، ولأئمّة المسلمين وعامّتهم)) رواه مسلم.

وعن جَرير بن عبد الله، قال: ((بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكلِّ مسلم)) متفق عليه.

ولقد بيّن الرسول ﷺ مَسئولية المُجتمع المسلم، ووجوب التَّناصح فيما بَينهم، وأثَرَ ذلك في نَجاة المُسلمين من الفِتن والأحداث؛ فعن النعمان بن بشير > : أنّ النبي ﷺ قال: ((مَثل القائم على حُدود الله والواقع فيها كمَثَلِ قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها. فكان الذين في أسفلها إذا

استقوْا من الماء مرّوا على مَن فوقَهم، فقالوا: لو أنّا خرقْنا في نَصيبنا خَرْقًا ولم نُؤذِ مَن فوقَنا. فإن يَتْركوهم وما أرادوا هلكوا جَميعًا. وإن أخذوا على أيديهم نَجوْا، ونَجوْا جَميعًا)) رواه البخاري.

ممّا سبق، يتّضح عِظم أمْر الدّعوة إلى الله، وشَرف القيام بتبليغ الإسلام ونَشْره، وأنّ هذا فَرْض عَيْن على العُلماء والأمراء، وأنه فَرْض كِفاية على مَجموع الأفراد، يقومون به وفْق قُدرات كلّ فَرد وإمكاناته، وحَسب مسئولياته تجاه أهله، كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، أو نحو العَشيرة والقَوم، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. أو تجاه جيرانه وأصدقائه، تَمسّكًا وتَنفيذًا للأسُس التي وضعها القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ملَكــــة البيـــــان ووســـــائلها

تمهيد:

لقد خَلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأنعم عليه بنِعمة البيان، وهي مِن أجلِّ النِّعم التي أنعم الله بها على الإنسان، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].

فملَكَةُ البَيان تَحْصُلُ للإنسان بوسائل عِدّة، منها:

أولًا: القِراءة والاطّلاع على سائر العلوم والمعارف. ولأهمية القِراءة في تَكوين عَقل وفِكر الإنسان، كان أوّلُ ما نَزل على الرسول ﷺ: قولُ الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥].

ثانيًا: الكِتابة، وهي التي يُعبّر بها الإنسان عمّا يَجيش في فؤاده، وبما يَجول في قَلبه ووجْدانه، وبالكِتابة يتمّ التَّفاهم بين بني الإنسان، والتعارف بين الأمم والأوطان. وهي أداة لنقْل العُلوم والمَعارف، لذلك أقسم الله -تبارك وتعالى- بالحَرف الذي يُعبَّر به عن الفِكر، وبالقَلم الذي يُدوَّن به، وبالمادة العِلمية التي تُصاغ، قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٤، ٥].

ثالثًا: النَّظر والتأمّل في الأنفس والآفاق، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وكذلك التّأمّل والتفكّر في تكوين الخَلْق، وتَطوّر حياة الإنسان، قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ [الطارق: ٥، ٦].

رابعًا: الحِكمة، وهي: الإصابة في القَول والعَمل، ويَختص الله بها مَن يَشاء من عِباده، بخِلاف العِلْم، فهو مُتاح للإنسانية كلّها، ويَنتج عَنه الخَير والشَّر. أمّا الحِكمة فلَن يأتي منها إلّا الخَير فقط. قال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

خامسًا: التّقوى، وهي مِن أهمّ مفاتيح تحصيل العلوم والمعارف النافعة والمفيدة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

هذه الوسائل وغيرها: أدوات لتحصيل العُلوم والمَعارف، التي أمر الله رسوله ﷺ بالتَّزود منها، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وإنّ معيار نجاح الدّعاة إلى الله يتوقّف على مِقدار ما يُحصِّلونه من عُلوم وما يَتزوّدون به من مَعارف، تُربِّي عُقولهم، وتَسمو بأفكارِهم، وتُوقِظ في قُلوبِهم ينابيع الخَير. ولن يَتسنَّى لهم ذلك إلّا بَكثرة الاطّلاع، واتّساع الثقافة، اللّذَيْن يُؤدِّيان إلى دِقّة الفَهْم، وعُمق الفِكر؛ وهذا يَتحقّق حينما يكون الدّاعي مُلمًّا بأطراف العُلوم النَّظريّة والتَّطبيقيّة، وكذلك سائر المَعارف الإنسانية وفْقَ كلّ عَصر وبيئة.

ولذا قيل: إن عِلْم الدَّعوة يَبدأ من حَيث تَنتهي كلّ التَّخصصات؛ فالإنسان إذا أراد أن يَنخَرط في سِلك الدُّعاة إلى الله، فلْيَتنقّل في رياض العُلوم والمَعارف، مَثَلُه كمَثَل النَّحلة تَنتَقل من غُصْن إلى غُصْنٍ، وتَتحوّل من زَهرة إلى زَهرة، تَرتشف الرَّحيق، وتَمْتَص العَبير، لِتُخرِجَ عسلًا مُصفًى فيه شِفاء للناس.

وكذلك الدّاعي إلى الله يَتريّض بين العُلوم المُختلفة، يَسبر أغوارها، ويَقِف على موضوعاتها، ويَتعرّف على فوائدها، فتَتّسع مَدارِكُه، وتَكثُر معارفه، ويكون لديه الدواء الناجِع والبَلسم الشافي لأمراض المُجتمع وعِلَلِه.

لذا، فعلْم الدّعوة مُرتَبط بالعُلوم الأخرى ارتباطًا وثيقًا، كارتباط الرأس بالجَسد. فالعلوم المُختلفة والمَعارف المُتنوِّعة، هي روافِد للتَّعريف بالإسلام، وشَرْح أحكامه، ودَعوة الناس إليه؛ فهي وَسيلة لأسمى غاية، وأشرف عَمل، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصّلَت: ٣٣].

والدّاعي إلى دين الله، والآمر بالمَعروف والناهي عن المُنكر لا بدَّ وأن يَكون عالِمًا عِلْمًا يَقينيًّا بما يَدعو إليه، أو يأمر به من مَعروفٍ، أو يَنهى عَنه من مُنكر، ولا بدَّ أن يكون عالِمًا بالأسلوب الذي يَستَخدمه، وبالعلوم التي تُفيده في ميادين الدّعوة، وذلك لتلافي الأمور التالية:

الأمر الأول:

الحذر من أن يَدعوَ إلى باطِل وهو يَحسبه حقًّا؛ فيكون ضَررُه على الدِّين أشدّ من ضَرر الصامتِين، وخَطرُه أعظمَ من خَطر أعداء الدِّين، ولا سيما إذا اتُّخذ قُدوةً فيما يَدعو إليه من باطل في سلوكه الخاص.

الأمر الثاني:

الحَذر إذْ لم يكن عَالِمًا بَصيرًا وداعيًا حكيمًا، أن يَتخذَ أسلوبًا مُنَفِّرًا؛ وهذا ضَرره أكثر من نَفعه.

الأمر الثالث:

إن لم يَكن عَالِمًا، فسوف يَستدلُّ على ما يَدعو إليه أو يَنصح به، بأدلّةٍ باطلةٍ، فيَحْصُلُ من دَعوته ضَررٌ أكثر من النَّفع، فيُسيء من حيث يَتوقّع منه الإحسان.

الأمر الرابع:

خَشية أن يُسأل غير العالم عن مَسألة، فيُفتي فيها بغَير علْم، فيَضِلّ ويُضِلّ.

ولقد حذَّر الرسول ﷺ مِن اتّخاذ رُءوس في العلْم جُهَّال، فيكونون وبالًا على الدِّين، ونَكبة للأمة.

فقد روى البخاري ومسلم: أن النبي ﷺ قال: ((إنَّ الله تعالى لا يَقبض العِلْم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يَقبض العلْم بقبض العلماء؛ حتى إذا لم يُبقِ عالمًا، اتّخذ الناس رءوسًا جهالًا فسُئلوا، فأفتَوْا بغير عِلْم، فضلُّوا وأضلّوا)).

لهذه الأسباب ولغيرها، يتّضح ما ينبغي أن يكون عليه الداعية إلى الله، من وجوب الوقوف على شتَّى أنواع الثقافات، والإلمام ببعض العلوم التي يستفيد منها، ويُفيدُ غيره في ميادين الدّعوة.

وسوف نوضِّح العلاقة الوطيدة والارتباط العميق بين علْم الدعوة والعلوم الأخرى.

العلوم التي لها ارتباط وثيق بعِلْم الدّعوة

إنّ علْم الدعوة إلى الله لن يُؤتي ثماره، ولن تتحقّق نتائجُه إلّا إذا ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالعُلوم والمَعارف حيث يَنهل منها الدَّاعية، ومن خِلال جماع هذه العلوم، تَتولّد لديْه الثقافةُ الواسعة والإلمام بقضايا أمّتِه، ومشاكِل عَصره، وتكون عِنده القُدرة على استمالة المَشاعِر، واستِنهاض الهِمَم، وذلك بالحُجج الدامِغة، والبراهين الساطِعة، والأدلّة القوية، المُتسلِّحة بحُسن المَنطق، وسَلامة التَّعبير، وروَعة الأداء.

والعُلوم التي ترتبط بالدّعوة، ويجب على الدعاة تَحصيلها والإلمام بها، هي ما يلي:

القسم الأول: علوم اللّغة العربيّة. لقد تَنزَّل القُرآن على قَلب الرسول ﷺ بلسان عَربيّ مُبين، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

فالرسول ﷺ أفصَح فُصحاء العَربية، وأطلقُهم لِسانًا، وأعذبُهم حديثًا، وأبلغُهم منطقًا. وقد أُوتيَ ﷺ جَوامعَ الكَلِم.

قال الإمام العلامة أبو سليمان الخطّابي -رحمه الله-: "اعلمْ أن الله تعالى لَمّا وَضع رسول الله ﷺ مَوضع البَلاغ من وَحْيه، ونصّبه مَنصب البيان لدِينه، اختار له من اللغات أعذَبَها، ومن الألسُن أفصحَها وأبْيَنها. ثم أمدّه بجَوامع الكَلِم، التي جعلها رِدءًا لنبوّته، وعَلَمًا لرسالته، لِينتَظِم في القَليل منها عِلْم كَثير، يَسهُل على السامِعين حِفظُه، ولا يئودهم حَملُه. فمَن تَتبّع جوامِع كلامه ﷺ لم يُعْدَم بيانها".

واللغة العربية كان يَنطقها العَربيّ بالسَّليقة، ويَتذوّق معانيها بالفِطرة، لا يَعرف نِقاطًا ولا علامات على الحروف، ولا تَشكيلًا للكَلمات.

وكان يُعبِّر عمّا يَجيش في خاطِره شِعرًا أو نَثرًا، بلُغة فَصيحة، سليمة بليغة، لا تَعرف اللَحن، ولا يَفشو فيها الخَطأ، وترَفَّعت عن عُجْمة الفُرس، وتَنزَّهت عن لُغة الروم.

ولّما جاء القرآن الكريم بلسانٍ عَربيّ مُبين، على رسول الله ﷺ ازدادت مكانة اللّغة العربية، فارتفعت هامَتُها بين لغات الأمم، وأكسبها القرآن قُدسيّةً ومَهابةً، وأضفى عليها ثوبًا قَشيبًا من بَلاغة الأسلوب، وجَمال التَّصوير، وجَلال المَعاني، وموافقة الطَّبائع، ولمس السرائر، ورؤى المستقبل، وأحداث التاريخ، وإشارات العُلوم.

وكذلك أضاف إليها الرسول ﷺ ببلاغَته وفصاحَته، من خِلال أقواله ﷺ مَنزلةً رَفيعة، ومَرتبة سامية. وهكذا تضافَرت على اللغة العربية تلك العَوامل التي حافظت على بقائِها ونقائِها، لارتباطِها بالقرآن الكريم، الذي تَعهَّد الله بحِفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وقد استمرت اللغة العَربية يتحدّث العَرب بها دون قَواعد تُضبَط، والنُّطقَ بها قَبل بِعثة الرسول ﷺ وخِلال حياته ﷺ وإبّان نُزول القرآن الكريم، كان يُكْتَب بدون تَشكيل ولا عَلامات إعراب. ومع انتشار الإسلام، واختِلاط العَرب بغيرهِم من الأمم، فشا اللحن، وكثُر الخَطأ، وتخوّف المسلمون أن يَتسرَّب هذا إلى القرآن الكريم، فيَلحَق به ما لَحِق بالكُتب السماوية السابقة من تَحرِيف وتَغيير.

وبَدأت أمارات اللّحن وبوادِر خَطره، حينما قَدِم أعرابي إلى المدينة في خِلافة عمر بن الخطاب < فقال: مَن يُقرئني شَيئًا مّما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ؟ فأقرأه رجل من بداية سورة (براءة)، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٣]، فنَطق الرجلُ الذي يقرأ بها: "ورسولِهِ" -بكَسر اللام بدلَ ضَمِّها- وهذا اللّحن يُفسِد المعنى إفسادًا كبيرًا. فلما سَمِع الأعرابي هذا، قال: وأنا أبرأ مّما بَرئ الله منه، ورَجَع على عَقبيْه. فبلغت مقالتُه عمرَ بن الخطاب. فقال: رُدُّوا عليّ الرجُل! فقال: يا أعرابي، أتبرأ من رسولِ الله ﷺ؟ فقصّ الرجل عليه قِصّته.

فقال عمر: ليس هذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر <: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٣] -برفع اللام- فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن بَرِئَ الله ورسوله منهم.

فأمَر < أبا الأسود الدؤلي المَولود عامَ واحد قَبل الهجرة، أن يضع ضَوابط اللسان العربي. وقِيل: إن عليَّ بن أبي طالب < هو الذي أمره بذلك.

فقد روى أبو الأسود الدؤلي أنه قال: "دَخلتُ على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب < فوجدت بيده رُقعة، فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأمّلت كلام العَرب فوجدتُه قد فَسد بمخالَطة هذه الحَمراء -يعني: الأعاجِم-

فأردت أن أضع شيئًا يَرجعون إليه، ويَعتَمدون عَليه. ثم ألقى إليّ الرُّقعَة، ومنها: "الكلام كلّه: اسم، وفعل، وحَرف؛ فالاسم: ما أنبأ عن المُسمَّى. والفِعل: ما أُنبئ به. والحرف: ما أفاد مَعنًى. وقال لي: أُنحُ هذا النَّحو! وأضِفْ إليه ما وَقع إليك!".

ومنذ ذلك التاريخ، شمّر علماء المسلمين عن سواعِدهم، ووضعوا قَواعِد اللغة العربية لِضبط مُفرداتها، وتَصريف أفعالها، وتَشكيل أواخر الكَلمات باختلاف أحوال موقِعها. ولقد أثمر هذا الجُهد أنْ ظَهرت في ميادين الفِكر الإسلامي:

أولًا: علومُ العربيّة: وتتضمّن ما يلي:

١. علْم النحو: الذي به يُضبَط الكَلام، وبمراعاة قَواعده يَسلَم اللسان من اللّحن.

٢. علْم الصَرف: الذي يَبحث في بنيَة الكَلمة، واشتقاقِها في الأفعال وتَصريفها، ممّا يَخلق في المُتحدِّث مَلكة التَّعبير عن الفِعل بكَثرة مُترادِفاته.

٣. علْم البلاغة: الذي وَضع قَواعد البلاغة وأساليب الفَصاحة من علْم المعاني، والبيان، والبديع، ممّا يُساعد على تَدبّر آيات القرآن الكريم، وتَذوّق روعة بلاغته، وإعجاز بيانه، وكذلك الوقوف على فَصاحة الرسول ﷺ.

٤. علْم معاني مُفردات اللغة العربية، المدوّن في المعاجم اللغوية: كـ(لسان العرب)، و(القاموس المحيط) وغَيرها...

فاللغة العَربية بعلومها وفُروعها، هي سلاح الدّاعية إلى الله، وأداة تَعبيره، ووسيلة التفاهم بينه وبين المَدعوِّين. فطلاقة اللسان، وحُسن المَنطق، وروعة

الأداء، وعُذوبة الحَديث، وتأدية المَعنى واضحًا بعِبارة فصَيحة وكلمات بَليغة تأسر النُّفوس وتَستَحوذِ على العُقول، وتُلهب العَواطف وتُثير المَشاعِر، ممّا يُساعد على نَجاح الدّعاة في دعوتهم إلى الله.

ثانيًا: علْم أصول الفقه:

وهو علْم يُساعد على تَفهُّم النُّصوص الدِّينية، واستنباط الأحكام الشَّرعية على براهين وأدلّة مَقبولة شَرعًا، والتَّعرّف على مراتِب أدلّة الشَّرع، وبيان المَقبول مِنها وغير المَقبول، والتَّنبيه على ما هو صَحيح منها وعَدم صِحّة غيره، وتَرجيح ما يَقبل التَّرجيح وفْق دلالة الألفاظ الشرعية واللغوية، ونوعيّة الأمر الوَارد في القَضية حسب الأحكام التَّكليفية الخَمْس وهي: الوجوب، الندب، التحريم، الكراهة، الإباحة.

وهذا العلْم يُؤسَّس على الفَهم العَميق للّغة العربية التي تُساعد على استنباط الأحكام الشرعية والحُكْم عليها؛ وهو من هذا الجانب وثيق الصِّلة بعلوم اللّغة، ولا غنًى للدّعاة عن الوقوف على قواعده، والتّعرّف على الأئمّة الفقهاء الذين وضعُوا أسُسه، وشيّدوا صَرحه، كالإمام أبي حنيفة -رحمه الله- الذي صنَّف كِتابه "كتاب الرأي"، وقد بيَّن فيه طُرق الاستنباط. وكذلك الإمام الشافعي -رحمه الله- حيث صنَّف في هذا العلْم مؤلّفات عَديدة عُرف منها: كتاب "الرسالة"، وكتاب "أحكام القرآن"، و "اختلاف الحَديث"، و "إبطال الاستحسان"، وكتاب "جِماع العلْم"، وكتاب "القياس".

يقول ابن حجَر عن الإمام الشافعي: "فكان بحقّ أوّلَ من أصّل الأصول وقعّد القواعد، وأذعَن له المُوافق والمُخالِف".

ثالثًا: علْم آداب البَحث والمُناظرة:

يُعدُّ من العُلوم الوَثيقة الصِّلة بعِلْم الدَّعوة؛ فلَقد خَلق الله بني آدم مُتفاوتين في الفَهم والذَّكاء، مُختلِفين في اللّغات واللّهجات، متمايزين في الإدراك، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾

[الروم: ٢١، ٢٢].

وهذا الاختلاف يَستلزم تَنوّع طُرق الإقناع العَقليّ والتأثير القَلبيّ؛ لذا وَضع علماء المسلمين قواعِد البَحث والمُناظرة، وآداب المُحاورة والمُجادلة، وقعّدوا لها الأسُس والضَّوابط، وأنشئوا هذا العِلم حيث تَضمَّن الآداب التي يَنبغي أن يَلتزم بها المُتجادلون، وبيَّنوا من خِلاله الجَدل المَحمود والجدل المذموم.

والدّعاة إلى الله في حاجة ضرورية للوقوف على قواعد هذا العلْم، لأنهم قد يتعرّضون من خِلال دَعْوتهم لبعض القضايا، ويُواجهون بعض المُتناظرين ذوي التَّيارات العَلمانية والنَّزعات الإلحادية. وقد يُستَدْرَجون لموضوعات شائِكة، يَصطادُهم فيها شياطينُ الإنس. فإن لم يَكن الدَّاعية على دِراسة كافية ووعْي تام، فسوف تَهتزّ صورته أمام الحاضرين، ويَفقد مِصداقِيّته ولو كان على حق.

رابعًا: علوم النَّفس، والاجتماع، والتربية:

توصّل العُلماء إلى غرائز النّفس ودوافعها وتقسيماتها، وأنشئوا علْم الاجتماع وأصول العِمران. وكان رائدُ هذا العلْم ومؤسّسه العالِم المسلم عبد الرحمن بن

خلدون. كذلك وضَع العلماء أسُس التربية السَّليمة. وقد أصبح لهذه العُلوم مَوقعًا بين العلوم الإنسانية الأخرى، وبها يُضبط سلوك المُجتمع، وتُوزَن تصرّفاته. وبعض ما توصّلوا إليه لا يتعارض ولا يتنافى مع تعاليم الإسلام، ومعرفة هذه الأمور تُفيد الداعية، حيث تَجعله على وعْيٍ تامّ بقضايا الأمّة، كما تُمكِّنه أن يتصدّى لعلماء الغَرب الذي يَجنحون بهذه العلوم عن سُنن الفِطرة وهدى الوحي السماوي.

العلوم التي تتناول أصول الدِّين وفروعه

القسم الأول: علْم العقيدة الإسلاميّة:

وهو علْم يبحث في أسماء الله وصفاته، ويُقيم الأدلّة على وجوده ووحدانيته ﷻ وذلك من خلال الأدلّة الشرعية مِن القرآن والسُّنّة، والبراهين المنطقيّة العقلية. كما يوضِّح أركان الإيمان ودعائمه، ويقوم بدراسة الفِرَق الإسلامية دراسة مقارنة يُبيِّن ما هو منها على نهج سلَف الأمّة، وما انحرف عن الجادّة.

وقد اهتمّ علماء المسلمين على مدى التاريخ بهذا العلْم، وأطلقوا عليه اسم: "علم التوحيد" أو "الإلهيات". ويندرج تحته علْم "مقارنة الأديان". وموضوعات هذا العلْم لها وثيق الصلة بعلْم الدّعوة؛ فلا يُتصوّر أن ينزل الداعية إلى ساحة الدّعوة وهو مجرّد من أهمّ مكوّنات عقيدته ومقوّمات فِكْره وأصل دعوته.

القسم الثاني: علْم الفقه:

وهو في اللغة: العلْم بالشيء، والفهم له، قال تعالى: ﴿ فَمَالِ هَٰؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله تعالى على لسان قوم شعيب # : ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ [هود: ٩١].

وفي الاصطلاح: العلْم بالأحكام الشرعية العمليّة المستمَدّة من أدلّتها التفصيليّة. وقد أطلق العلماء لفظ "الفقه" على جميع الأحكام الدِّينيّة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، سواء كانت هذه الأحكام متعلّقة بأمور العقيدة، أو العبادات، أو الأخلاق، أو المعاملات.

وعلْم الفقه من ألزم ما يحتاج إليه الدّعاة، وهو جوهر دعْوتهم وصُلْب رسالتهم، لا غنًى لهم عن التفقه فيه والوقوف على أحكامه. وهو فرْض عيْن عليهم، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ويقول ﷺ: ((مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّين)).

فعلْم الفقه ذو علاقة وثيقة بعلْم الدّعوة وبعمل الدّعاة، إذ إنّ رسالتهم لا تتوقف على مجرّد الوعظ والإرشاد، وإنّما مِن أسُس دعْوتِهم إلى الله: أن يُبصِّروا المسلمين بالأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات.

القسم الثالث: القرآن الكريم وعلومه:

من أهم مقوِّمات الدّعوة إلى الله: حفْظ القرآن الكريم، وإتقان تلاوته، وتدبّر آياته، واستيعاب أحكامه. ولا يتصوّر ذو عقل ولبّ أن يُعدّ الدعاة بعيدًا عن ساحة القرآن الكريم، ويتأهّلون على غير موائده. وعلى الداعية بجانب وجوب حفْظه للقرآن، أن يكون على صلة دائمة بعلومه وارتباط بتفسيره، وأنْ يكون على دراية بالموضوعات التالية:

١. معرفة بعض أحكام التجويد لإتقان القراءة وإحكام التلاوة.

٢. معرفة أسباب النزول، والتعرف على المحكَم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ.

٣. الوقوف على أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.

٤. دراسة أساليب الدّعوة من خلال قصص القرآن الكريم.

٥. دراسة النفس البشرية ورغباتها وطُرق إصلاحها.

٦. الوقوف على التشريعات والأحكام التي جاء بها.

القسم الرابع: السُّنّة النّبويّة وعلومها:

"السُّنّة" هي: ما أُثِر عن النبي ﷺ مِن قوْلٍ، أو فعْل، أو تقرير، أو صفة خَلقية أو خُلقية، أو سيرة، سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها.

والسّنة النبوية هي المصدر الثاني للمسائل العقائدية والأحكام الشرعية. وقد جاءت في الجملة موافقة للقرآن الكريم: تُفسِّر مُبهَمَه، وتُفصِّل مُجمَله، وتقيّد مُطلقَه، وتخصِّص عامَّه، وتشرح أحكامه وأهدافه. كما جاءت بأحكام لم ينص عليها القرآن الكريم.

ولقد التفّ الصحابة حول رسول الله ﷺ يقرأ عليهم القرآن، ويُقبِلون على أفعاله وأقواله بتطلّع شديد وحبّ عميق، يتسابقون للجلوس على مقربة منه، ويتشوّقون لسماع حديثه وحفْظه ونقله، يُساعدهم على ذلك تغلغل الإيمان في قلوبهم، وتمكّنه من مشاعرهم وعواطفهم.

هذا بجانب قدرات فطريّة على الحفظ، وملكات ذهنية طبيعية فائقة على الاستيعاب، يصاحب ذلك حسنُ الاقتداء به ﷺ. وكان ثمار هذا كلّه السنة النبوية

وعلومها التي تضافرت الأمّة خلال القرن الأوّل والثاني على جمْعها وتدوينها من خلال ضبط المتْن والسّنَد، والنقل عن الرواة العدول الثقات.

وأصبح لدى الأمّة موسوعة ضخمة من أحاديث الرسول ﷺ وأفعاله وأقواله، تمّ تصنيفها وتبويبها، ووُضع لها علْم "مصطلح الحديث" ليُعرف من خلاله درجة صحة الحديث، ومدى قوّة السند وعدالة الرواة، ويتميّز الصحيح من الضعيف والموضوع.

هذا العلْم الشريف عميق الصّلة بعلوم الدعوة وجوهر تكوين عقليّة الدعاة.

ولكي يتمّ عميق الصلة بين علْم الحديث وعلْم الدعوة، فينبغي على الدّعاة أن يلتزموا بالأمور التالية:

١. الاطّلاع على أمّهات المصنّفات التي دُوِّنت فيها الأحاديث النبوية ومنها: "صحيح البخاري"، "صحيح مسلم"، "سنن أبي داود"، "سنن الترمذي"، "سنن النسائي"، "سنن ابن ماجه"، "مسند الإمام أحمد".

٢. دراسة علوم الحديث مع ما يتعلّق بتدوينه، مع بيان شُبهات المستشرقين التي أثاروها ضد السُّنّة.

٣. أن يتجنّب الدعاة رواية الأحاديث الضعيفة والموضوعات، وأن يتثبّتوا في النقل عنه ﷺ.

٤. معالجة قضايا الأمّة ومشاكلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في ضوء القرآن والسّنة.

المَــــوادّ العِلميّــــة الكَونيّــــة

القرآن الكريم هو حُجّة الله البَالِغة على عِباده، ومَوضع الحُجّة القاهِرة فيه إعجاز الخَلق عن الإتيان بسورة مِن مِثْله.

ويَنبغي ألّا يَكون إدراك إعجازِه مَوقوفًا على فُصحاء العرب فَقط؛ فالإنسانية كلّها مُخاطَبة به، مُطالبة بالتَّسلِيم له، لأنه كَلام الله للبَشر جَميعًا، فكان لا بدّ من إعجاز يَشترك في إدراكه العربيّ والأعجميّ. والإعجاز العلمي في القرآن الكريم هو أحد أوجُه الإعجاز الذي يَعجز المُلحدون أن يَجدوا مَوضعًا للتَّشكيك فيه، إلّا أن يتبرءوا من العَقل ويُلقون التفكير.

وقبل أن نُبيِّن مَدى ارتباط العُلوم الكَونيّة بعِلم الدّعوة، يَنبغي أن نُوضِّح الحقائق التالية:

أولًا: إن القرآن الكريم هو كتاب الله المُحكَم المُفصّل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وهذا التَّفصيل والإحكام لا يتوقّف عند زمنٍ معيَّن ولا أقوام بعَيْنهم، وإنما هو مُتجدِّد العَطاء، دائم التَّحدّي والإعجاز، حتى يَرث الله الأرض ومَن عليها.

ثانيًا: هناك تَوافق بين آيات القرآن الكريم وسُنن الله تعالى في الكون، وليس ثمّة تَعارض بين آيات الذِّكر الحكيم والقوانين العِلميّة والسُّنن الكونيّة الثابتة.

فالقرآن كلام الله، والكون خلْق الله، فلا اختلاف بينهما؛ ولهذا قيل: "القرآن كون الله المَقروء، والكَون قرآن الله المَنظور".

ثالثًا: يَنبغي أن لا يُفسّر القرآن، ولا يُستدلّ به على نَظريّات لا تَزال محلّ بحث وفَحص، ولم تَرْقَ إلى مرتبة القوانين العلميّة الثابتة، كقانون الجاذبيّة، وكقوانِين طفو الأجسام وغوْصها...

رابعًا: يَنبغي ألّا يُستدلّ بالحقائق العلميّة على صدْق القرآن، ولكن يَجب أن يُستدل بالقرآن على صِحّة الحَقيقة العِلميّة، وإذا ما حدث تعارضٌ ما فيجب أن يُعاد النَّظر في القانون العِلميّ، أو مُعاودة دِراسة الظاهِرة الكَونيّة في ضوء البحث العلمي، بأدوات بحثه المُتقدّمة وفي ضوء تفسير الآية، وفق مَدلولات اللغة العربية.

خامسًا: إنّ الإعجاز العِلمي للقرآن الكريم ليس في اشتماله على النَّظريات العِلميّة التي تَتجدّد وتَتبدّل، وتكون ثمرة للجُهد البشري الذي يُخطِئ ويُصيب؛ وإنما الإعجاز العلميّ يهدف إلى توجيه العقول إلى التفكّر فيما يحيط بالإنسان في هذا الكون، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

سادسًا: يَنبغي ألّا يُتعسّف في التأويل، ولا يُشتَطّ في التفسير، لإخضاع كلّ القوانين العلْميّة للقرآن الكريم؛ فمِن الخَطأ الاعتقاد أن يتضمّن القرآن كلّ نظريّة علْميّة، وكلّما ظَهر سِرّ نظريّة جَديدة، سارع البعض يلتمس لها تأويلًا وتفسيرًا في القرآن الكريم.

وبعد هذه التّوضيحات، فإن عِلْم الكَونيات وغيرها من العلوم التطبيقية، لَذو صِلة وثيقة بعلْم الدّعوة، وعلى الداعية أن يَتعرّف على الآيات التي تتناول سُننًا كَونية، أو ظاهرة فَلكيّة، لتكون من مَوضوعات دَعْوته، يَدعم بها حَديثه، ويُوطِّد بها استدلالاته. ومن ذلك ما يلي:

أولًا: يَجمع الله علوم الفلَك، والنّبات، وطبقات الأرض، والحيوان، في آيتيْن، ويَجعل ذلك من بواعِث خَشْيته ﷻ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

ثانيًا: الذكورة والأنوثة، أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

ثالثًا: أشار القرآن الكريم إلى انشطار الذّرة وتَجزئتها في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

فالذَّرة عرّفها العلماء بأنها الجُزء الذي لا يَتجزّأ، وأنها أصغر شيء في الوجود، وأنها رغم صِغرها يتوقّف عليها شقاء العالَم أو سعادته، وأنّ القوة الكامِنة فيها قوّة مُخيفة، إن استُعمِلت في الحَرب أفنَتْ كلّ شيء، كما حدث في اليابان في الحرب العالمية الثانية، وإن استُعمِلت في الأغراض السِّلمية حَقّقت الخير للإنسانية.

رابعًا: أشار القرآن الكريم إلى الظواهر الجَوِّيّة في آيات كَثيرة، منها:

قوله الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ

عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤].

فقد أشارت هذه الآيات إلى الظواهر الكونيّة التّالية:

١. السّحاب.

٢. المطر.

٣. البَرَد.

٤. الصّواعق.

٥. تقلُّب الليل والنهار.

وما يَحمل ذلك عَبر هذه الآيات وغيرها، ممّا ينبغي على الدّعاة أن يقفوا على أسرارها، ويسبرون أغوارها؛ وبهذا يتملّكون نواصي العُقول والقُلوب.

وبذلك يَتّضح مَدى ارتباط العُلوم الكونيّة وغيرها كطبقات الأرض، والزراعة، والفلَك، بعلْم الدّعوة إلى الله.

القسم الخامس: علْم التّاريخ والمَغازي والسِّيَر:

إنّ علْم التاريخ مرآة لأحداث الماضي ووقائعه، سطّرته الأمّة بدماء شهدائها، ومداد علمائها. وهو الذّاكِرة الجيِّدة التي تَحمل بين ثناياها عَبَق الماضي من أمجاد وانتصارات أحيانًا، وفتنٍ ومحنٍ وهزائم أحيانًا أخرى. وحلقات التاريخ متابعة، ومتواصلة عبر القرون، ولا تستطيع أمّة أن تتنكّر لتاريخها أو تتوارى خجلًا من أحداثه. وتاريخ الإسلام يفيض بالدروس ويزخر بالعِبر، ولا سيما في القرون الأولى لدعوة الإسلام. والدّاعي إلى الله يحتاج إلى أن يَدخل مِحراب التاريخ

ويَدرس عوامل نُهوض الأمّة، ويَقف على أسباب انكسارها، كما يَرقُب عن كثب وهو يقلّب صفحاته أمجادَ المسلمين في صدر الإسلام، من خلال الفتوحات والغزوات، ينقل ذلك بأمانة وصدْق عاطفة، فيُحرِّك السّاكن، ويُوقظ الكَسلان ويُنبِّه الغافِل، فتَتحرّك القُلوب وتَستَيقِظ المَشاعر، وتهبّ الأمّة من كبْوَتها، حيث حرّكتْها ذكريات الماضي.

كما على الدّعاة أن يَدرسوا تاريخ الأمَم من خِلال قَصص القرآن الكريم الذي يَجلو حَقيقة مواقف المُعاندين ونهايتهم، ويُرشد إلى جِهاد الرُّسُل ومَن مَعهم.

بجانب هذه العلوم التي ذَكرناها، فإنه يَجب على الدّعاة أن يكونوا مُلمِّين بثقافة العصر، دارسين للمذاهب الفكريّة، والتيارات المعاصرة، لأن العداء بين الإسلام وأعدائه ليس وليدَ اليوم ولا الأمس القريب، ولكنها أحقاد كامنة وثأر قديم وغلّ دفين؛ يتفنّنون في التآمر على المسلمين، يرقبون حركة المسلمين عبر العصور، ويقفون على مواقف القوة فيُضعفونها، ويقفون على مواضع الضّعف فيزيدون منها، نكاية للإسلام ومحاولة للنَّيْل منه.

كما سبق، يتّضح أنّ جميع العلوم النظرية والتَّطبيقية، وشتّى المعارف الإنسانية، هي عبارة عن شرايين تتدفّق منها العلوم لتُغذّي علْم الدعوة، فيَنهل منها الدعاة، ويتكوّن لديْهم كمٌّ هائل من المعرفة، ورصيدٌ ضخمٌ في شتّى الثقافات، فيكونون بذلك أقدر على الإقناع، وأقوى على سَوْق الحُجج والبراهين. وبهذا تعلو راية الدعوة إلى الله، وترتفع هامات الدّعاة بهذا العمل الشريف، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣].

الدعوة إلى الله من أشرف الأعمال وأعظمها

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الدعوة إلى الله مهمة الرسل	٤٣
العنصر الثاني :	تعدد أسماء الدعوة إلى الله مما يدل على شرفها	٥٣
العنصر الثالث :	الدعوة إلى الله ماضية إلى يوم القيامة	٥٨

الـــدَّعوة إلى الله مُهمّـــة الرُّسُـــل

لقد بيَّنَّا علاقة علْم الدَّعوة بالعلوم الأخرى التي تربط الدّاعية بالعلوم الشرعية والعلْمية، ومِن ثمّ يكون مؤهَّلًا لشرف حمْل رسالات الأنبياء ووحي السماء، إذ إنّ الدَّعوة إلى الله هي وظيفة الرُّسُل. وسوف يتناول هذا العنصر المباحث التالية:

المبحث الأول: التعريف بكلٍّ من "النَّبيّ" و"الرَّسول"، وبيان الفَرق بينهما:

النّبيّ لغة: إمّا أن يكون مُشتقًا من "النَّبأ" وهو الخَبر، قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحِجر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [التحريم: ٣].

فأصْله: "النبيء"، فتَحرّكت الهَمزة للتخفيف، لكَثرة الاستعمال، حيث قُلِبت الهمزة المتطرِّفة ياءً، ثم أُدغِمت الياء في الياء.

ويُجمع "النّبيّ" على: نبيِّين، وأنبياء، وأنبئاء، ونُبآء. أما لفظ "النّبيّ" فيُشتَق أيضًا من النّبوّة، والنباوة، وهي: الارتفاع عن الأرض، وذلك لارتفاع قَدْر النّبيّ ﷺ لأنه شَرُف على سائر الخَلْق، فأصله من غير همزة.

النّبيّ اصطلاحًا: هو إنسان ذَكَر حُرّ من بني آدم، سليم عمَّا يُنفِّر طبعًا، أوحى الله إليه بشرْع يَعمل به، وإنْ لم يُؤمَر بتَبليغه.

الرَّسول لغةً: هو الذي يُتابع أخبار الذي بَعثه، أخذًا من قَولهم: "جاءت الإبل رَسلًا" أي: متتابعة.

وتُطلَق كَلمة "الرَّسول" على المُبلِّغ، كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وتارة تُطلق على القَول المُتحمَّل كقول الشاعر:

ألاَ بلِّغْ أبا حفص رسولاَ ❖ ... ...

أي: قولًا.

وتُطلَق على رُسُل الله من البَشر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١].

ويُراد بها الملائكة، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٨١].

الرَّسول اصطلاحًا: يُعرف "الرَّسول" بما يُعرَّف به "النَّبيّ" غير أنّ الرَّسول هو: مَن أَوْحى الله إليه بشرْعٍ وأمَره بتَبليغه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالنُّبوّة والرِّسالة سِفارة بين الله وبين ذَوي العُقول، لإزاحة عِلَلهم في أمر معادِهم ومعاشِهم.

الفَرق بين "النَّبيّ" و"الرَّسول":

فرّق عُلماء التَّوحيد بين "النَّبيّ" و"الرَّسول"، وهذه المُغايَرة تَرجع إلى قَوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج: ٥٢].

فذكرت الآية إرسالًا يُقِرّ النَّوعيْن، وعَطَفت النَّبيّ على الرَّسول، والعَطْف يَقتضي المُغايرة. ويُستَدلّ على الفرْق بين النَّبيّ والرَّسول بما أخرجه الحاكم عن أبي ذر > قال: ((قُلت: يا رسول الله! كم الأنبياء؟ قال: مائة ألْف وأربعةٌ وعشرون ألْفًا. قال: قُلت: يا رسول الله. كم الرُّسُل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر. جمٌّ غفير كَثير طيِّب)).

فلقد أخبر رسول الله ﷺ عن عدد الأنبياء والمرسلين، ومِن ثَمَّ اتّجه أهل السُّنّة والجَماعة إلى التَّفرقة بين النَّبي والرَّسول في الأمور التالية:

أولًا: النَّبيّ مَن أُوحيَ إليه بشَرْع يَعمل به واختُصّ به. والرَّسول فقط هو: مَن أوحِي إليه بشَرْع يَعمل به ويُبلِّغه، ولم يَختَص بشيء منه. فإن اختصَّ بالبَعض وبلَّغ البَعض فهو نَبيّ ورَسول، كرسول الله محمدٍ ﷺ.

ثانيًا: النّبيّ هو الذي يُنبئه الله، وهو يُنبئ بما أنبأه الله به. فإن أُرسِل مع ذَلك إلى مَن خالَفه ليُبلِّغه رسالة من الله فهو رَسول.

ثالثًا: النَّبيّ يكون مقرِّرًا لِمَن سَبق تَبليغُهم، أمّا الرَّسول فهو مُبلِّغ للأحكام.

رابعًا: الرَّسول يكون مَعه كتاب، بخِلاف النَّبيّ فإنه قد لا يَكون معه كتاب أحيانًا، كهارون مع موسى، وإسماعيل وإسحاق ويعقوب من إبراهيم.

خامسًا: أنّ الرَّسول من الأنبياء هو: مَن جَمع إلى المُعجزة الكتاب المنزّل عليه. والنَّبي غير الرَّسول، هو مَن لم ينزّل عليه كتاب، وإنما يَدعو الناس إلى شَريعة مَن قَبْله.

سادسًا: أنّ كلمة "النَّبيّ" إذا ما أطلِقت فإنها تَنصرف على مَن بعَثَه الله من البَشر. أمّا كلمة "رَسول" فتُطلَق على ما يلي:

١. الملائكة، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ٨١].

٢. الرياح، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحِجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴾ [المرسلات: ١ - ٣].

قال ابن كثير -رحمه الله-: "فيما روي عن ابن مسعود > : أنها الريح، يؤيّد ذلك: قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الفرقان: ٤٨].

وقيل: "المرسلات" هي: الملائكة، إذا أرسلت بالعُرف أو كعُرف الفَرس يتبعُ بعْضهم بعضًا".

٣. الشياطين، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. قال ابن عباس } : "تغويهم إغواء". وقيل: تحرّضهم على محمد ﷺ وأصحابه. وقال قتادة: تزعجهم إزعاجًا إلى معاصي الله.

٤. تُطلق على الرُّسُل من غَير الأنبياء من البَشر، وهم السُّفراء وحامِلو الرسالات بين الدول، قال تعالى: على لسان بلقيس ملكة سبإ: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥].

أمّا المعتزلة وبعض الأشاعرة، فهم لا يفرّقون بين النَّبي والرَّسول، ويَستدلّون على ما جاء في القرآن الكريم من إطلاق كلّ منهما على الآخر، غير أنَّ الأوْلى هو اتباع منهج السُّنّة والجماعة في التَّفرِقة بين النَّبيّ والرسول.

المبحث الثاني: اصطفاء الله للأنبياء والمرسلين:

إن رسالات السماء لا ينالها البشر بالاكتساب، ولن تتحقّق لهم بالممارسات الرّوحية والتّريّض الذهني أو العقلي، أو بمجاهَدة النَّفس والتَّعمّق في الفِكر،

وإنما هي اصطفاء واختيار من الحَق ﷻ لصَفوة من الخَلْق، وجماعة من البَشر اختصّهم الله بعنايَته، وشَملَهُم برعايته، وكلأهم بحفْظه، وعصَمَهم ممّا يقع فيه الناس مِن هفوات، وأيّدهم بالمعجزات الدالة على صدْقهم، وأنزل عليهم الكتب المُوضحة لشرائعهم.

ولقد تحدّث القرآن الكريم عن هذا الاصطفاء، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال تعالى عن إبراهيم # : ﴿ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وذكَر القرآن الكريم اصطفاء الله للأنبياء من لدُن آدم إلى محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

يقول ابن كثير في "تفسيره": "يُخبر الله تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض؛ فاصطفى آدم # خلَقه بيده، ونَفخ فيه من روحه، وأسجَد له ملائكته، وعلّمه أسماء كلّ شيء، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لِما له في ذلك من الحكمة. واصطفى نوحًا # وجعلَه أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيّد البشر، خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ وآل عمران، والمراد به والدة مريم -عليها السلام-. وموسى # ذكَر القرآن الكريم اصطفاء الله له ونعمه عليه، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وعن هذا الاجتباء والاختيار، يقول تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٨].

ولقد ظن كُفَّار مكة أنّ الرسالة تتوزّعُ على البشَر، وأنّها تتحقّق بالرغبة، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزُّخرف: ٣١]، يَعْنُون بذلك أحد عظماء قريش.

وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، أي: حتى تأتينا المَلائكة من الله بالرسالة، كما تأتي الرُّسُل. فردّ الله عليهم قائلًا: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ويتحدث الرَّسول ﷺ عن اصطفاء الله له فقد روي عن واثلة بن الأسقع > أن رسول الله ﷺ قال: ((إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كِنانة، واصطفى من بني كِنانة قُريشًا، واصطفى من قُريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)) رواه مسلم.

وعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((بُعِثْتُ من خَير قرون بني آدم، قرنًا فقرَنًا، حتى بُعثت من القَرن الذي كُنت فيه)) رواه البخاري.

وهذا الاصطفاء امتدّ شرَفه إلى أمّة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وعن عبد الله بن مسعود > قال: "إنّ الله نظَر في قلوب عباده فوجَد قَلْب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته. ثم نَظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قُلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نَبيِّه،

يقاتلون على دِينه. فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسَن، وما رآه المسلمون سيِّئًا فهو عند الله سيّئٌ" رواه أحمد في "مسنده".

ومع كلّ نَبيّ ورسول يَصطفي الله أتباعه من المؤمنين الصادقين، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول الله تعالى: "ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المُصدِّق لِما بين يديه من الكتب، ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، وهم هذه الأمّة".

وأمْر الأنبياء وشأنهم لم يَتوقف عند الاصطفاء والاجتباء فقط، ولكنه امتدّ إلى التربية والتعليم وحُسن الإعداد منذ طفولتهم. فإبراهيم # يَدعو ربه أن يَبعث لهذه الأمّة رسولًا له منهج يتميّزون به عن سائر الأمم، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ويوسف # كانت عِناية الله تَحفظه، وقد شعَر والده يعقوب # بهذا وذكَر الله قولَه لابنه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ [يوسف: ٦].

وذكَر القرآن الكريم فضْل الله على يوسف، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وأخبر الله تعالى موسى أنه أُعِدّ وصُنِع وعَينُ الله ترعاه منذ أن وُلد، وأُلقيَ به في النهر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤٠، ٤١].

وتحدَّث القرآن الكريم عن يحيى # وعن اصطفائه واختياره وهو مازال غلامًا، فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢، ١٣].

وعن رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

وعن عِصمته لرسول الله ﷺ وحِفْظه إيّاه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، أي: يا محمد، بلِّغْ أنت رسالتي، وأنا حافِظك وناصرك ومؤيِّدك على أعدائك؛ فلا تَخفْ ولا تَحزنْ! فلن يَصل أحدٌ منهم إليك يسوءك بشيء.

وقد وقعت وقائع عديدة للنَّيل منه ﷺ وجَرتْ محاولات لقَتْله أكثر من مَرةٍ، ولكن الله حَفظه، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩].

وبجانب الاصطفاء والانتقاء والرعاية، فقد رَفع الله قَدْر الأنبياء والمرسلين وأعْلَى مكانَتهم، قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشَّرح: ٤].

وقد أوجب الله لرُسله وأنبيائه صفاتِ الكَمال، كالصِّدق، والأمانة، والتبليغ، والفَطانة، وسائر الأخلاق الفاضلة. وحرَّم عليهم الرذائل، والنقائص التي تُخِلّ بالرسالة وتتنافى مع النبوة، مثل: الكَذب، والخِيانة، والكِتمان، والغَفلة.

والأدلّة على ما يَجب، وما يَجوز، وما يَستحيل في حقّهم، مَذكورة في القرآن الكريم.

فالأنبياء والمرسلون هم صفوة الخَلْق، وخُلاصة البشَر، فضلًا عن أنّ الله ﷻ اختصّهم بالوحي، وشرّفهم بالرسالة، وأيّدهم بالمعجزات؛ فالإيمان بهم أصْل من أصول العقيدة، وجزءٌ مكمِّل للإيمان بالله، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والإيمان بهم يَستوجِب الإيمان بكلِّ ما جاءوا به من عند الله مِن تشريعات، والتصديق بما أجرى الله على أيديهم من معجزات، ومن وجوب اتّصافهم بأسمى صفات الكمال، وتَنزيههم عن النَّقائص، وعَدم التَّفرقة بينهم، وحُرمَة التَّطاول على سِيرتهم، أو التَّشهير بهم، أو القيام بتمثيل أشخاصِهم المُقدّسة في وسائل الإعلام.

والمُراد من الأنبياء والمرسَلين: الذين جاء ذِكْرهم في القرآن الكريم، وهم خمسة وعشرون نبيًّا ورسولًا، جاء اسم ثمانية عَشر منهم في سورة (الأنعام)، في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٦].

وسبعة ذُكِروا في الآيات التالية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥].

﴿ ... وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ... ﴾ [الفتح: ٢٩].

هذا، فضلًا عن الذين لم يَرِدْ ذِكْرهم في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [غافر: ٧٨].

فالأنبياء والمرسلون هم خلاصة الإنسانية وصفوتُها، من لَدُن آدم # إلى خاتم النبِّيين محمد ﷺ. وهم يُمثِّلون وحدة العقيدة عبر مسيرة الجنس البشري. كما أنّ رسالتهم تشكِّل النسيج الحضاري والسّموّ الأخلاقي للإنسانية بهم، تفصيلًا فيما فصّله وإجمالًا فيما أجمله. ويجب الاعتقاد الصادق أنهم جميعًا بلّغوا كلّ ما أوحى الله به على الوجه الأكمل؛ وهذا من أمارات الإيمان وعلامات الصادقين، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد: ١٩].

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

ومن موجبات الإيمان بالرُّسل عدَم تفضيل أحدٍ منهم على الآخر، وأنّ أمر التفضيل من شأن الله تعالى، قال -سبحانه جلّ شأنه-: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

ولقد جاء في القرآن الكريم وورَد في السُّنّة الشريفة بعض ما تفضل الله به على أنبيائه ورسُله من فضائل، وما اختصّ كلًّا منهم بالمعجزات. فهم عند الله متفاوتون، أمّا عند البشَر فهم متساوون؛ فيَحرُم التّفرقة بينهم أو التطاول على أحد منهم، كما يفعل غير المسلمين مع رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال ابن كثير: "فالمؤمنون يؤمنون بأنّ الله واحدٌ فردٌ صمد، لا إله غيره ولا ربّ سواه، ويصدِّقون بجميع الأنبياء والرُّسُل، وبالكتب المُنزَلة من السماء عليهم، لا يفرِّقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديُّون هادون إلى سبل الخير، وإن كان بعضهم نسخ شريعة البعض بإذن الله، حتى نسخ بشرع محمدٍ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته. ولا تزال طائفة من أمّته على الحق ظاهرين".

تعدّد أسماء الدّعوة إلى الله ممّا يدلّ على شَرفها

لقد تَعدّدت أسماء الدّعوة إلى الله في القرآن الكريم، وتنوّعت أغراضها ونتائجها، ممّا يُنبئ عن رِفعة قَدْرها، وعلوِّ منزلة مَن يَعمل في مَيدانها، وذلك على النحو التالي:

أولًا: هي دعوة إلى الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الحديد: ٨].

ثانيًا: هي دعوة إلى سبيل الله وإلى الطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

ثالثًا: دعوة إلى الحياة المستقيمة الآمنة بين ظلال الإسلام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

رابعًا: هي دعوة إلى الخير والمعروف والفلاح، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٤].

فالخَير: هو جِماع الفَضائل والمَكارم، واسم شامل لصِفات الكَمال المُشتَملة على محاسِن الخِلال وفضائل الأعمال.

والمعروف: اسم جامع لكلّ ما عُرف من طاعة الله والتَّقرب إليه، والإحسان إلى الناس، وكلّ ما ندب إليه الشّرع أو نهى عنه، من المُحسِّنات والمُقبَّحات.

والفَلاح هو: الفَوز والنَّجاة في الآخِرة.

خامسًا: هي دعوة الحقّ وإلى الحقّ، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد: ١٤].

ففي هذه الآية الكريمة بيان وتَوضيح على أنّ دعوة الله هي الحق.

والحق: هو الأمر الثابت الواضِح الجَليّ، الذي لا تعتريه شُبهةٌ ولا يَلحق به زورٌ أو بهتان.

وقد ذكرت الآية أنّ الدعوات البعيدة عن وحي السماء ورسالات الأنبياء، هي دعوات خاسرة باطلة، لا تُفيد الإنسان، ولا تُحقّق ما يصبو إليه من آمال، وأنها سراب خادع.

وقد شبَّه القرآن الكريم مَن يَتعلّق بها بمَن يَملأ كَفّيْه من الماء ليَبلغ فاه لِيروي ظمأه وعَطشه، ولكنه لا يَبلغه ولا يَستطيع أن يَتناوله؛ وهذا يصْدُق على الدعوات المعاصرة التي تُروِّج وتُزيِّن للعَلمانية والإلحاد، وتَدعو إلى المنكرات، ولم تَحصد الإنسانية منها إلّا التّعاسة والشقاء.

سادسًا: هي دعوةٌ للعباد إلى الجَنة والمَغفرة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥].

سابعًا: هي دعوةٌ للنجاة من النار، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

هذه هي مكارم الدعوة إلى الله وفضائل ما تدعو إليه.

أمّا عن منزلة ومكانة الدّعوة إلى الله، فهي مكانة ومنزلة تَشرئبّ إليها الأعناق، وتشخص لها الأبصار. وقد أسبغ القرآن الكريم على الدّعاة إلى الله من الأنبياء المرسلين ومن سار على نهجهم وبلّغ رسالتهم، صفات الجلال والكمال، وأعلى قَدْرَهم ورفَع مكانتهم، وأطلق عليهم من الأسماء والصفات ما يدلّ على ما حباهم الله به من فضلٍ وما أسبغ عليهم من نِعم، ومِن ذلك:

أولًا: تعدّد أسماء الرسول ﷺ وصفاته، مما يُنبئ عن رِفعة قَدْره وشَرف ما يَدعو إليه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٨٧].

ثانيًا: وصف القرآن الكريم الرُّسُل بأنهم دعاة إلى الله، فلا سلطان لبشَر عليهم؛ فهم يَستمدّون قُوّتهم من وحي الله المنزّل عليهم، وبالمعجزات المؤيِّدة لهم، قال تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢].

والدّعاة إلى الله يَستمدّون دَعْوَتهم من القرآن والسُّنّة، ويَعيشون بين رياض العِلْم وقُطوف المَعرفة؛ وهذا مما يُعلي شأنهم ويَرفع قَدْرهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فقد قَصر الحَقُّ ﷻ خَشيتَه وحصَرها في العلماء، لأنه كلّما ازدادت معرفة الإنسان ازدادت خَشيته لله وخوفُه منه، وكلما ارتبط الداعي بالقرآن زادت

مكانتُه عند الله. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص { عن النبي ﷺ قال: ((يُقال لصاحب القرآن: اقرأْ وارْتَقِ، ورتِّلْ كما كُنت تُرتِّل في الدنيا؛ فإنّ مَنزلتَك عند آخرِ آية تَقرؤها)) رواه أبو داود والترمذي.

والدّاعي لا يكون إلّا عالِمًا فقيهًا بأحوال الناس، عليمًا بما يَدعوهم إليه، خَبيرًا بما يَنهاهم عنه، وبقَدْر تفانيه وإخلاصه تكون مَنزلتُه وثوابه عند الله.

فعن ابن مسعود > قال: سَمعت رسول الله ﷺ يقول: ((نضّر الله امرأً سَمِع منّي شَيئًا فبلَّغه كما سَمِعه؛ فرُبَّ مبلَّغ أوعَى من سامِع)) رواه الترمذي وقال: "حديث حسن صحيح".

وعن أبي هريرة > أنّ رسول الله ﷺ قال: ((مَن دعا إلى هدًى كان له من الأجر مثل أجور مَن تَبِعه، لا يَنقُص ذلك من أجورِهم شَيئًا. ومَن دعا إلى ضَلالة كان عَليه من الإثم مثلُ آثام مَن تَبِعه، لا يَنقص ذلك من آثامِهم شيئًا)) رواه مسلم.

وقد بيّن الرسول ﷺ: أنّ مِن أفضل الجِهاد ما يقوم به الدّعاة من قول الحق، ولا سيما حينما يَصْدعون به لدى سلطان جائرٍ وحاكِم مُستبدّ.

فعن أبي سعيد الخدري > عن النبي ﷺ، قال: ((أفضلُ الجِهاد: كلمةُ عدلٍ عند سلطان جائر)) رواه أبو داود، والترمذي وقال: "حديث حسن".

وهكذا تَتوافر الأدلّة من القرآن والسُّنّة على مكانة الدعاة، وأنَّ الدعوة إلى الله هي أحسن عَمل وأشرف وَظيفة. وليس مِن عمل أرفع قدرًا وأعلى مكانة من عَملٍ مستمدٍّ من وحي السماء ورسالات الأنبياء. وليس من ثَواب عند الله أفضل من ثَواب مَن يدعو إلى الله.

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الدّعوة إلى الله ماضِية إلى يوم القيامة

تمهيد:

نوضِّح هنا أنّ الدعوة إلى الله ماضِية ليوم القيامة؛ إذ التَّدافُع والتصارُع بين الإيمان والكُفر، والخَير والشَّر، والعَدل والظُلم، والحَقّ والباطِل، لن يَنطفئ لَهيبه ولنْ تَخمد جَذوته، فهو سُنَّة من سُنن الله في الكون منذ أن خَلق الله آدم # وإلى أن يَرث الله الأرض ومَن عَليها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾. [الحج: ٤٠]

ولقد شاءت إرادة الله أن تَكون الكُرة الأرضية مَيدانًا رَحبًا للتَّدافُع والصِّراع الذي أثخَن الإنسانية بالجِراح. ولقد تَعدّدت أطراف التَّقاتل والتَّنازع عَبر تاريخ البشرية وحتى قيام الساعة، ممّا يوجب استمرار الدّعوة إلى الله، ووجوب وجود أمّة الدعوة التي تقوم بها، وتَتشرَّف بتحمُّل تَبعاتها حتى يَرث الله الأرض ومَن عليها.

ولقد تَعدّد أطراف التَّقاتُل والتَّنازُع عَبر تاريخ البشرية على النحو الموضَّح في العناصر الآتية:

العنصر الأول: أطراف التَّصّارُع والتَّنازُع في هذا الكون:

أولًا: الصِّراع بين الشيطان والإنسان:

لقد كان خَلْق الله لآدم # في أحسن تَقويم، وأمْره ﷻ الملائكة بالسُّجود له - سُجود تَحية وتَكريم- ثم إسكانه وزَوجه الجنّة، واستخلافه في الأرض بعد ذلك، هو الشَّرارة الأولى التي أشعلت نيران الحِقد الأسود والغِلّ الدَّفين في قلب إبليس اللّعين، حيث اعترض على خَلق آدم، وامتنع عن أمْر السجود له، لاعتقاده الخاطِئ أنه في مَنزلة أعلى منه خَلْقًا، وأفضل عُنصرًا. ولقد ذَكر القرآن الكريم هذا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢].

ثم أردف ذلك بالتَّهديد والوَعيد مُعلِنًا ذلك في جُرأة ووَقاحة. وقد أخبر القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢]، أي: لأستولين عَليها ولأحتوينّها ولأضِلّنّها.

وقد كَشف القرآن الكريم خُطّته لاحتواء الإنسان وغِوايته، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

ولِحكمة يَعْلمها الله ﷻ استجاب لِطَلب إبليس بتَمكِينه ممَّن ضَعُف الإيمان في قُلوبِهم، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣، ٦٤].

ولقد بيّن الحقّ ﷻ أنه عَصم أولياءَه المُتّقين من مَكْره، وحَفِظ عباده المُؤمنين من سَيْطرته ووَسْوسته إليهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وهكذا انحصر مكر إبليس في مَن ضَعُف إيمانُهم، ووَهنت عَقيدتُهم. ولقد حذَّر الله آدم # وزَوجَه ممّا أضمَره لهما الشيطان، وبيّن لهما عاقِبة الانصياع لوساوسِه والوقوع في حبائل إغوائه. وكان أمر الله لآدم وزَوجه بعَدم الاقتراب من الشَّجرة والأكل منها واضحًا، وأبان لهما في جَلاء تام مَغبَّة مُخالَفة أمره سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

ولأمور قدَّرها الله، ولِحِكمةٍ لا تُدرك العُقول كُنْهَها، مُكِّن للشيطان في أن يَتسلَّل إلى الجَنة ويَلبَس ثوب النّاصِح الأمين لآدم وزَوجه، وأقسَم لهما على ما يُحقِّقه الأكل من الشجرة من الانتقال من البَشرية إلى المَلائكيّة، وتَحقّق الخُلود وعَدم الفَناء؛ فضعُفا أمام وسوَسته واستجابا لإغوائه، وأكلا من الشجرة المَنهيّ عنها، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١].

وقد عاتَبهما الله على مُخالفة أمْره، بالنَّهي عن الاقتراب أو الأكل من الشجرة، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

فاعترفا بتَقصيرهِما، وأقرّا بخَطئهما، وطَلبا من الله المَغفرة والرَّحمة، قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ الأعراف: ٢٣.

لقد استوعب آدم وزَوجه الدَّرس جَيدًا، وأيقنا بالتَّجربة والواقع مَدى الحِقد الذي يُضمره الشيطان عليهما.

ثم أهبِط بثلاثتهم إلى الأرض، لتكون ساحة للصِّراع والنِّزال بين بني آدم وإبليس وحِزبه إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [الأعراف: ٢٤].

وتوالى تَحذِير الله لبني آدم على ألسنة رُسُله، ومن خِلال كُتبه المُنزلة عَليهم من فِتن الشيطان ومكائِده. ونبّه ﷻ على أنّ ما حلّ بأبيهم وأمّهم بسبب وساوسه، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

هذا الحِقد الأسود والغِل الدَّفين الذي يَحمله الشيطان لبني آدم، لن تَنطَفئ ناره ولن يَخمد لَهيبه، بل هو مُستمرّ على مَدى تاريخ الإنسانية، وسيَظل هذا الصِّراع ما دام الإنسان يَحيا في هذا الكون.

وإنّ من رَحمة الله بعباده، وشفَقته عليهم ورأفته بهم، أنه لم يَدعْهم للشيطان يستحوذ عليهم ويَفترسهم، ولكن أرسَل الرُّسل، وأنزل الكُتب، وفَتح أبواب

التَّوبة والمَغفرة، وحصّن الإنسان بأنواع العِبادات، وصُنوف الطاعات والقُربات، التي تَحول بَينه وبين الشيطان.

واختَص الحق -تبارك وتعالى- أمّة الإسلام من بين الأمم لتتولّى مُنازَلة الشيطان وحزبه، وذلك من خِلال آيات الله وسُنّة رسوله ﷺ وبجهود الدّعاة إلى الله الذين لا يَخلو منهم زمان ولا مكان، حتى يَرِث الله الأرض ومَن عليها.

وهذا ما يُؤكِّده قول الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالدّعوة إلى الله سُنَّة فِطريّة، وحاجة ضَروريّة للإنسانية، ما دام الشيطان وحِزبه يَعيثون في الأرض فساداً. ولنْ يُلجِم الشيطان عن إغوائه، ولنْ يُفسِد وساوسَه، إلّا الدّعاة إلى الله، حينما يُخلِصون النِّية والعَمل، ويتسلّحون بالكتاب والسُّنّة، ولا يَكفُّون عن مُقاومة الشيطان وحِزبه، ولا يتوانَون عن كَشف أساليب مَكْره، ويَظلّون يُحذِّرون البَشر من كَيْده؛ وهذا أمر باقٍ ما دام الإنسان والشيطان، وما بَقيت السماوات والأرض.

ثانيًا: الصِّراع بين الإنسان ونَفْسه:

لقد خَلَق الله الإنسان في أحسن تَقويم، وأسبَغ عَليه نِعمَه ظاهِرة وباطنة، وأودع بين جَوانب نَفسه وثنايا قلبه وجَسده أسرار الخَلق، وعَظمة التَّكوين، ودِقّة الإبداع، وآيات الإعجاز، ودَلائل القُدرة، قال تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

فالإنسان تَتكوّن هَيئتُه وحَقيقتُه من جَسد ونَفْس؛ فالجَسد عِبارة عن الهَيكل المَكسوّ لحمًا وشَحمًا، ودَمًا وأجهزة وأعصابًا، وعُروقًا بعضها يُرى بالعَين المُجرّدة أو بوسائل العِلْم الحَديث، والبَعض ما زال العِلْم عاجزًا عن سَبر أغواره واكتشاف بعْض حَقائقه، ممّا يُنبئ عمّا يَحتويه الجِسم من أسرار تَدلُّ على قُدرة

الخَالق وعظمة الصانِع ﷻ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

أمّا النَّفْس، ويُراد بها الرُّوح التي بها الحَياة وإذا زايلت الجسم نَزل به المَوت، وهي باقِية فيه ما بَقِي في الحيّ نَفَس، فهي: الجَوهر اللَّطيف الحامِل لقوّة الحياة والحِسِّ والحَركة والإرادة. وهي مُجرّدة عن المَادة، قائمة بنَفسها، غير مُتميّزة، مُشتبكة بالبَدن اشتباك الماء بالعُود الأخضر، ومُتعلّقة به للتَّدبير والتَّحريك.

وتَرِد "النَّفس" في اللغة العربية على مَعانٍ كَثيرة، منها:

١. النفس: معنًى في الإنسان يوجِّهُه إلى أفعاله من الخَير والشَّر. تقول: "أمرتْني نَفْسي"، و"سوّلتْ لي نَفسي". قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

٢. "النفس" تُطلق على مَعنًى في الإنسان به التَّمييز والإدراك والإحساس لِما يُحيط به، وهذا المَعنى يُفارقه في النّوم حيث يَغيب وَعيه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزُّمَر: ٤٢].

وقد سمَّى القرآن الكريم غِياب الوعْي عن النائم: "وفاة"، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴾ [الأنعام: ٦٠].

و"الرُّوح" -بضَمّ الراء-: ما به حياة الأجسام. وقد يُضاف إلى الله للملْك أو التَّشريف، قال تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم: ١٧].

و"الرّوح" يُطلق على كلِّ أمْر خَفيّ لَطيف، كالوحي، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويُطلق على جبريل، قال تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ [النبأ: ٣٨].

ويُطلق على أمْر الله ﷻ قال تعالى: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر: ١٥].

ويُطلق لَفظ الروح على ما هو داخل الإنسان، وهو كالنَّفس، وتكون به الحياة.

وحَقيقة الرُّوح أمرٌ اختُصّ الله به، واستأثر بعلْمه، وجعلَه سرًّا من أسرار الحياة، ليس لأحد من الخَلق إدراك كُنهه، أو البَحث عن حَقيقته، وإنما يُعْرف بآثاره. قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

فالإنسان يَكوَّن من جَسد ونَفْس ورُوح، ولقد أودع الله بين ثنايا قَلْبه وجوانب نَفسه أنواعًا من الغَرائز والدَّوافِع تَتَفاعل داخل كيانه، وتَتَدافع في تَعادل إلهي دَقيق وتَوازن مُعْجز. ومن هذه الغرائز:

١. غَريزَة حُبّ النَّفس، والحِرص على الحَياة.

٢. غَريزة حُبّ التَّملك والاقتِناء.

٣. غَريزة الخَوف والغَضب والهَرب.

٤. غَريزة المَأكل والمَشرب.

٥. الغَريزة الجِنسيّة.

هذه الغَرائز وغيرها تَغلي كالمِرجَل داخل كَيان الإنسان، وكل غَريزة تَتَزاحَم لِبسْط سُلطانها على سُلوكه وتَصرّفاته.

هذه الغَرائز ليست غاية في ذَاتها، وإنما هي بأعراضِها ومُؤثّراتِها وسائل لغايات أخرى تُعين الإنسان وتُمكّنه على تَحمُّل أمانة الله في هذا الكون.

والإنسان بفِطرته وعَوامل خَلْقه وتَكوينه، يَميل لإشباع تلك الغَرائز، فيَحدُث الصِّراع داخِل كيانه حَيث تُحاول كلّ غَريزة أن تَجذبه إليها، وتَدفعه بقوّة لإشباعها؛ ولو تُرك الشخص دون ضوابط الدِّين وأحكام الشَّرع وتقاليد المُجتمع المُسلم التي تتلاءم مع الفِطرة النَّقية، لانطلق الإنسان كالجواد الجَامِح الذي لا يُوقفه شيء.

ومن رحمة الله بالإنسان أنه لم يَدعه للغَرائز تَفترسه، ويَنساق معها دون ضوابط أو روابط، بل أودع بين حنايا نَفْسه مقاييس ومَوازين اعتدال السلوك وسَلامة التَّصرف، قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]، أي: طَريق الخَير، وطَريق الشَّر.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

وقال ﷺ: ((البِرُّ ما اطمأنّتْ إليه النّفسُ. والإثمُ ما حَاكَ في صَدرك، وكَرِهتَ أن يَطَّلعَ عَليه النّاس)).

هذا بجانب دعوات الأنبياء والمرسلين، عَبر تاريخ الإنسانية التي تُنظِّم غَرائز الإنسان وتمنعُها من التصادم والتصارع.

فالدّعوة إلى الله ضرورة إنسانية، يحتاج إليها الإنسان لإصلاح ذاته، ولتحقيق التناسق والتوازن بين رغباته وشهواته، وحَسم الصِّراع داخل نَفسه، وذلك من خِلال تَوجيه الدّعاة للناسَ إلى الله، وبيانهم للحَلال والحَرام وفْق أحكام الدِّين وشَرائعه.

وسوف تَظل الدّعوة -بإذن الله- قائمة، والدّعاة يُؤدّون رسالتهم ما بَقي الإنسان على ظَهر هذه الأرض يَحمل بين جَسده ونَفْسه غَرائزه وشَهواته.

أسباب استمرار الدعوة وبقائها

عناصر الدرس

العنصر الأول : الصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان ٦٩

العنصر الثاني : لم كانت أمة الإسلام هي المكلفة شرعًا بالدعوة إلى الله دون غيرها من الأمم ٧١

الصِّــراع بــين الإنســان وأخيــه الإنســان

كـلّ شـيء في جِسـم الإنسـان لـه طَاقـة تَتحرّك بقَـدر، ولا تَسـتوعب أكثـر مـن قُـدراتها، ولا تَتجـاوز المَـوازين الدَّقيقـة الـتي خَلقهـا الله لأداء مَهامِّها في الجسـم. فالأكـل والشّـرب والتّـنفس لـه حُـدود لا يتعـدّاها. والكُـرات الدموية والخلايا، والأنسجة والأعصاب، ومُعدّلات السُّكر والضَّغط ودقّات القلب، لها نِسب مُعيّنة مُنضبطة لا تَزيد ولا تَنقص. أمّا آمال الإنسان وطُموحاته وأحلامه فليس لها حدٌّ تَقف عِنده. ولقد وصف الرسول ﷺ طَبيعة النفس البشرية، في الحِرص على المال وجَمْعه والاستزادة منه، فقال: ((لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ)) رواه البخاري.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

[الحديد: ٢٠].

فالـدنيا تَتـزيّن للنـاس بمباهِجهـا، وتَسـتثيرهم بزخارفهـا، وتَحثّهـم علـى التَّكالُـب عليها والتَّنافس والتَّصارع في الاستحواذ عَليها.

وكلّما شَعر الإنسان أنّ حَياته في هذا الكَون قَصيرة، وأنَّ عُمره في الـدنيا محدود، وأنّ آماله وأطماعه ليس لها حَدّ، اشتد لَهيب العِراك والتقاتل بين البَشر.

ولقد كانت قَطرات الدّم الأولى في تاريخ البشرية، حينما امتدت يَد قابيل لِقتل أخيه هابيل حَسدًا وبَغيًا وظلمًا، هي بداية النَّزيف الدَّموي بين بني الإنسان من خلال التنافس على الدنيا، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، واستعباده وانتهاك عِرضه وسَلب وأمواله. وأصبح هذا سِمةً من سِمات الدنيا، ومَعلَمًا واضحًا في تاريخ البشرية، ولا سيما حينما تَبتعد عن وحي السماء، ورسالات الأنبياء، وسلوك عباد الله الأتقياء.

وإنّ ما شَهده العالَم في القرن الماضي من حَربيْن عالَميّتيْن أزهقتا أرواح ما يزيد عن الخَمسين مليونًا من البَشر، وما تَشهده البَشرية مَطلع هذا القَرن من افتراس الدّول القَويّة الكُبرى للدّول والشُّعوب الضَعيفة، ما هو إلاّ بسبب تَخلّي أمّة الدَّعوة إلى الله عن رسالتها، وتهاونها فيما شرّفها الله به وكرّمها بحَمْله.

فالمسلمون وحْدهم دون غَيرهم من أمم الأرض وشعوب الدنيا، مطالبون شرعًا وعقلًا أن يَمسحوا آلام البشريّة، وأن يُوقفوا نَزيف الدماء المستمر، وأن يَهْدوا العُقول الحائرة، والقُلوب الضالة، وأن يرُدّوا النفوس التائهة والشاردة إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وإنّ المستضعَفين في العالَم والمُضطهَدين من الأفراد والجَماعات، ليتطلّعون إلى أمّة الدّعوة أن تدعُوَهم إلى الإيمان، وتبلّغ إليهم الإسلام، وتَشرح لهم عقائده وعباداته وأخلاقه، وأن تخلِّص العالَم من كابوس الكُفر والجَهل. قال تعالى مُخاطبًا أمّة الدعوة ومعاتبًا لها الرّكونَ إلى الأرض، والتخاذلّ عن نجدة المقهورين والمغلوبين: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ

﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

فصراع الإنسان مع الشيطان، ومع نَفسه، وبينه وبين غيره من بني جنسه، يَستوجب ضَرورة وبقاء الدّعوة إلى الله، ويُلزم الدّعاة أن يَبلِّغوا دين الله، ويَدْعُوا إليه مهما كانت الصِّعاب والمَوانِع والعوائِق؛ وهذا أمْر لم يَخْلُ مِنه عَصرٌ من العُصور، ولم يَتوقف إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أولى دعائم الإصلاح، والقاعدة التي يُبنى عليها إلى يوم القيامة.

لِمَ كانت أمّة الإسلام هي المُكلّفة شرعًا بالدّعوة إلى الله دون غَيرها من الأمم

إنّ أمّة الإسلام اختصّها الله من بين أُمَم الأرض بواجب الدّعوة إلى الله، وشرَّفها دون غَيرها بحَمْل الأمانة، وتَبليغ الرسالة، وتَقديم النُّصح لشعوب العالَم؛ وذلك للأسباب التالية:

أولًا: هي الأمة الوَحيدة التي تَحمل على عاتِقها وَحْيَ السماء، ورسالات الأنبياء، من لَدُنْ آدم إلى أن يَرِث الله الأرض ومَن عليها. فبعد أن اندثرت الكُتب السابقة، وحُرّف ما بَقي منها إثر انتهاء حياة النبي أو الرسول، أصبحت الأمّة الإسلامية هي الآن الأمينة على شَرع الله، والمُؤتَمَنة على عقائد البَشر، المُصحِّحة لِمَا انحرف منها، الدّالّة على المَنهج القَويم والسلوك المستقيم في شتّى جَوانب الحياة، عقائديًّا وأخلاقيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا.

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثانيًا: هذه الأمّة صاغها القرآن الكريم صياغة فَريدة، وربّاها الرسول ﷺ تَربية مُميّزة، تؤهِّلها لهداية البشَر.

ولقد كانت دَعوة الرسول ﷺ في مَكة المُكرّمة والمَدينة المُنوّرة على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، وتَنزّل القرآن الكريم وفْقَ الوقائع والأحداث، كَفيلًا أن يُعِدّ المسلمين إعدادًا خاصًّا لِحَمْل رسالة الإسلام. وإنّ حِفظ الله سبحانه للقُرآن الكريم، وصوْنَه لسُنّة الرسول ﷺ أوجَبَ استمراريّة الدّعوة وبقاءَها، ومكَّن المسلمين عَبر التاريخ من القيام بما فُرض عليهم، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ثالثًا: هذه الأمّة بما تَحْمله من دِين الله، وبما أوجبه الله عليها مِن تَبليغه ونَشْره، هي اليد الحارسة الأمينة على كلّ مَعروف وخَير وبِرّ، والعَين الساهرة على حُرمات الله وحُدودِه، تَرصد كلّ مُنكر وتَتعقّبُه، وتَنهَى عنه وتُجهِز عَليه، وتَتصدّى للظّلم والبَغي وتَقضي عليه. وهي بهذا التّفويض الإلهي شاهِدةُ صدقٍ وحقٍّ على الأمم السابقة ومَواقفها من أنبيائها، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهي أيضًا مَسئولة عن صلاح البشَر وإصلاحهم إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ٤٤].

رابعًا: إنّ هذه الأمّة أمّة راكعةٌ ساجدةٌ عابدةٌ، مجاهدةٌ في سبيل الله، ومُختارة من بيْن أمم الدنيا، لتَنال شَرف اجتباء الله لها، وشهادة الأنبياء بأحقِّيتها، قال

تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

خامسًا: حينما يتلفّت الإنسان حَوله ويُبصِر أحوال العالَم بأسره، يجِد دُولًا قَويّةً تدَّعي العَدل وتزعُم الحُرية والديمقراطية ونُصرة الشُّعوب، وهي في الحَقيقة والواقع مصدرُ الخَوف والاضطراب في العالَم. أيدي هذه الدول مُلطَّخة بدماء الشُّعوب، وتاريخها تاريخ أسود، سوَّدتْه بما ارتَكبتْه في حَقّ الأمم من نَهب خيراتها وثرواتها، والقضاء على آمالها في أن تحيا حياة آمنة كريمة.

وقد اصطنعت هذه الدّول مؤسسات عالَميّة وهيئات دوليّة، كالأمم المتحدة، ومجلس الأمن، وغيرهما، تُحرِّكها كالدُّمى وتُسخِّرها لأغراضها، والوَيل لِمَن يَرفع يَده مُعترِضًا، أو يَعلو صوته مُحتجًّا. وكان حصاد الإنسانية -ولا سيما العالَم الإسلامي- مُؤلمًا ومَريرًا؛ فاختلَّت القِيم الإنسانية، ومُسِخت الفِطرة البشرية، وعمَّ الظُّلم وفَسدت الأخلاق، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

هذا كلّه يُلقِي العِبء على أمّة الإسلام، ويُلزِمها أن تَتصدّى لِكلّ عوامِل الفَساد والانحراف. وهي مُهيّأة تمامًا لهذا الأمْر بما تَحمِله من خصائص وثوابت شرَّفها الله بها، وإمكانات وموارد حباها الله بها، لِتُسخِّر جزءًا منها للدّعوة إلى الله. والظروف العالمية والتهيؤ النفسي والاستعداد القلبي صالح تمامًا لنجاح الدعوة إلى الله واستمرارها.

وعوامل الفَوز والفَلاح للدّعاة مُتحقّقة بما يلي :

أولًا : إنّ دفاع الله عن عباده، وتأييده لهم، وتَمكِينهم في الأرض، سُنَّة من سُنن الله في هذا الكون لا تَتخلّف، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٥].

وقال تعالى : ﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٥ - ٧].

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ - ١٠٧].

وما على أمّة الدّعوة إلاّ أن تَستَشعر حَقيقة هذا التأييد والوَعد، وأن تَعمل بكلّ طاقاتها لتحصيل أسبابه، وأن يَتعمَّق في مشاعِرها وعُقولها أنّ هذا وعْد من الله مُحقّق لا يَتخلّف، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٧، ٨].

ثانيًا: إنّ عُلوّ كلمة الحق وغلَبة أهله، وإزهاق الباطل وهَزيمة حِزبه، عَدلٌ إلهي مُتحقّقٌ، وسُنّة كَونيّة لا تَتخلّف. قد يَتعثَّر الحَق أحيانًا لضَعف يعْتري أصحابه، وقد يَتخلّف أحيانًا لابتلاء أعوانِه واكتشاف معادن إيمانهم وقُوة عَقيدَتهم، وقد يتأخّر لأن قَومه لا يَملكون مُقوِّمات إظهاره... ولكن في النهاية لا بدَّ للحق أن تَعلو رايتُه، وتَخفِق أعلامُهُ، ويَسودَ أهلُهُ، وأن الباطل مهما عَلا صَوته سيأتي وقتٌ يأذن الله فيه بانكسار شَوكتِه، واندحار جُنده، وفَضيحة حِزبه، قال تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

فشأن الحَق في ارتفاع، وأمْر الدعوة إلى الله في انتشار، وجُند الله ودُعاته سيُكتب لهم الانتصار، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣]، أي: الإسلام. ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣].

قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

ثالثًا: إنّ أمم الكُفر ودوَل الظُلم والبَغْي قد انفضَح أمْرها، وانكشفت سَوْءَتها أمام العالَم؛ فشعوبُهم، وإن تَقدَّمت عِلميًّا وماديًّا، وتَفَنّنت في أساليب التَّرف والانغماس في الشَّهوات، إلاّ أنهم فقدوا طمأنينة القَلب، وانشراح الصَدر، واستقرار النَّفس، فانتشرت عوامِل القَلق والتَّوتر والاكتئاب، وكَثُرت حوادث الانتحار، وزادت مُعدَّلات الجَريمة، وغدا الناس غَير آمنِين على أموالِهم وأعراضِهم.

وفي أقطار العالم الإسلامي ودوَله، تحقّق لكل ذي عَقل وفِكر، وتبيَّن لكل ذي نظر ثاقب ورأي سديد، ما جناه المسلمون في تاريخهم الحديث من جرّاء ترْك دِينهم وراء ظهورهم، ووضْع أصابعهم في آذانهم عند نصيحة العلماء ودعوة الدّعاة. وانطلق الكَثير من أبناء المسلمين في رُعونة وعَدم رَويَّة نحو الثقافة الغَربية، والتي هي مَزيج من الحضارتيْن الرُّومانية واليونانية الوثنية، وبقايا النصرانية المُحرّفة، يقلّدون أوربا، ويقْتبسون أنظمتها، ويَصبغون المُجتمعات الإسلامية بصِبغة التَّحلّل من الدِّين، والتخفّف من أوامر الشّرع، مُعتقدين اعتقادًا خاطئًا أنّ هذا يُحقّق لهم التَّقدُّم، ويأتي لهم بالازدهار، فلم يَجنوا من ذلك سِوى خَيبة الأمَل، وضياع الأمّة، واستعباد واحتلال الأوطان، ونَهْب الثروات، واستشراء الفِتَن، وتفاقُم الخُطوب، وتعاظُم الظُّلم والاستبداد. وقد مُزِّقت أوصال الأمّة الإسلامية شرَّ مُمزَّق، وانفرد أهلها إلى دويلات ليس لها من مظاهر السيادة إلاّ عَلَم يُرفرف في خَجل واستحياء، واستقلال يَرتدي ثوب التَّبعيّة طَوعًا أو كَرهًا.

هذه الظواهر ألْقت بالوَهن في القلوب، واليأس في الصُدور، وفقدان المُسلم معالم الرُّؤية.

مع العلْم أن نور الله بأيديهم، وسُنّة رسوله ﷺ أمام أعينهم، وعلى مَقربة منهم. وتاريخ الإسلام بحضارته المُتألِّقة، وشمس شرائعه المُشرقة، تَحوط بهم، تَصونُهم وتَحفظهم وتَرعاهم.

إنّ إفلاس الحضارة الغَربيّة وانفضاح أمْرها، ومن قبْل ذلك سقوط الشيوعية وانهيار نظامِها في الاتحاد السوفيتي، عام ١٩٩١م، بعد أربعة وسبعين عامًا من الحُكم الشيوعي، والذي كان يرزح تحت وطأة استبداده وقهره قرابة المائة مليون مسلم تعرّضوا لشتّى أنواع القهر والإبادة منذ عام ١٩١٧م، لَدليلٌ على فساد الحضارة المعاصرة.

ولقد شاءت إرادة الله، وفْق سُننه الكَونية التي لا تَتخلّف، أن ينهار الاتحاد السوفيتي انهيارًا فاجأ الدنيا بأسْرها، وتساقَطت نُظمه التي كانت تَقوم على الوجودية والإلحاد، وإنكار وجود الله، كما تَتساقط أوراق الخَريف الجافّة.

وكان أحد أسباب سقوطه الرئيسية: تلك الهَزيمة النَّكراء في أفغانستان، وانسحابه منها، مَهزومًا يَلعَق جِراحه بعد حَروب دامت عشر سنوات من عام ١٩٧٩ إلى ١٩٨٩م.

ولقد كان انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية انهيارًا سَريعًا مُدويًا صكّ سَمع العالم أجمع، وسَط الذُّهول والحَسرة التي انتابت مَن كانوا يَتَّخِذون من الماركسية عَقيدة والشيوعية مَذهبًا.

وسوف تَلحقها -بإذن الله- الحضارة الغَربية التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية؛ فقد حفرت بيدها نَفقًا مُظلمًا بعُدوانِها على أقطار المُسلمين، وانحيازِها الأعمى لإسرائيل.

هذه الأحداث السريعة والمُتلاحقة، وذلك الخواء الروحي، والإفلاس الفِكري، والانهيار الخُلقي، والفوضى التي انتابت العالَم، والفِتن التي تَعْصف بشعوبه، يُلقي عِبئًا ثقيلًا على أمّة الإسلام، ويَضع على عاتِقها -إن طَوعًا أو كَرهًا- إصلاح الفِطرة الإنسانية التي فَسدت؛ فهي الأمّة المهيأة لذلك، والمَسئولة أمام الله عن هداية الأمم للنور المُبين، والصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾. [الفتح: ٢٨]

فالدّعوة إلى الله باقية ما دامت السموات والأرض، مُستمرّة ما تعاقَب الليل والنهار، وسوف يُمكِّن الله للدّعاة في الأرض إذا ما خَلُصت النِّيّة، وتَحرّر المسلمون من التَّبعيّة، ووحّدوا جُهودهم، واستغلّوا مَواردهم، ونظّموا شُئونهم وفق شرْع الله وأحكامه، قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تعريفهما وأهميتهما وصلتهما بالدعوة

عناصر الدرس

العنصر الأول : المعروف والمنكر بين اللغة والاصطلاح ٨١

العنصر الثاني : أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأدلة على وجوبهما ٨٣

العنصر الثالث : صلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالدعوة إلى الله ٨٩

المَعـروف والمُنْكـر بـين اللغـة والاصـطلاح

المعروف لغة: ضدّ المُنْكر، والعُرف: ضدّ النُّكر، والمَعروف والعارِفة: خِلاف المُنْكر.

والمعرفةُ والعِرْفانُ: إدراك الشيء بتَفكّر وتَدبّر لأثره، فهي أخصُّ من العِلْم، ويُضادّه: الإنكار.

ويقال: "فلان يَعرف الله ورسولَه"، ولا يقال: "يَعْلم الله"، لّما كانت مَعرفة البشر لله: تَدبُّر آثاره دون إدراك ذاته. ويقال: "الله يعلَم كذا"، ولا يقال: "إن الله يعرف كذا"، لّما كانت المعرفة تُستعمل في العلْم القاصر المتوصَّل إليه بتفكير.

وأصْلُه مِن: عَرَفتُ الشيء أي: أصبتُ عَرْفَهُ، أي: رَائحته، أو مِن: أصبْتُ عَرْفَهُ، أي: حَدّه.

المعروف اصطلاحًا: اسم جامع لكلّ ما عُرف من طَاعة الله والتَّقرب إليه، والإحسان إلى الناس، وهو: كلّ ما ندب إليه الشَّرعُ ونهى عنه، مِن المحسّنات والمقبّحات.

قال الإمام الطبري: "والمعروف هو: الإيمان بالله ورسوله، والعمل بشرائعه. وأصل المعروف: كلّ ما كان مَعروفًا فعْله، مُستَحسنًا غير مُستَقبح في أهل الإيمان ولا يستنكرون فعْله".

وذكَر ابن حجر عن أبي جمرة: "يُطلق اسم المَعروف على: ما عُرف بأدلّة الشّرع من أعمال البرّ، سواء جَرت به العَادة أم لا.

النهي عن المُنْكر لغة:

النهي (ن هـ ي) أصل صحيح يَدلّ على غاية وبلوغ، ومنه: "أنهيْتُ له الخير": بلَّغْتُه إيّاه، و"نهاية كل شَيء": غايته. ومِنه: "نهيْتُهُ عن"، وذلك لأمر يَفعلُه، فإذا نَهيْتُه فانتهى عنه، فتلك غاية ما كان وآخِره.

وجاء في "لسان العرب": "والنّهي: خلاف الأمْر، نَهاه يَنهاه نَهيًا فانتهى، وتناهي: كفّ، ونفسٌ نهاةٌ: مُنتهية عن الشيء.

وتناهَوْا عن الأمْر وعن المُنْكر: نَهى بعضُهم بعضًا. وفي التنزيل قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩].

المُنْكر لغة: جاء في "القاموس المحيط" للفيروزآبادي: "المُنْكر: ضد المَعروف، والنَّكراء: الدَّاهية، والاستنكار: استفهامُك أمرًا تُنْكِره".

وقال الجوهري: "المُنْكَر: واحد المَناكير. والنَّكير والإنكار: تَغيير المُنْكر. والنُّكْر: المُنْكَر، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وأنكر الشيء: جَهلَه، وفي التّنزيل قال تعالى: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

واستنكر الأمر: استقبحه".

ونكّر الأمْر: غيَّره بحيث لا يُعْرف، قال تعالى على لسان سليمان # : ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١].

المُنْكر اصطلاحًا: "المُنْكر": كلّ ما قبّحه الشّرْع وحرّمه وكرِهه، فهو مُنكَر.

وقال الطبري: "المُنْكر: ما أنكره الله، ورآه أهل الإيمان قَبيحًا فعْله؛ ولذلك سُمِّيتِ مَعصية الله مُنكرًا، لأن أهل الإيمان بالله يَستنكرون فِعلها، ويَستعظمون رُكوبها".

وقيل: "المُنْكر" هو: كل ما يُنكره الشَّرع ويَنْفِر منه الطَّبع، صَغيرة كانت أو كبيرة. والمعاصي كلّها مُنكَرات، لأن العُقول السَّليمة تُنكِرها.

وقال ابن الأثير: "المُنْكر: ضد المَعروف، وهو: كلّ ما قبّحه الشَّرع وحرّمه وكَرِهَه، فهو مُنْكر".

أهمِّيّة الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، والأدلّة على وجوبهما

الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر أصْل عظيم من أصول الإسلام، وتَرجع أهمِّيّته للأسباب التالية:

أولًا: إنّ صلاح العباد في الدنيا والآخِرة متوقف على الإيمان بوجود الله ووحدانيّته وطاعته، والتصديق بكلّ ما جاء به رسول الله ﷺ، وتمام الطاعة مُتوقّف على الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، وبه يتمّ معرفة كلّ منهما، قال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

ثانيًا: إنّ خَيرية هذه الأمّة وفضْلَها، وتَحقيق النَّصر والفَلاح لها، يتوقّف على الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

يقول الإمام أبو حامد الغزالي -رحمه الله- : "ففي الآية بيان بالإيجاب ؛ فإنّ في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن ﴾ أمرٌ، وظاهر الأمر الإيجاب. وفيها : بيان أنّ الفَلاح مَنوط به، إذ حصر وقال : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وفيها : أنه فرْض كِفاية لا فرْض عيْن : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ ؛ فإذا ما قام به واحد أو جماعة، سَقط الفرْض عن الآخَرين".

ويُبيِّن القرآن الكريم : أنه لا يَخلو الزمان من أمّة مُؤمنة عابِدة تَقوم بالدَّعوة إلى الله، وتأمر بالمَعْروف وتنهى عن المُنْكر، وتُسارع إلى فِعل الخَيرات ؛ قال تعالى : ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

ثالثًا : بالأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر تتحقّق الولاية والمُناصَحة بين المؤمنين، قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

رابعًا : إنّ الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر سَببٌ من أسباب النَّصر، وثَمرة من ثِمار التَّمكين في الأرض، قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

ولقد ذكَر القرآن الكريم في صفة الشهادة والقِتال في سبيل الله في سورة (التوبة) شروط مَن يَستحقّ نَصر الله، في قوله : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢].

خامسًا: في الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر النّجاة من الهَلاك، والمُحافظة على سلامة المُجتمع وأمْنه؛ فعَن النعمان بن بشير > قال: قال ﷺ: ((مَثَل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبَعضهم أسفلها. فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مَرّوا على مَن فَوقهم، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نَصيبنا خَرقًا ولم نُؤذِ مَن فَوْقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا، ونجَوْا جميعًا)).

ولقد بيَّن الرسول ﷺ أنّ الدَّعوة للحق ومُواجَهة الباطل من أفضل الجِهاد مَنزلةً عِند الله، لا سيما حينما يُصْدَعُ بها أمام الحُكَّام الجَبابِرة، والرُّؤساء الظَّالمين الْمُستبِدِّين؛ فعن أبي سعيد الخدري > ، عن النبي ﷺ، قال: ((أفضل الجِهاد كلمةُ عَدلٍ عند سُلطان جائِر)) رواه النسائي بإسناد حسَن.

فالنصيحة للمسلمين، وتعاونهم على البر والتقوى، وعَدم التعاون على الإثم والعدوان، فَرْض دينيّ وواجب شرعيّ يحافظ على ثوابت المجتمع، ويُحْكِمُ التَّرابط بين أفراده.

قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: "يأمر الله عِباده المُؤمنين بالمُعاونة على فِعل الخَيرات وهو البِرّ، وتَرْك المُنْكرات وهو التَّقوى، وينهاهم عن التَّناصُر على الباطل والتَّعاون على المآثِم والمَحارم".

وقد بيّن الرسول ﷺ أنّ من الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر: مَنع الظالِم ورَدْعه عن ظُلمه وعُدوانه، والوقوف بجانب المَظلوم وحمايته؛ فعَن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((اُنْصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا)). قيل: يا

رسول الله. هذا نصرته مَظلومًا، فكيف أنصره إذا كان ظالِمًا؟ قال: ((تَحجُزه وتَمْنعه من الظُّلم، فذاك نَصْره)) رواه البخاري.

وعن أبي رُقيّة تَميم بن أوس الداري < ، عن النبي ﷺ، قال: ((الدِّينُ النصيحة)). قُلنا: لِمَن؟ قال: ((للهِ، ولِكتابه، ولِرسوله، ولأئمّة المسلمين وعامّتهم)) رواه مسلم.

ولقد كان ﷺ يُبايع أصحابه على النَّصيحة، ويَذْكرها في سياق أركان الإسلام؛ فعَن جرير بن عبد الله < ، قال: ((بايَعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصّلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لِكلِّ مسلم)) رواه مسلم.

وعن عُبادة بن الصامت < ، قال: ((بايَعْنا رسولَ الله ﷺ على السَّمْع والطاعَة، في العُسر واليُسر، والمَنْشَط والمَكْره -أي: في السَّهل والصَّعب- وعلى أثَرَة عَلينا -الأثرة: الاختصاص بالأمْر المُشترك، وعلى ألاّ نُنازع الأمْرَ أهلَه، إلاّ أنْ تَروْا كُفرًا بواحًا عِندكم من الله تعالى فيه بُرهان -أي: ظاهِر لا يَحتمل تأويلًا، وعلى أن نقول بالحق أينما كُنَّا، لا نخاف في الله لومةَ لائم)) متفق عليه.

ولقد بيّن ﷺ: أنّ مِن آداب المجالس والطرقات: الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر؛ فعن أبي سعيد الخدري < ، عن النبي ﷺ، قال: ((إيّاكم والجُلوسَ في الطّرقات!))، فقالوا: يا رسول الله. ما لنا من مجالِسنا بدٌّ، نتحدث فيها! فقال رسول الله ﷺ: ((فإذا أبَيْتُم إلاّ المَجلس، فأعْطوا الطريقَ حَقّه)). قالوا: وما حق الطريق، يا رسول الله؟ قال: ((غَضُّ البَصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمَعْروف، والنَّهي عن المُنْكر)) متفق عليه.

سادسًا: إنّ تقاعُس الأمّة عن واجب الأمْر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر تَنجُم عَنه الأضرار التالية:

استحقاق غَضب الله وسَخَطه ولعْنَته، كما حَدَث لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وعن حذيفة بن اليمان > عن النبي ﷺ، قال: ((والذي نَفسي بيده! لتأمُرُنَّ بالمَعْروف ولتنهَوُنَّ عن المُنْكر، أو ليوشِكَنّ الله أن يَبعث عَليكم عِقابًا منه، ثم تَدْعونه، فلا يُستجاب لكم)) رواه الترمذي.

وقد ساق القرآن الكريم قصّة قوم لوط، الذين فشا فيهم المُنْكر، وانتشَر بينهم الشُّذوذ، وعمَّت الفاحِشة في أندِيَتهم، فحلّت عليهم اللّعنة، ونزل بهم العذاب؛ قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

ولقد كان من طَبيعة هؤلاء القَوم: أنَّ الفاحِشة تُرتَكب عَلنًا أمام أعينهم، دون إنكار أو اعتِراض، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾ [النمل: ٥٤].

ولقد عاتَبهم لوط # على تقاعُس العُقلاء في عَدم استنكار سلوكهم الفاضِح وأعمالهم القَبيحة، فقال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ [هود: ٧٨].

وكان عاقِبة التَّخاذل والتهاون في الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر: أنْ حلّ بهم عذاب أليم بطَريقة انفردوا بها عن الأمم السابقة واللاحِقة، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا

جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وإنّ انتشار الفاحِشة والشُّذوذ في الحَضارة الغَربية الحَديثة، والتَّشجيع عليه، وتَقنِينه، وحَمْل المُجتمعات الإسلامية على السَّير في رِكابِها بدعوى لقاء الحَضارات والثَّقافات، لأمرٌ يُؤذِن بالخَطر. ولقد بَدت بوادِره في الأوبئة الفتَّاكَة والأمراض القاتِلة، كـ: "الإيدز" وغيره من الأمراض الخَبيثة. وظَهرت أعراض انهيار تلك الحضارة بما يُشاهَد من الحُروب الدَّامية الدائرة في أرجاء العالَم، والتفكك الاجتماعي، والانهيار الأخلاقي؛ ما ذلك إلاّ بسبب انهيار قاعدة الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

وإنّ إصرار بَعض أبناء المُسلمين ممَّن تَربّوْا على مَوائد الثقافة والأخلاق الغَرْبية، لِلعمل على انتشار المُنْكر وحبّ الفاحشة من خلال الفَنّ الساقط والأدب المَاجِن عَبر وسائل الإعلام، لأمْر يُنذر بالعَذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

ولقد حذّر القرآن الكريم المؤمنين من اتّباع خُطوات الشيطان، لأنها تؤدِّي إلى الأمْر بالفَحشاء والمُنكر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور: ٢١].

سابعًا: القيام بالأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر مِن مُكفِّرات الذنوب والخطايا؛ فعَن حذيفة بن اليمان >، قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((فِتنة الرّجُل

في أهله وماله ونَفسه وولده وجاره، يُكفِّرها الصيامُ والصلاة والصّدقة، والأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر)) رواه الشيخان.

والأمْر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر ليس قاصرًا على الرّجَال فحسب، بل إنّ النساء يَشتركن في الأمر به، ويُكلّفنَّ به كما يُكلّف الرّجال. ويكون ذلك بالتَّناصُح فيما بينهنَّ، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[التوبة: ٧١، ٧٢].

ممّا سبق، تتّضح أهميّة الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر، وأنّ السياق القرآني والأحاديث النبوية يَذْكُرانه ضِمن أركان الإسلام وقَواعد الدِّين.

صِلة الأمْر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر بالدّعوة إلى الله

إنّ العلاقة بين الدّعوة إلى الله، والأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر علاقةٌ وثيقةٌ، وإنّ الارتباط بينهما ارتباط قَويّ؛ فكلاهما وجهان لشيء واحد، هو: الإسلام.

فالدّعوة إلى الله هي: حثُّ الناس على الدُّخول في دين الإسلام طَوْعًا، والإيمان بشرائعه، وتَطبيقها اعتقادًا وقولًا وعملًا ظاهرًا وباطنًا.

ولقد شَرع الإسلام الوسائل والأساليب التي تُحقّق هَدف الدّعوة إلى الله، وهي: ثُبوت العُبوديّة الخَالِصة للخَالِق ﷻ، وتَحقيق كمال الطاعَة لله ولرسوله، والعَمل على تَوثيق العَلاقات الإنسانية بين بني البَشَر.

ومفهوم الدّعوة إلى الله مفهومٌ شامل واسعٌ يقوم على أمريْن:

الأمر الأوّل: الإخبار عن ذات الله وصِفاته وكلّ ما يتعلّق بتَوحِيده، والإخبار عن رُسل الله من خِلال قَصص القرآن الكريم، وذِكْر أحوال البَعث والحَشر والنُّشور، ممّا يُطلِق عليه عُلماء البلاغة: "الجُملة الخَبرية" التي تُفيد حُصول الشيء أو عَدم حصوله.

وكلّ ما أخبر الله ورسوله عنه، فهو يَقينيّ وصادق، ولا يَتعلّق به الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر.

الأمْر الثاني: "الإنشاء" الذي يُعبّر عَنه بـ: "الجُملة الطَّلبية" التي تَتضمّن الأمْر والنَّهي؛ وهذا هو مَيدان الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر.

فالمَعْروف -في الاصطلاح الإسلامي- يُطْلَق على كلّ ما أمَر الشارع بفِعْله إلزامًا أو تَرغِيبًا. فهو: كلّ ما يُستَحسَن فِعْله في الإسلام. ويَدخل فيما هو مُستحسنٌ في الإسلام: كلّ ما هو حَسنٌ في العُقول السَّليمة الصَّحيحة الرَّشيدة، والفِطَر النَّقية.

وأمّا "المُنْكر" في الاصطلاح الإسلامي فهو يُطلق على: كلّ ما نَهى الشارع عن فِعْله نَهيًا إلزاميًا تَحريميًا. فهو: كل مُستقبَح في الإسلام. ويَدخل فيما هو مُستقبحٌ في الإسلام: ما هو قَبيح في العُقول السَّليمة الصَّحيحة الرَّشيدة.

فالأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر هو من أعظم وسائل الدّعوة إلى الله، وبدونه تَتجمّد الدّعوة وتَنسحِب من ميادين الحَياة، كما حَدث للأديان الأخرى. وهو صمام أمْن المُجتمعات الإسلامية، وبتعْطيله والتَّقاعُس عَنه يَضمحلّ الدِّين ويَضعف في قلوب العباد، وتعمّ الفتنُ، وتموت الفضائل وتنتشر الرذائل، ويستشري الفساد في الأرض. ولأهمِّيّة الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر وعُمق

ارتباطه وصِلته بالدعوة إلى الله، وضّع القرآن الكريم والسُّنّة النبوية الشريفة الأسُس والقَواعد التي تُنظِّم القيام به. وقام علماء الأمّة -سَلَفُها وخَلَفُها- بتقنين هذا العمل العَظيم، وضَبطه فيما يُعْرف بـ: "نِظام الحِسْبَة في الإسلام"، وهي كما عرّفها الماوردي: "أمرٌ بالمَعْروف إذا ظَهر تَرْكُه، ونهيٌ عن منكر إذا ظَهر فِعْله".

والمحتسِب هو: الشخص المعيّن من قِبل الحاكِم للأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر. ويُخوَّل له سُلطَة إيقاع العُقوبة على العُصاة. وقد عدّد الإمام أبو حامد الغزالي دَرجات العُقوبة وتَدرّجَها، وذلك بالوَعظ والنُّصح، ثم بالتَّعنيف، ثم التّغيير باليد، ثم بالتَّهديد بالضَّرب وتَحققه، ثم الاستظهار بالأعوان والجُنود.

والحِسبة: نِظام عُرِف منذ فَجر الإسلام؛ فلقد تَولاّها الرسول ﷺ بنفسه، حيث كانت دعوته ﷺ تَتضمّن الأمْر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر قَولًا وعَملًا.

ولقد ولّى الرسول ﷺ سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية على سوق المدينة. وولّى عمر بن الخطاب > السائب بن يزيد مع عبد الله بن عقبة بن مسعود على سوق المدينة.

ولقد تَطوّر أداء الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر من خِلال نظام الحِسبة، ليَشمل جَميع مظاهر الحياة الدِّينية والدُّنيوية. وتَتولاه الآن هيئة الأمْر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر.

ولارتباط الدّعوة إلى الله بالأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، يقول الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فحمّل الله هذه الأمّة واجبَ الدّعوة إلى الخَير، نَظرًا لأنّ الدِّين قد اشتَمل على الخير الذي تُدْركه العُقول السَّليمة، وتَشعر به النُّفوس والوجدانات التي لم تَفسد

فِطَرِها التي فَطرها الله عليها. وحمّلها أيضًا واجب الأمْر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر داخل جماعات المسلمين، الذين عَرفوا أوامر الدِّين وعَرفوا حُسنها.

وإنّ خَيريّة هذه الأمّة وعلوّ مَنزلتها وشَرف مكانتها لم تُحقَّق إلاّ من خِلال القيام بواجب الدّعوة إلى الله للإنسانية جَمعاء، وبسبب الأمْر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وممّا يُؤكد هذا الارتباط بين الدّعوة إلى الله والأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، ويُوثِّقه: ما روي عن ثوبان < ، أنّ رسول الله ﷺ قال: ((لا تَزال طائفة مِن أمّتي ظاهِرين على الحقّ لا يَضرّهم مَن خَذلَهم، حتى يأتيَ أمْرُ الله وهم كذلك)) رواه مسلم.

وروى الشيخان عن معاوية < ، أن النبي ﷺ قال: ((لا تزال طائفة من أمّتي قائمةً بأمْر الله، لا يضرّهم مَن خَذَلهم ولا مَن خَالَفهم، حتى يأتيّ أمْرُ الله وهم ظاهرون على النّاس)).

ممّا سبق، يَتَّضح عُمقُ الصِّلة والعَلاقة بين الدّعوة إلى الله والأمْر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، وأنّ الارتباط بينهما مِن أعظم أسباب قُوّة الإسلام في القُلوب، واستقراره في العُقول، وتَطبيق شَرائعه وحُدوده في دنيا المسلمين وواقع حياتهم.

تحديد المعنيين بخطاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأسباب المعصية، وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	المعنيون بخطاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحديد الظالمين لأنفسهم	٩٥
العنصر الثاني	:	تحديد أسباب المعصية	٩٧
العنصر الثالث	:	شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٠٩

المعنيون بخطاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحديد الظالمين لأنفسهم

لقد خَلَق الله البشَرَ مُختلِفين في العُقول، متعاونين في الإيمان، متمايزين في السلوك. وقد قسّم ﷻ في أوّل سورة (البقرة) الناس إلى ثلاثة أقسام: مُؤمن، وكافر، ومُنافق. وتَوجّهت الدّعوة لكلّ منهم بخِطاب معيّن وأسلوب في الإقناع مُميّز. ثم تَنوَّع المؤمنون إلى ثلاثة أنواع جاءت في قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: "يقول الله تعالى: ثم جَعلنا القائمين بالكتاب العَظيم، المُصدّق لما بين يَديْه من الكتُب، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم هذه الأمّة. ثم قسّمناها إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ ﴾ وهو: المُفرّط في فِعل بعض الواجبات، المُرتَكب لبعض المُحرّمات. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو: المُؤدّي للواجبات، التّارك للمُحرّمات. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمُستحبّات، التّارك للمُحرّمات والمَكروهات وبعض المُباحات".

فعَن أبي الدرداء > قال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ ... ﴾ الآية. فأما الذين سَبَقوا فأولئك الذين يَدخلون الجنة بغَير حِساب. وأما الذين اقتَصدوا فأولئك الذين يُحاسَبون حِسابًا يَسيرًا. وأمّا الذين ظَلَموا أنفسهم، فأولئك الذين يُحبسون في طول المَحشر، ثم تلافاهم الله برحمته. فهم الذي يقولون: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن

فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥])) مسند الإمام أحمد.

ويَتنوّع الخِطاب الدَّعويّ لكلّ جماعة من هذه الجماعات الثلاث، بأسلوب مُميّز ونَسق خاصّ من الإقناع.

فالأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر يتوجّه في الجانب الرئيسي إلى بعض المؤمنين الذين ظَلموا أنفسهم بارتكابِهم المَعاصي، وتَفريطِهم في أداء العِبادات، وتَقصيرهم عن القِيام بالطاعات، وتهاونهم في أمر الإسلام. وهؤلاء يُمثّلون غَالبية المُسلمين، ولا سيما في هذا العَصر، الذي يَخنق أقطار العالَم الإسلامي ويَكتُم أنفاسه، ويكاد أن يُزهق روحه بسبب العدوان الشَّرس، والتآمر المُستمر على ثوابت الأمّة الإسلامية وهويّتها.

وهذا الجانب الأكبر من المُسلمين هم الذين يَنبغي أن يَهتمّ بهم الدُّعاة إلى الله، لأنهم مَرضى المَعاصي، ويَحتاجون لِحكمة في القول، ولِين في المَوعظة، لإيقاظ ينابيع الخَير في القُلوب، واستمالة العُقول. ويَنبغي أن يَسبق مواجهتَهم بالأمر بالمَعْروف والنَّهي عن المُنْكر دِراسةُ القضايا التالية:

أ- من هم الظالمون لأنفسهم: وهم: العُصاة المُفرِّطون، والمُسيئون لأنفسهم بارتكاب المَعاصي والذنوب، والفُسّاق من المسلمين. فالعُصاة مهما فرّطوا في جَنب الله، ما يَزالون مُسلمين طالما لمْ تَصل مَعصيتُهم إلى كَبيرة الشِّرك والكُفر بالله، ولم يَرتكبوا كفرًا بواحًا. وهؤلاء يَختلف خِطابُهم عن غَيرهم من المؤمنين. قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٥].

فقد حَدّد القرآن الكريم سِمات العاصين والطائعين، وبَيَّن معالِم كلّ منهم وجزاءهم.

وإن إبراز سلوك العُصاة وإفراز أعمالهم يُسهِّل مُهمة الدّعاة إلى الله، ويَجعل الخِطاب الدَّعوي مُوجَّهًا إلى كل جماعة بما يُناسبها من أسلوب، وبما يُؤثِّر فيها من مَوعِظة وتَذكير ووَعْد ووَعيد.

تَحديد أسباب المَعصية

إن التَّشخيص السَّليم والفَحص الدَّقيق للدَّاء يُعين على تَحديد الدَّواء وتَحقيق الشِّفاء -بإذن الله- وكذلك حينما يَعْرف الداعية أسباب المَعاصي ودوافعها، ويَقف على شَخصيّة العُصاة وأثر المَعصية على صاحبها وعلى المجتمع، فإنّ الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر يُؤتي ثِماره ويُحقِّق القَصد منه.

أسباب انحراف السُّلوك وارتكاب الفَواحش والآثام:

أولا: ضَعف الإيمان بالله:

إن قُوّة الإيمان ونَقاء العَقيدة والتزام الطاعة هي خَير وقاية من المعاصي، وأعظم حافِظٍ للسلوك من الانحراف. فكلّما قَوِيَ الإيمان وازدادت الخَشية والخَوف من الله، تولّدت في الإنسان مَلَكة المُراقبة والمُحاسبة، فإذا ما تَعثَّر ووَقع في المَعصية، بادر بالتَّوبة والرُّجوع إلى الله.

قال تعالى في صفات المُتّقين: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

أمّا ضَعْف الإيمان، فهو يُجرِّئ على ارتكاب المَعصية، ويُشجِّع على الانحراف؛ فعَن أبي هريرة > قال: قال ﷺ: ((لا يَزني الزَّاني حين يَزني وهو مُؤمن، ولا يَشرب الخَمر حين يَشربها وهو مُؤمن، ولا يَسرق حين يَسرق وهو مُؤمن، ولا يَنتهب نهبةً يَرفع الناس فيها أبصارهم حين يَنْتَهبها وهو مُؤمن)) متفق عليه.

ومذْهب أهل السُّنّة والجماعة: أنّ الإيمان يَزيد ويقوى بالطاعة، ويَنقُص ويَضعُف بالمَعصية، ويُستدَل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

ثم أعقب هذه الآية بيان بعْض العِبادات البَدنية والمَالية التي تُساهِم في زيادة الإيمان، فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٣، ٤].

ومِما يَدلّ أيضًا على قُوّة الإيمان وزيادته بالطَّاعة، وضَعْفه ونُقصانه بالمَعصية: قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

فضَعْف الإيمان أَحَد الأسباب الرئيسة في ارتكاب المعاصي.

ثانيًا: الغَفلة عن ذِكر الله، وعن يوم الحِساب:

إنّ الغَفلة عن ذِكر الله وعن يوم الحِساب وأهواله، يُولِّد تَبلُّدا في القَلب وصَدًا في النُّفوس وصُدودًا عن الطَّاعة، وإقبالًا على المَعصية، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

وإنّ من أسباب الغَفلة والنِّسيان: الإقبال على الدنيا بكلّ المَشاعِر والعَواطِف، والانغماس في أنواع الشَّهوات والمَلذّات، والإعراض عن الآخرة؛ فلا يُفكّر الإنسان فيها إلاّ عَرضًا، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

ولهذا حذّر القُرآن الكريم من نِسيان الله وإغفال ذِكْره، لِما يَعقُب ذلك من نِسيان النَّفس وضياعها. وما انتشار الأمراض النَّفسية، وظُهور أعراض التَّوتّر العَصبيّ والقَلق القَلبيْ، وعَدم الاستقرار الاجتماعيّ، رَغم التَّقدم العِلْمي والتَّرف الدُّنيوي، إلاّ بسبب نِسيان الأمم والشُّعوب للخَالق سبحانه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٠].

ولهذا كان ذِكْر الله عاصِمًا للإنسان من المَعاصي، وصونًا له من الوقوع في حبائل الشيطان، قال تعالى مُبيِّنًا صِفات المؤمنين ذوي العُقول السليمة والفِطْرة النَّقية: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١] الآية.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ولقد كان إرسال الرُّسل، وإنزال الكُتب، ووجود الدُّعاة إلى الله في كلّ زمان ومكان تذكيرًا بالله واستِمرارًا لصِلة العِباد به، لِتُفتح أبواب الطاعة وتُغلَق منافذ المَعصية.

ثالثًا: الجَهل بالدين وعَدم العِلم بأحكام الشرع:

إن الجَهل بالدِّين وأحكامه وعَدم الوقوف على ما أمَر الله به وبما نَهى عنه، من أسباب الوقوع في المعاصي؛ فالجَهل ضِدّ العِلْم، وهو أحد أسباب انحراف الأمم عبر مَسيرة التاريخ البشري. وقد بيّن القرآن الكريم أنّ من أسباب انحراف قَوم لوط ونُزوعِهم لارتكاب فاحِشة إتيان الذُّكران، وعدم الوقوف على الأضرار الناجمة عن ذلك هو: الجَهل، قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٥].

وحينما أعلن بنو إسرائيل لموسى عن رَغبتهم في اتخاذ آلهة كغَيرهم من الشعوب الأخرى، وصفهم # بالجَهل، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ولهذا أُطْلِقَ لفظ "الجاهِلية" على الأمم التي انحرفت عقائدها، وساءت أعمالها، سواءٌ كان هذا في التاريخ القديم أو المعاصر.

وقد أنكر القرآن الكريم على مَن يَعترض على حُكم الله وإقامة الحُدود الشرعية، بأنه جاهل، يُمثّل الجاهِلية الوَثنيّة الكافِرة، وإن اختلَفت صُورَها وأساليبها في كلّ زَمان ومَكان، ومهما تدثَّرت بدِثار الحَضارة، أو تَقنّعت بقِناع التَّقدّم؛ قال

تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وإنّ من رحمة الله بعِباده: أنه لا يُؤاخِذ العَبد على جَهله إذا ما عَلِم بعد ذلك، وتاب لله واستغفر، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

رابعًا: اتّباع الهَوى:

"الهوى" في اللغة هو: "مَيْل النَّفس وانحرافها عن الشيء، ثم استُعمل في المَيل المَذموم، فيُقال: "اتّبع هواه"، و"هو من أهل الأهواء".

وإنّ اتّباع الهَوى أحد الأبواب الواسعة التي يَلِجها الإنسان لارتكاب المعاصي، وهو سبب رئيسي لانعدام العَدل في المُجتمع، وانتشار الفَساد في الأمّة، حيث تَسوء الأخلاق، ويَنحرف السُّلوك، وتَختَل المَوازين بالجَري خَلف الشَّهوات والمَلذّات، دون احترام للدِّين، أو مراعاة للعُرف، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

وقد بيّن القرآن الكريم خُطورة اتباع الهَوى، وآثاره السَّيئة على الإنسان، بسبب اقترافه الفَواحش والمُنكرات التي يَحمِلها عليه هواه، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ

اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولقد نهى القرآن الكريم عن اتّباع الهوى في الحُكم بين المُتخاصمِين، لِما يَنتج عن ذلك من ضَياع للحقوق، وتَبرئة الظالِم وإدانة المظلوم، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال تعالى لداود #: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقد حذَّر القرآن الكريم من مُصادقة الغافِلين عن ذِكْر الله، والتّابعين للأهواء، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

وبيّن القرآن الكريم الفَرق الشاسِع بين مَن يَضع مَنهج الله نصْب عَينيْه ويَجْعله وِجْهته وقِبلته، وبيْن مَن يَسير في الحَياة وفْقَ أهوائه وشَهواته، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾ [محمد: ١٤].

واتّباع الأهواء يَحجُب موالاة الله ونُصرته، قال تعالى لرسوله ﷺ والأمّة يَشملها النَّهي إلى يوم القيامة: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٧].

قال ﷺ: ((لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يَكونَ هواه تَبَعًا لِما جِئتُ به)).

وقال ﷺ: ((الكيِّس مَن دان نَفسه وعَمِل لِما بعد المَوت، والعاجِز مَن أتْبع نَفسَه هَواها وتَمنّى على الله الأمانيّ)) رواه الترمذي وابن ماجه.

وعن أبي بَرزة > عن النبي ﷺ قال: ((إنّما أخشى عَليكم شَهوات الغَيّ في بُطونِكم وفُروجِكم، ومُضِلاّتِ الهوى)) رواه أحمد، والبزار، والطبراني.

فمِن خِلال تلك النُّصوص من الكِتاب والسُّنّة، يتَّضح أن اتِّباع الهوى هو أحد أسباب ارتكاب المَعاصي.

خامسًا: النَّفس الأمّارة بالسُّوء:

قسّم القرآن الكريم النَّفس الإنسانية إلى ثلاثة أقسام:

١- **النَّفس المُطمئنّة:** وهي: التي استقرّ الإيمان في أعماقِها، فاطمأنت إلى جَنب الله، واعتمدت عليه، واتّجهت إليه بكلّ مشاعِرها وعواطِفها؛ فكان أجْرها كبيرًا، وثوابها عظيمًا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

٢- **النَّفس اللّوّامة:** وهي: النَّفس التي يتصارع في داخلها نوازع الخَير ودوافع الشّر، ولكنها ذات ضَمير حيٍّ وقلبٍ يقِظ، ما تَكاد تَقتْرف سيئةً إلاّ ويستيقظ فيها الخَوفُ من الله والنّدم على ما اقترفتْه، واللّوم والتَّقريع على ما ارتكبتْه، فتُبادر بالتَّوبة إلى الله والاستغفار من الذنب.

هذه النَّفس يُقْسم الله بها تَقديرًا لمجاهدتها، ويَمسح عنها تلك الجِراح الدَّامية، والآلام المُبرحة الناتِجة عن مَعركتها مع الشّهوات. ويَجعل القَسَم بها عَقِب القَسَم بيوم القِيامة، للاشتراك في تَدافع الخَلْق وتَزاحمهم يوم الفزع الأكبر،

وتَدافع النفس ومُغالبتها للسيئات ولوم ذاتها عمّا فَعلت، قال تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢].

٣- **النَّفس الأمّارة بالسوء**: وهي: النَّفس التي تَمكّن الشَّيطان مِنها، وغلَبتْها الشَّهوات على أمْرها، فوجَّهت حواسّ الإنسان وعَقله ومشاعِره نحو اقتراف السيئات، فأتَمَرت بها وأطاعتها وانساقت إلى ما تُريد. هذه النفس الأمّارة بالسوء هي وراء الكَثير من كبائر الذنوب وصغائِرها، خِلال تاريخ البَّشرية. وقد ساق القُرآن الكريم بعضًا منها؛ ومن ذلك ما يلي:

- كانت النفس الأمارة بالسوء وراء قَتل قابيل لأخيه هابيل، قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

- وهي السبب في إقدام إخوة يوسف على التَّخلّص منه. وشَعر يَعقوب # بما سوَّلته لهم أنفسهم، وقد حكى القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

- وهي وراء مُراودة امرأة العزيز ليوسف # قال تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٣].

- وقد كانت النَّفس الأمارة بالسوء هي الدَّافِع لامرأة العَزيز لاستدعاء نِسوة المَدينة ورُؤيتهنّ ليوسف #؛ لحَمْلِهنّ على الاعتذار لها والإقرار لها بتلك المُراودة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠].

- ولقد كان إقرار النِّسوة وإعجابهنّ من فَرط جَماله دافعًا قَويًا لنفس امرأة العَزيز للإصرار على ما تُريد، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢].

- وحينما تبيَّنتْ عِفَّة يوسف # وصِدقه وطهارَته بعد رِحلة السِّجن، كان الإقرار والاعتراف والنَّدم من زَوجة العَزيز، وإعلانها أنّ هذا بسبب النَّفس الأمّارة بالسوء، قال تعالى على لسانِها: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٣].

ولقد كانت النفس الأمّارة بالسوء هي المُحرِّكة للسامريّ لفِتنة بني إسرائيل واتّخاذِهم العجل إلهًا، قال تعالى على لسان موسى # : ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾ [طه: ٩٥، ٩٦].

- وهي أيضًا وراء الاستكبار في الأرض، والظُّلم والعُتو والاستبداد والكُفر عَبر تاريخ البشرية، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢١].

- وهكذا تظل النّفس الأمّارة بالسوء هي الدافع لارتِكاب المَعاصي واقتراف السيئات؛ ولهذا كان حديث القرآن على النَّفس البَشرية حديثًا مُستفيضًا شَمل كلّ جَوانبها، والعَوامِل المؤثرة فيها، وسُبل إصلاحها وتقويمها، قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

سادسًا: البيئة الاجتماعية:

إنّ من سُنن الله في خَلْق الإنسان أنّ الطِّفل حينما يَستقبل الحَياة وتَنفَتِح عَيناه في الدنيا، يكون على الفِطْرة النَّقية، قَلبه أبيض كاللّبن، ونَفْسه صافية صفاء الماء العَذب، وصَدره الصَغير كتاب مَفتوح تُسطِّره الأسرة والمَدرسة والمُجتمع؛ فعَن

أبي هريرة > قال: قال ﷺ: ((ما مِن مَولود إلاّ يُولد على الفِطْرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانِه)) رواه البخاري.

فالرسول ﷺ يُبيِّن أثر الأسرة والمُجتمع في صَلاح الأبناء أو انحراف سلوكهم؛ حيث تُوجد عوامل كَثيرة تَدفع الإنسان إلى المَيل للطَّاعة أو الجُنوح للمَعصية. فهناك دائرة الأسرة وما تقوم به من حُسن تَربية وكمال رِعاية وأدب، أو ما يَلقاه الطفل من الإهمال أو التَّدليل وعَدم المُراقبة والتَّوجيه. والمَدرسة ومنهجها في التَّعليم، أهو رسالة أم وَظيفة وتَلقين؟ ومَدى العلاقة بين الطالب والأستاذ؟ وهل المَدرسة تَعليم فقط، أم تَربية وتَعلِيم؟ ومَدى ارتباط المناهج بتقويم النفوس وتَهذيب السلوك. ثم يأتي بعد ذلك دور المُجتمع ذو الدائرة الأوسع، حيث تَشمل مُحيط الأصدقاء والجِيران، وتَتضمّن وسائل الإعلام، وأجهزة الدولة بسلطاتها التَّشريعية والقَضائية والتَّنفيذية.

كل هذه الأمور إن لم تُوضع لها الضَّوابط الشَّرعية التي تَصون الفَرد والجَماعة من عوامِل الانحراف والفَساد، فإنها تَكون مَدخلًا واسِعًا لارتكاب المعاصي والتَّشجيع عَليها.

وإنّ ما يُشاهده العالَم ويَسمعه من أنواع الفَن الهابِط، والأدب الماجِن، والإعلام المُبتَذَل، الذي يُروِّج للعُنف ويَحضّ على ارتكاب الفَواحِش، ويُغمِض عَينيْه عن آداب الإسلام، ويُصِمُّ أذنيْه عن توجيه الدعاة، لأَحدُ الأسباب الخَطيرة التي تَدفع لارتكاب المعاصي.

وقد بيَّن القرآن الكريم أنّ انحراف الأبناء وفساد سُلوكهم وارتكابهم الفَواحش، بسبب رؤيتهم للآباء وهم يقترفونها، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

ولقد كانت دعوات الأنبياء والمُرسلين عَبر التاريخ تصطدم دائمًا بالمُعتقدات الفاسدة التي تتوارثها الأجيال، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزُّخرف: ٢٣، ٢٤].

وكذلك لا يُجهَل مُحيط الصَّداقة، إنْ لمْ يُحسن الإنسان اختيار الأصدقاء؛ فالتَّشجيع على المعاصي وارتكاب المُنْكرات، ذلك يكون بسبب سوء تَربية الأهل وضَعْف رقابة المُجتمع.

ولقد حذَّر القرآن الكريم من عواقِب أصدقاء السوء، فقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

كما ساق القرآن الكريم مشاهِد وحوارات كَثيرة يوم القيامة لأصدقاء الإنسان من الإنس وقُرنائه من الجن، يتلاومون ويتقاتَلون ويتخاصَمون، ويَندمون على ما فرّطوا في جَنب الله بارتكابهم المعاصي، ودفْع بعضهم بعضًا لاقتراف السيئات. ومن ذلك:

١. قول الله تعالى: ﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٠ - ٥٧].

٢. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾ [الزُّخرف: ٣٦ - ٣٨].

فـ"القَرين": المُقارِن، والجَمع: قُرناء. وهو: المُصاحِب، ويُطلق على الشَّيطان المَقرون بالإنسان لا يُفارقه.

قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزُّخرُف: ٦٧].

و"الخِلُّ" و"الخُلّة": المُصادَقة والإخاء.

والخِلُّ -بالكَسر والضَّم-: الصَّديق المُخلِص.

والخَليل: الصادق، أو مَنْ أصفى المَودّة وأصحّها.

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

فالخُلّة أعلى دَرجات المَحبة وأرفعها.

وقد بيّن القرآن الكريم: أن يوم القيامة لا تَنفع فيه خُلّة الأصدقاء، ولا شفاعةُ الشفعاء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال تعالى مُصوِّرًا ومُوضِّحًا مشاهِد يوم القيامة: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٣ - ٣٧].

وهكذا يتّضح من خلال هذه الآيات الكريمة، مدى تأثير البيئة الاجتماعية التي تَشمل دائرة الأسرة، والمدرسة، والأصدقاء، وكلّ مظاهر الحياة في المجتمع، على سلوك الإنسان؛ وذلك بأخذه إلى الطَّاعة، أو دفعه إلى المَعصية.

مما سَبق تتبيَّن أسبابُ ارتكاب المَعاصي، ودوافِعُ اقتراف السيئات. ويَنبغي على مَن يتصدَّى للأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر أن يَكون على عِلْم وبَصيرة بهذه الأسباب والدَّوافِع، ليضع لكل حالةٍ ما يناسبها من التوجيه السليم، والموعظة الحسنة، أو بإحدى وسائل تَغيير المُنْكر.

شروط الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر

لقد وضع الإسلام صِفات ومعالِم الشخص الذي يُناط به القِيام بواجِب الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر، ويَجب أن تَتوافر فيه الشُّروط التالية:

أولًا: التكليف:

أن يَكون القائِمُ بهذا الأمْر مُكلّفًا شَرعًا والتَّكليف يَتحقق بالبُلوغ والعَقل؛ فغَير البالِغ لا يُسند إليه ولا يُطْلب منه؛ لأنه لم تَتوفّر فيه الأهلية الشرعية التي من خِلالها يكون مسئولا وواعِيًا لِما يأمر به أو يَنهى عنه. أما إذا قام المُميّز بهذا الأمر تَطوعًا، كبعض الحَفظة للقرآن الكريم، أو مِن طُلاّب العِلم الشرعي، فيُقبل منهم تَشجيعًا لهم وتَدريبًا على ممارسته، على أن يتمّ ذلك تَحت المُراقبة والمُتابعة، وفي حُدود الوَعظ والإرشاد بالقول، دون مراتب التغيير الأخرى؛ لأنَّ المُميز ليس أهلًا لها ولا مُكلّفًا بها.

وكذلك العقْل، فالمَجنون والمَعتوه والأبله لا يُكلّفون بالأمر والنّهي، لقوله ﷺ: ((رُفِع القَلمُ عن ثلاثة: عن المَجنون حتى يُفيق، وعن النائم حتى يَستيقظ، وعن الصَّبيِّ حتى يَحتلم)) رواه أبو داود، وأحمد، والترمذي.

ثانيًا: الإسلام:

لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولأن الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر نُصرةٌ للدِّين وإقامَة لحُدوده، فكيف يقوم به ويَنصُره الكافر به والجاحد له؟!

ولذلك فإنّ ما دَرجت عليه بعضُ الدول الإسلامية من الاستعانة بغير المُسلمين في وضْع المناهج التَّعليمية والتَّربوية لأبنائها، حيث يعْمَدون فيها إلى تَهميش الدِّين وإضعافه في النفوس. وأوضح مثالٍ سيِّئ على ذلك: ما فَعله المِستر "دنلوب" القِسيس الإنجليزي الذي عيَّنه "كرومر" المندوب السامي لإنجلترا في مصر في مطلع القرن العشرين مستشارًا لوزارة المعارف المصرية، فعمل على تخريب التعليم الدِّينيّ وإضعاف اللغة العربية، وما زالت بصماتُه الخبيثة على التعليم باقية حتى الآن.

فمن غير المنطق والمعقول: أن يكون غير المسلم أمينًا على دِين الأمّة المسلمة وثقافتها. وهل يُعقل أن يُؤتى بالذئب حارسًا؟ أو أن يكون اللص أمينًا؟

ثالثًا: العدالة:

وهي: التوافق والتوازن بين القول والعمل؛ فليس لِفاقد العدالة أو ناقص المروءة أن يقوم بواجب الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، ففاقد الشيء لا يُعطيه.

قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

فمَن ليس بصالح في نفسه، فكيف يُصلِح غيره؟!

ومتى يستقيمُ الظلُّ والعودُ أعْوج؟!

ولكون الإنسان غير معصوم، ولكي لا تضيق دائرة الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر، فقد يُقبل من الإنسان الذي قد يقترف بعضَ الصغائر والتي أطلق عليها

القرآن الكريم لفظ: ﴿ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، فأمثال هؤلاء يُقبل منهم القيام بالأمر بالمَعْروف، لا سيما في الأشياء التي لا يرتكبونها.

قال سعيد بن جبير: "إنْ لم يأمُر بالمَعْروف ولم يَنْهَ عن المُنْكر إلاّ مَن لا يكون فيه شيء، لم يَأْمُرْ أحدٌ بشيء".

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: "إنّ الحسبة تارة تكون بالنّهي بالوعظ، وتارة بالقهْر، ولا ينجع وعظُ من لا يتّعظ أولًا.

ونحن نقول: مَن عَلِم أنّ قولَه لا يُقبل في الحسبة لِعلْم الناس بفِسْقه، فليس عليه الحسبة بالوعظ، إذ لا فائدة في وعْظه؛ فالفسْق يؤثّر في إسقاط فائدة كلامه، ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام. أمّا إذا كان الحسبة بالمنع، فالمراد منه القهر، فلا حرج على الفاسق في إراقة الخمور وكسْر الملاهي وغيرها، إذا قدر على ذلك".

وما ذكَره الغزالي ينطبق على مَن كُلِّفوا من قِبل وليِّ الأمر بإزالة المُنْكرات الشرعية والمخالفات القانونية، بحكم وظائفهم فقط؛ فهم يقومون بالأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر كعمل وظيفيّ، لا كرسالة تعبّديّة، ويأخذون لها راتبًا ماليًا نظير قيامهم بما كُلِّفوا به من الدولة، غير أنهم سيُحاسَبون أمام الله على تقصيرهم في عدم الالتزام السلوكي، كمن يحث الناس ويأمُرهم بالصلاة وقد يتكاسل عنها، أو كمن كُلِّف بجمع الزكاة وهو لا يدفع زكاة مالِه.

فهؤلاء وأمثالهم يُقبل منهم ما يقومون به من أعمال، بحسب الوظيفة لا بحسب رسالة الدّعوة إلى الإسلام، وطلب الثواب والأجر من الله ﷻ.

رابعًا: العلْم والبصيرة:

فلابد من أن يكون القائم عالمًا بحقيقة الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، فإنّ من القواعد والأركان التي يقوم عليها الأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر، عالِمًا بالحُكم الشّرعي للمأمور به أو المنهيّ عنه، وهل هو للوجوب، أم للنّدب، أم للتحريم، أو للكراهة، أو التخيير؟

هذا بجانب الوقوف على الأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنة التي تعضد الحُكم وتوضِّحه.

فإنّ مَن يأمر وينهى من غير علمٍ يكون ضررُه أكبر من نفعه، لأنه قد يأمر بما ليس مشروعًا، وينهى عمّا كان مشروعًا. فقد يُحِلُّ حرامًا أو يحرّم حلالًا وهو لا يدري؛ ولذلك كان تأكيد الإسلام على طلب العلْم والتّفقّه في الدِّين أمرًا معلومًا من الدِّين بالضرورة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال ﷺ: ((مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّين)).

وقال تعالى لرسوله ﷺ وأمَره أن يُخبر الأمّة بذلك، وأن تلتزم بها: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالبصيرة تقوم على اليقين والبرهان العقليّ والشرعيّ.

وإن نزل بعض الدعاة ميدان الأمْر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر دون علْم يتحصّنون به وفِقْه بأوامر الشرع ونواهيه، قد يوقعهم في الضلال وينتج عن ذلك ظهور الفتن بين المسلمين، حيث تتضارب الفتوى، وتتنازع الآراء، وتتباين الأفعال، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠].

قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: "من عمِلَ في غير علمٍ، كان ما يُفسده أكثر ممّا يُصلحه".

يقول ابن تيمية -رحمه الله-: "ولا يكون العمل صالحًا إن لم يكن بعلْمٍ وفقه".

خامسًا: الرفق والحلم:

فإن اللّوم والتعنيف والتقريع يُخيف الناس منه ويَصرفهم عنه، قال تعالى مادحًا رسوله ﷺ لاتّصافه بالسماحة ولين الجانب: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد أمَر الرسول ﷺ بالرّفق في كلّ الأمور، فعن عائشة > قالت: قال رسول الله ﷺ: ((إنّ الرِّفقَ لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانَه)) أخرجه مسلم.

وقال ﷺ: ((إنّ الله رفيقٌ يُحبّ الرِّفقَ في الأمْر كلّه، ويُعطي عليه ما لا يُعطي على العنف)) رواه البخاري.

سادسًا: سعة الصدر:

يعِظ في لطف، ويناقش في هدوء، ويتجادل بأدب، وفْق ما أمَر الله به في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومع الرِّفق والحِلم، فإنه ينبغي لِمن يأمر بالمَعْروف ويَنهى عن المُنْكر أن يتحلّى بالصبر، لأن النفوس المريضة تضيق بالموعظة، وتنفر من الانصياع للأمر والنّهي. وقد ينزل الأذى بالداعي ويلحق به الضرر، ولا سيما حينما يواجه الجبابرة من العصاة والطغاة؛ ولهذا أمر الله الرسُل -وهم أئمةُ الأمر بالمَعْروف والنهي عن المُنْكر- بالصبر، فقال تعالى على لسان لقمان لابنه: ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، وخاطب الحق -تبارك وتعالى- الرسول ﷺ وأمَره بالصبر، كشأن أولي العزم من الرّسُل، فقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

[النحل: ١٢٧، ١٢٨].

قال بعض أئمة السلف: "لا يأمر بالمَعْروف وينهى عن المُنْكر إلاّ من كان فقيهًا فيما يأمُر به، فقيهًا فيما يَنهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به، حليمًا فيما ينهى عنه".

وقال سفيان الثوري: "لا يأمر بالمَعْروف ولا ينهى عن المُنْكر إلاّ مَن كان فيه خصال ثلاث: رفيقٌ بما يأمر رفيقٌ بما يَنهَى، عدلٌ بما يأمر عدلٌ بما ينهى، عالِمٌ بما يأمر عالِم بما ينهى".

سابعًا: إذن ولي الأمر:

بأن يكون القائم مأذونًا له من جهة وليّ الأمْر أو مِن قِبَلِ مَن يقوم على أمْر الدّعوة وتنظيمها؛ إذ إنَّ أساليب الدعوة إلى الله تنقسم إلى قسميْن:

القسم الأول: يطالَب به المسلمون جميعًا، ويُؤجَرون على فعْله ويأثمون على ترْكه، وهو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الإثم عن الجميع. وهو أحد المهام الرئيسة لضبط سلوك المسلم، ولبقاء الإسلام حيًا في الضمائر، يقظًا في الأفئدة.

هذا القسم يشمل: التناصح بين المسلمين، والتّواصي فيما بينهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، وقال ﷺ: ((الدِّينُ النّصيحة)) قلنا لِمَن؟ قال: ((لله، ولِكتابه، ولِرسوله، ولأئمّة المسلمين وعامّتهم)) رواه المسلم.

فالنصيحة أمر يشترك فيه المسلمون جميعًا، يتنافسون عليه ويتسابقون إليه، ولا سيما فيما عُلِم من الدِّين بالضرورة ولا يحتاج النصح فيه إلى بذل جُهد أو إعمال فكْر وقدْح ذهن.

وهذا هو المراد من قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فالتعبير بلفظ المضارع: ﴿تَأْمُرُونَ﴾، ﴿وَتَنْهَوْنَ﴾، و﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ الذي يفيد الحال والاستقبال، هذا دليل على استمرارية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى يوم القيامة.

وهذا الأمر المشترك هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

هذه التذكرة بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تتمّ حينما يجِد المذكِّر آذانًا صاغية، وقبولًا للموعظة، واستحسانًا للتوجيه، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩ - ١٢].

أما إذا وجد المذكِّر تبرّمًا وضيقًا، وصدودًا وإعراضًا، وقد يلحق به أذىً من جراء موعظته، فلْيمنعْ عن إبداء النصح، ولينسحب في هدوء؛ فكثيرٌ من الناس يتأفّفون من النصيحة ويضيقون ذرعًا بالتذكرة. وقد اشتكى نوح # من ذلك الصنف من الناس، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٥ - ٩].

هذا النوع من الدعوة إلى الله، الذي يشمل الأمّة كلها، والأمّة مطالَبة به، لا يحتاج لإذنٍ من أحد، ولا يتوقّف على تصريح من هيئة أو جهة طالما وجَد الشخصُ في نفسه الكفاءة العلْمية، والقدرة على الإقناع، والشجاعة في إبداء الرأي، وتيقّن أنّ توجيهه وإرشاده لن يجرَّ عليه من العواقب السّيِّئة ما يفوق ما ترتّب على نصيحته من مصلحة. وعلى من يقوم بهذا الأمر: أن لا يتعاطى في مقابل دعْوته أجرًا ماديًا أو يطلب مكانة أدبية، فهو متطوِّع لوجْه الله تعالى،

انطلاقًا من أمْر الله لعباده جميعًا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

فعن أبي مسعود عُقْبة بن عمرو الأنصاري البدري > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن دلّ على خيرٍ، فَلَه مثلُ أجْرِ فاعِله)).

وقال ﷺ لأحد أصحابه: ((لأنْ يهدي الله بك رجُلًا أحبُّ إليك من حُمْرِ النّعَم)).

هذا الصنف من الدّعاة لا يجب عليهم تتبّع عورات الآخَرين لزجْرهم، ولا التفتيش ولا التنقيب ولا التّحرِّي عمّن تستّر بالمعصية لنهيهم. وليس لهم حقّ المنْع باليد إلاّ لِمَن تحت إمْرتهم، كالزوجة والأبناء والخدم. أمّا غير ذلك فليس عليهم إلاّ إبداءُ النصح، والتّذكرة بعظم الذنب، وبيان مآثر الطاعة وعواقب المعصية. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

وسورة (الغاشية) التي جاءت فيها هذه الآية، مِن السوَر المكية التي أمرت الرسول ﷺ بالتّذكرة فحسب، إذ إنه ﷺ خلال دعوته بمكة لم يكن يَملك سوى سلاح الكلمة فقط. أمّا حينما انتقلت الدعوة إلى المدينة، وتأسّست الدولة الإسلامية، وبرزت عوامل التمكين والقوّة لرسول الله ﷺ اتجهت الدعوة إلى وسائل التغيير باليد.

القسم الثاني: أن يكون الأمر بالَمعْروف والنهي عن الُمنْكر من مهامّ الدولة في الإسلام، تُكلَّف به وجوبًا شرعيًا، وتعمل على وضْع القوانين واللوائح التي تُنظِّم القيام به، وتُعيِّن الدعاة الأكْفَاء من العلماء والفقهاء، لأداء هذا الواجب

الدِّيني، وتمنحهم من الصلاحيات والإمكانات ما يُعنيهم على إزالة المُنْكرات، وهو ما يُعرف في الإسلام باسم: "الحِسبة".

فـ"المُحتسِب" هو: الشخص المعيَّن من قِبل وليّ الأمر، للأمر بالمَعْروف والنّهي عن المُنْكر. ويُعْطى من القوّة والتّمكين ما يساعده على ردْع العصاة وزجْرهم. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

والحِسبة كما عرّفها الإمام الماوردي: "أمْر بالمَعْروف إذا ظهَر ترْكُه، ونهْي عن المُنْكر إذا ظهر فعْله".

وعرّفها الإمام الغزالي: "كلّ مُنكرٍ موجود في الحال، ظاهر للمُحتسِب بغير تجسّس، معلوم كونُه منكرًا بغير اجتهاد".

ولقد ذكر صاحب "الإحياء" مهامّ عمَل المُحتسِب، وهو المُعيّن من قِبَل الدولة، قال: "للوعظ والنّصح، ثم بالتعنيف، ثم التغيير باليد، ثم التهديد بالضرب، وتحقيقه، ثم الاستظهار بالأعوان والجُند".

ولقد جاء في كتاب "الحسبة في الإسلام" للدكتور إسحاق الحسيني ما يُحدِّد ميادين عمَل المُحتسِب فيقول: "فعلى المُحتسِب أن يأمُر العامّة بالصلوات الخمْس في مواعيدها، ويعاقب من لم يُصلِّ بالضرب أو الحبس. أما القتل إلى غيره -أي: لا يُخوَّل للمحتسب إقامة الحدود-. ويتعاهد المُحتسب الأئمة والمؤذِّنين؛ فمَن فرّط منهم فيما يجب من حقوق الإمامة، أو خرج عن الأذان المشروع، ألزمه بذلك. ويستعين فيما يعجز عنه بوالي الحرب -أي: بالشرطة- وبكلِّ مطاع يُعين على ذلك. والمُحتسِب يُفرض له أجرٌ لنظير عملِه من بيت المال".

ولقد توسّعت دائرة الحسبة في الإسلام، فلم تقتصر على العبادات فقط، بل اشتملت كلّ أوجه النشاط الاجتماعي. وقام المحتسِب بإذنٍ وتكليف من وليّ الأمر بمراقبة الأسواق، ومنْع الغشّ في المعاملات، والتلاعب في الموازين والأسعار، ومنع الاحتكار. ولقد كان نظام المُحتسِب وجهًا حضاريًا عبر تاريخ الإسلام، وقد شرُف بمباشرة الرسول ﷺ له.

فقد مرّ ﷺ بالسوق على صُبرة طعام، فوضع ﷺ يده في الإناء، فأصابت يدُه بَلَلًا، فقال: ((ما هذا، يا صاحب الطعام؟)). فقال الرجل: لقد أصابته السماء -أي: نزل عليه المطر-. فقال ﷺ ((هلاّ وضَعْتَه في أعلى كي يراه الناس؟ مَن غشّنا فليس منا)).

الفرْق بين المُتطوِّع والمُحتسِب في الدّعوة إلى الله:

لقد وضع الفقهاء فروقًا بين المُتطوِّع في الدّعوة إلى الله والمُحتسِب المُعيَّن مِن قِبَل ولِيِّ الأمر.

ومن هذه الفروق ما يلي:

١. الدّعوة إلى الله فرْض عيْن على المُحتسِب، وفرْض كفاية على غيره.

٢. إن قيام المحتسِب به من حقوق تصرّفه لا يجوز أن يتشاغل عنها -أي: بعمل آخَر يَصرفه عن عمله الأصلي وهو: الدعوة-. وقيام المتطوِّع به من نوافل عملِه الذي لا يجوز أن يتشاغل عنه لغيره -أي: لا يَصرفه التّطوّع بالدعوة إلى الله عن عمله الأصلي الذي يسترزق منه ويعيش على موارده.

٣. إن المُحتسِب منصوب للاستعداء فيما يجب إنكاره، وليس المتطوع منصوبًا للاستعداء. ومعنى ذلك: أنّ المُحتسِب يستعدي بالشرطة، ويطلب عونها في إزالة المُنْكر، أمّا المتطوِّع فلا يُخوّل له الاستنجاد أو استدعاء القوّة لمؤازرته. إنه يكتفي بالكلمة فحسب.

٤. على المحتسِب أن يبحث عن المُنْكرات الظاهرة ليصل إلى إنكارها، ويفحص عمّا تُرك من المَعْروف الظاهر ليأمر بإقامته. وليس على غيره من المتطوِّعة بحث ولا فحص ولا تنقيب.

٥. للمحتسب أن يُعزِّر في المُنْكرات الظاهرة لا يتجاوز الحدود، وليس للمتطوِّع أن يُعزِّر على منكر.

٦. للمحتسب أن يرتزق على حِسبته من بيت المال، ولا يجوز للمُتطوِّع أن يرتزق على إنكار المُنْكر.

ثامنًا: القدرة على القيام بواجب الأمْر والنّهي:

والقدرة تشمل أمريْن:

الأمر الأول: القدرة العلْمية من حيث سَوْق الأدلّة وإقامة البراهين، وأن يتميّز بالفصاحة والبلاغة وسلامة اللّغة وحُسن البيان؛ ولهذا نجد موسى # لمّا كانت في لسانه لَكنة تحُول بينه وبين القيام بأمْر فرعون ونهْيه، دعا الله تعالى أن يَحُلّ لسانه ويرسل معه هارون # لفصاحته، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ [طه: ٢٥ - ٣٢].

فالخوف وعدم الفصاحة قد يكون حائلًا دون القيام بواجب الدعوة؛ وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قصة موسى مع فرعون، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾

[القصص: ٣٣ - ٣٥].

ولقد كان ﷺ يبايع أصحابه على أن يصْدعوا بكلمة الحق، ولا يخشون إلاّ الله.

فعن عبادة بن الصامت، قال: "بايعْنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة..." - إلى أن قال: "وعلى أن نقول الحقّ أينما كنّا، لا نخشى في الله لومة لائم" متفق عليه.

الأمر الثاني: القدرة البدنية المقترنة بقوّة الشخصية التي تُمكّنه من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي: "العاجز ليس عليه حسبةٌ إلاّ بقلْبه، إذ إنّ كلّ من أحب الله يكره معاصيه ويُنكرها".

وذكر أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسِّي، بل يلتحق به ما يُخاف عليه مكروهًا يناله، فذلك في معنى العجز. وكذلك إذا لم يَخَفْ مكروهًا، ولكن علِم أنّ إنكاره لا ينفع، فلْيلْتفت إلى معنييْن:

أحدهما: عدم إفادة الإنكار امتناعًا -أي: لعجزه-.

والآخَر: خوف مكروه.

ويحصل من اعتبار المعنييْن أربعة أحوال:

الحالة الأولى: أن يجتمع المعنيان: بأن يعلم أنه لا ينفع كلامُه، ويُضربُ إن تكلّم؛ فلا تجب عليه الحِسبة، بل قد يَحْرُمُ في بعض المواضع. نعم، يلزمه أن لا يحضر مواضع المُنكر، ويعتزل في بيته حتى لا يشاهد، ولا يخرج إلاّ لحاجة مهمّة أو واجب.

الحالة الثانية: أن ينتفي المعنيان جميعًا: بأن يعلم أنّ المنكر يزول بقوله وفعْله، ولا يقدَّر له مكروه؛ فيجب عليه الإنكار، وهذه هي القدرة المُطلقة.

الحالة الثالثة: أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره، لكنه لا يخاف مكروهًا؛ فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، ولكن تُستحبّ لإظهار شعائر الإسلام، وتذكير الناس بأمْر الدِّين.

الحالة الرابعة: عكس ذلك، وهو: أن يعلم أنه يُصاب بمكروه، ولكن يَبطل المُنكرُ بفعله، كمن يَقدِر على أن يرمي زجاجة الفاسق بحجَر فيكسرها ويريق الخمر، ويتعطّل عليه هذا المنكر. ولكن يعلم أنه يرجع إليه، فيضرب رأسه.

فهذا ليس بواجب وليس بحرام، بل هو مُستحب، ويدل عليه قولُ الرسول ﷺ عندما سئل عن أي الجهاد أفضل؟ قال: ((كلمة حقّ عند سلطان جائر)) رواه النسائي بإسناد صحيح.

فإن غلب الظّنّ على مُنْكِر أنه يُؤذَى ويُصاب، لم يجب الإنكار. وإن غلب على الظّنّ أنه لا يصاب، وجب الإنكار. وتوقّع المكروه بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يختلف من شخص لآخَر، بحسب الضعف والقوة، والجبن والشجاعة.

لذلك ينبغي لمن يتصدّى للأمر أو النّهي أن يكون عاقلًا حصيفًا، يزنُ الأمور بميزان دقيق، فيدرس حالة مَن يريد أن يتصدّى له، فيعرف حالته النفسية، وظروفه الاجتماعية، ويقف على الدوافع، والأسباب التي حملتْه على ارتكاب المنكرات وعدم الإقبال على الطاعات، ويبصر بعين ثاقبةٍ مدى تحمّل هذا الشخص للتوجيه، ومدى تقبّله للّوم أو التعنيف أو التغيير بالقوة، ويسأل الداعي نفسه: هل إذا تصدّى للمنكَر سيجد الأعوان والأنصار الذين يؤازرونه ويناصرونه، أم سيواجه الأمر وحده؟ كما يجب أن يكون ذا نظرة بعيدة، فيرى ويقدِّر: هل إذا أقدم على أمرٍ أو نهْيٍ أحدث من العواقب السيئة ما هو أشدّ وقعًا من إزالة المُنكر، كحدوث فتنة أشد؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "فحيث كانت مفسدة الأمْر والنهي أعظم من مصلحته، لم يكن مّما أمر الله به، وإن كان قد تُرك واجبٌ وفُعِلَ محرَّمٌ؛ إذ المؤمن عليه أن يتّقي الله في عباد الله، وليس عليه هداهم".

ولقد وضع الفقهاء قاعدة عظيمة في درء المفاسد وجلب المصالح، فقالوا: "درء المفسدة مقدَّم على جلْب المصلحة".

وقد فصّلها الإمام ابن القيم فقال:

"شَرَعَ النبي ﷺ إيجابَ إنكار المنكَر ليحصُل من إنكاره من المعروف ما يُحبّه الله ورسولُه. فإذا كان إنكارُ المُنكَر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغُ إنكارُه، وإن كان الله يبغضه ويمقتُ أهله. وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كلِّ شرٍّ وبليّة.

ومَن تأمّل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصغار، رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على مُنكَر، فَطَلَبَ إزالتَه، فتولّد منه ما هو أكبر منه. ولقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها. فلمّا فتح الله مكة وصارت دار إسلام، عزم ﷺ على تغيير البيت وعلى ردّه على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك -مع قدرته عليه- خشية وقوع ما هو أعظم منه فتنة من عدم احتمال قريش لذلك، لقُرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر؛ ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد، لِما يترتّب عليه من وقوع ما هو أعظم منه.

فإنكار المنكر له أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويَخْلُفه ضدُّه.

الثانية: أن يقِلّ وإن لم يُزَلْ جُملة.

الثالثة: أن يَخلُفه ما هو مثْلُه.

الرابعة: أن يَخْلُفه ما هو شرّ منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة مُحرّمة.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج، كان إنكارك عليهم مِن عدم الفقه والبصيرة، إلاّ إذا نقلْتَهم منها إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله، كرمي النُشّاب وسباق ونحو ذلك... وإذا رأيت الفسّاق قد اجتمعوا على لعبٍ ولهو أو سماع، فإن نقلتَهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلاّ كان تركُهم على ذلك خيرًا من أن يتفرّغوا لِما هو أعظم من ذلك... وإذا كان الرجل مشتغلًا بكتب المجون

ونحوها، وخفْتَ من نقله عنها إلى انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر، فدعْه وكتبه الأولى. وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: "مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي. فأنكرت عليه وقلت له: إنما حرّم الله الخمر لأنها تصدّ عن ذكْر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدّهم الخمر عن قتْل النفوس وسبْي الذرية، وأخذ الأموال. فدَعْهُم!".

بهذه الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبهذا الفهم الدقيق والحسابات المدروسة، وتقديم قضايا الأمر والنهي وما يترتب عليهما من آثار صالحة أو سيئة، يصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مِن أهمّ عوامل إصلاح النفوس وتقويم المجتمعات.

وإنّ ما يعانيه العالَم الإسلامي مِن فتن هوجاء، وعواصف مدمِّرة، واضطرابات دامية، إنما هو بسبب بعض مَن يتصدَّوْن للأمر والنهي بانفعال غير مدروس، والقيام بأعمال طائشة لا تزن الأمور بميزان الفهم الصحيح لقضايا الدعوة وفِقْه الأولويّات، ممّا أثار الفتنة، وأضعف الأمّة، وفرّق الكلمة، فوهنت القوة، وغدا المسلمون لقمة سائغة وفريسةً سهلة انقضّ عليها الأعداء من كلّ حَدَبٍ وصوب، وأصبحت كلًا مستباحًا لشرار الخلْق من الكفرة وفسّاق الآفاق، يسرحون ويمرحون في ديار الإسلام كيفما شاءوا. وما ذلك إلا بسبب التضارب والتناقض في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واشتراط الشروط التي ذكرناها فيما مضى من حديث.

أنواع البشر الذين يوجّه إليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيفية علاجهم، ومراتب إنكار المنكر

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أنواع البشر الذين يُوجَّه إليهم الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر	١٢٩
العنصر الثاني :	المأمورات والمنهيّات التي يجب أن يتناولها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر	١٤٢
العنصر الثالث :	نوعان من الناس يتوجّه إليهما النهي	١٤٨
العنصر الرابع :	مراتب إنكار المنكر الذي فيه الاحتساب	١٥٥

أنواع البشَر الذين يُوجَّه إليهم الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكَر

لقد خلَق الله البشَر مختلِفين في الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، متفاوتين في الذكاء والإدراك، متمايزين في النظرة للأمور والحُكم على الأشياء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

هذا التباين والاختلاف يوجب على مَن يقوم بواجب الدّعوة إلى الله، ويباشر مهامّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن يتعرّف على أنواع البشر، ومدى إقبالهم على فعل الطاعات، ومدى إقدامهم على اقتراف السيئات.

وهل ما يرتكبونه من المعاصي يدخل في نطاق الكبائر أم الصغائر؟

وهل يوجد عناد وإصرار على إتيان الفواحش، أم هم من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فإذا ما درس الدّاعي أحوال مَن يأمرهم وينهاهم، استطاع أن يوجّه لكلّ نوع ما يناسبه من التذكرة والموعظة، ودرجة ما يخاطبهم به من الوعد والوعيد، ونجح في استمالة القلوب والتأثير على العقول، وإصلاح النفوس وتهذيب السلوك.

وسوف نتناول الآن أصناف البشَر وأنواع الخلائق، ومدى درجة كلّ نوع في القرب والبعد عن الطاعة أو المعصية، وذلك وفْق العناصر التالية:

الصنف الأول:

صنف لا يعرف شيئًا عن دينه، وذهنهُ خالٍ عن كلّ ما أمَر الله به أو نهى عنه، كمن نشأ في بيئة جاهلية، أو تربى في مجتمع بعيد عن دار الإسلام، كبعض المسلمين الذين وُلدوا ونشئوا في دول الغرب، أو كشأن الكثير من عوام المسلمين الذي يُعتبرُ دينُهم عادة لا عبادة؛ لأنهم لا يعرفون عن الإسلام إلاّ اسمه، ومع ذلك فهم متطلِّعون لِمن يأخذ بأيديهم ويرشدهم إلى الصراط المستقيم، ويبيّن لهم الحلال من الحرام، ويفقِّههم في أمور دينهم. ويتم ذلك معهم بأناةٍ ورِفْق وحِلم وصبر؛ فيجب على الداعي إلى الله الآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر: أن يتعرّف على هذا الصنف من البشر، فيسعى إليهم ويتقرّب منهم، ويُفسح صدره فيشرح أحكام الإسلام شرحًا مُبسّطًا مُيسّرًا، ويجمعهم على الطاعة بالترغيب فيها وبيان آثارها في الدنيا وثوابها في الآخرة، وينفِّرهم من المعصية، ويبيِّن عواقبها في الدنيا والآخرة.

هذا الصنف من الناس يكثر تواجده في عوام المسلمين من الفقراء، والكادحين الذين شغَلهم السعْي على المعاش وطلب الرزق لإعالة الأهل والأبناء عن معرفة الإسلام معرفة حقة. ويُلحق بهؤلاء الكثير من الناشئين من الفتيان والفتيات الذين أهمل الوالدان تربيتهم تربية إسلامية صحيحة، وتأثّروا بما حولهم من إعلام فاسد يدعو للرذيلة ويُشجِّع على الفاحشة ويحثّ على العنف. هذا بجانب إهمال المجتمع بهيئاته ومؤسّساته لواجب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والانصراف عن ذلك بتشجيع مظاهر اللّهو والعبث والترف، ممّا جعَل الدِّين عند هؤلاء أمرًا ثانويًّا وشعورًا هامشيًّا؛ فهُم قد حُرموا من لذّة الطاعة، ولم يشعروا بنعمة

الإسلام. هؤلاء الفتيان والفتيات تشملهم شريحة كبيرة من شرائح المجتمع، وهُمُ الذين ينبغي أن تتوجّه إليهم جهودُ الدّعاة، كما أمَر الله في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهُم تربة صالحة ومناخ ملائم يتقبّل التوجيه ويُسرع إلى الإذعان. ولقد كان الرسول ﷺ يُعالج هذا الصّنف من الناس معالجة طيِّبة تَحملهم على ترْك المعاصي وتحبِّب إليهم الطاعة.

فقد روى أبو أمامة < : أنّ غلامًا شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله. تأذن لي في الزِّنى؟ فصاح الناس به. فقال النبي ﷺ: ((أتُحبُّه لأمِّك؟)). قال: لا. جعلني الله فداك. قال ﷺ: ((كذلِك الناسُ لا يُحبّونه لأمَّهاتِهم. أتُحِبّه لابنتِك؟)). قال: لا. جعلني الله فداك. قال: ((كذلك الناسُ لا يُحبّونه لبَناتِهم. أتُحِبّه لأختك؟)). قال: لا. جعلني الله فداك. وزاد ابن عوف، حتى ذكَر العمّة والخالة، وهو يقول: في كلّ واحدة: لا، جعلني الله فداك، وهو ﷺ يقول: ((كذلك الناس لا يُحبونه)). وقالا جميعًا في حديثهما -أعني: ابن عوف وأبو أمامة-: ((فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: اللهم طهِّرْ قلبَه، واغفرْ ذنبه، وحصِّن فرْجَه. فلم يكن شيء أبغض إليه منه - يعني الزنا)). رواه أحمد بإسناد جيد.

وهؤلاء الذين ارتكبوا المعاصي عن جهل، أو تقاعسوا عن أداء العبادات كسلًا، يجب أن تُفتح لهم أبواب الأمل في رحمة الله، وأن يُدفع عن قلوبهم اليأس والقنوط. قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر: ٥٣].

الصنف الثاني:

أناس جمعوا مع الجهل بالدِّين: قسوة القلب، وظلمة النفس، وضلال العقل، وضعف العقيدة. لا يعرفون عن دينهم شيئًا، ولا يريدون أن يتعلّموا. قد جرفتْهم الحياة الدنيا بلهْوها ولعبها، وكدِّها وتعبها، وتكاثرها والاشتغال بها. فهم لا يفكِّرون في الخالِق، ولا يلتفتون لشئون الآخِرة، ولا يهتمّون بمسائل البعث والحشر والثواب والعقاب. وهؤلاء تحدّث القرآن عنهم كثيرًا. وأوجزُ وصف وأشملُه: قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

فإنّ أخطر شيء على الإنسان: أن ينسى الله في كلّ أحواله، فيُنسيه الله نفسَه، فيهيم على وجهه في هذه الحياة، بلا هدف يُرجى، ولا أمل يُطلب. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وأمثال هؤلاء يتأفّفون من الموعظة، ويضيقون ذرعًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وربما يُلْحِقون الأذى بمَن يدْعونهم، ولا سيما إذا كانوا من أصحاب السطوة والنفوذ، الذين تتمعّر وجوههم غضبًا، وتُلوى أعناقهم علوًّا واستكبارًا لِمجرّد النصيحة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

وقال تعالى عنهم: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

[الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وهؤلاء نفر قليل من جماعة المسلمين، إلا أن صوتهم عالٍ وكلمتهم مسموعةٌ، وذلك لسيطرة البعض منهم على وسائل الإعلام، وتقديمهم إلى المجتمعات الإسلامية على أنّهم روّاد النهضة وزعماء الإصلاح، مع أنهم في كتاباتهم وأحاديثهم يمرُقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية، ويستخفُّون بأحكامه ويسخرون من ثوابته.

ويمكن حصرهم في الفئات التالية:

أولًا: العلمانيّون: الذين تربّوا على موائد الاستشراق والتبشير والاحتلال، وانبهروا بحضارة الغرب العلميّة والمادية، وأعجِبوا بموقف أوروبا من الدِّين الذي يقوم على تجاهله وإغفاله وفصْله عن الحياة الاجتماعية سياسيًّا واقتصاديًّا وتربويًّا. واعتقدوا -ألا ساء ما يعتقدون- أنّ ما وصلت إليه دولُ الغرب وشعوبه مِن تقدّم في العلوم والمخترعات، وترف مادي وأنظمة اجتماعية تُحقّق العدل والمساواة لشعوبهم، هو بسبب هجْر الدِّين، ولن يستطيع العالَم الإسلامي السّير على منوالهم واقتباس نظمهم وشرائعهم وقوانينهم إلاّ بإبعاد الإسلام عقيدة وشريعة عن توجيه المجتمع، ودفْعه إلى دائرة العبادات لا يتعدّاها إلى غيرها؛ فانطلقت أفئدتهم وألسنتهم تهمز الإسلام وتلمز شرائعه، واستخفوا بما أمَر الله به أو نهى عنه. وقد انكشفت سوأتهم وفُضحتْ نواياهم، وتبيّن حقدهم الأسود وغلّهم الدّفين في هذه الأيام التي ظهرت فيها هيمنة غير المسلمين على ديار الإسلام وغطرستهم على شعوبه، ولقد بسطوا حمايتهم لهؤلاء البوم والغربان

الذين ينعقون باسم الاحتلال صباح مساء، ويطلّون بوجوههم القبيحة عبر وسائل الإعلام والقنوات والفضائية، يسبِّحون باسم المستعمرين ويحمدون فعلهم ويهتفون لمقدمهم ويستبشرون بغزوهم لديار الإسلام. فنراهم الآن ينكرون ما عُلم من الدِّين بالضرورة كالجهاد، ويستخفُّون بثوابت الأمّة في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق. وُجهتهم: دهاليز المخابرات الأجنبية، وقِبلتهم: مواخير الخنا والفسق ودور الفساد. قال تعالى مخاطبًا هؤلاء ومَن كان على شاكلتهم من العصاة مُقترفي السّيّئات: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

ثانيًا: بعض المترفين من أبناء هذه الأمّة، الذين فتح الله عليهم الدنيا، ومكّن لهم بالثراء في الأرض، فانتفخت جيوبهم وتضخّمت ثرواتهم، وكثرت عقاراتهم وأموالهم.

وقد كان من الواجب عليهم أن يتوجّهوا إلى الله بالحمد، وتلهج ألسنتهم بالشّكر على النعماء، وينفقون من هذا المال في مصارفه الشرعية على أنفسهم وعلى ذويهم ثم على المجتمع. قال تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤].

غير أنّ هؤلاء المُترفين قد أبطرتهم النِّعم، وأفسدهم كثرة المال، فطغَوْا وبغَوْا، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦].

فاتّجهوا نحو الملذّات ينغمسون فيها، ويتفنّنون في تحصيل سبل التّلذّذ بها، فتشرّبت قلوبهم المعصية، وغرقت نفوسهم في الشهوات فاقترفوها، وغفلت عن الطاعة فابتعدوا عنها.

وأصبح إتيان المُنكَر جزءًا من حياتهم وجوهر سلوكهم، وتحالف معهم الشيطان يزيِّن لهم الكبائر ويحثهم على اقتراف الرذائل، فأشاعوا الفاحشة في المجتمع، كبعض الفنّانين من الممثِّلين والممثِّلات والمطربين والمطربات. وهؤلاء وأمثالهم أطلق عليهم القرآن الكريم: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾، قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥].

وهم بأفعالهم القبيحة قد دمّروا ثوابت المجتمع، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

هؤلاء وأمثالهم لا يُتركون للشيطان يُغويهم، ولا للمعاصي تُغريهم، ولا للمنكرات تستحوذ عليهم، بل ينبغي أن يسارع لهم الدّعاة لأمْرهم بالمعروف ونهْيهم عن المنكر، ولا يسأمون من دعْوتهم، ولا يقنطون من إصلاحهم، ولا يكُفّون عن إبداء النّصح لهم.

ومعالجة هؤلاء وغيرهم من العلمانيِّين تكون على النحو التالي:

أ- معالجة العلمانيّين:

تجب ملاحقة أفكارهم، وتفنيدُ مزاعمهم، وفضْح عمالتهم لأعداء الدِّين، وكشف خيانتهم لعقيدة الأمّة وثوابتها، وذلك بالوسائل التالية:

١. بالكلمة المسموعة والمرئيّة.

٢. بالمقالات الصحفية.

٣. بنشر مواقع على "الإنترنت" لكشْف حقيقتهم.

٤. بالكتاب المطبوع والنشرات المطوية الموجزة.

٥. بإقامة المناظرات معهم لتعْرِيَتهم أمام الأمّة، وإلقاء المحاضرات والندوات في الأندية الأدبية والمنتديات الثقافية.

٦. إقامة المؤتمرات بين الحين والحين لِرصْد أعمالهم ومناقشة سموم أفكارهم.

٧. على ولي الأمر أن يحظر نشر سمومهم وأفكارهم على الأمّة، إذ إنّ من واجبه أن يحافظ على معتقداتها، ويصون ثوابتها؛ وليس هذا مصادرة لحريّة الفكر، ولا حَجْرًا على الرأي، ولكن حماية للمسلمين من بذور الفتنة وعوامل الانحراف.

ب- معالجة المترفون الذين أبطرتْهم النِّعم وتمكّنتْ منهم السيئات:

فيتم أمْرهم بالمعروف ونهْيهم عن المنكر بالأساليب التالية:

١. استغلال أوقات فراغهم من شواغل الدنيا، وبثّ الموعظة إليهم برفْق ولين، كما أمر الله موسى وهارون بكيفية خطاب فرعون رغم عتوِّه واستبداده وعناده، قال تعالى: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

٢. تذكير هؤلاء العصاة بأمور الآخِرة من أهوال البعث والحشر، والثواب والعقاب، والجنّة وما فيها من نعيم، والنار وما فيها من جحيم.

٣. استغلال ما يقع فيه هؤلاء المُترفون المفسدون في الأرض لِما يحلّ بهم من كوارث مالية، أو أمراض بدنيّة، أو ظروف نفسيّة، ممّا يتعرض له الإنسان في حياته كموت عزيزٍ أو فقدان صاحب أو ضياع مال... إلخ.

فهذه الأزمات والكوارث توقظ الإنسان من غفلته، وتعيده إلى فطرته، وتُذكِّره بخالِقه. فإذا ما أحسن الداعية استغلال هذا الظرف الصعب الذي يحيط بهذا العاصي، وانتهز ما يعانيه من آلام نفسية وبدنية، وبيّن له نتائج الطاعة وما أعدّه الله للطائعين من نعيم مقيم وجنة خالدة، وذكَر له عواقب المعصية وما ينتظر العاصين من نار تلظّى لا يصلاها إلا الأشقياء العصاة، مرتكبو الكبائر والمصرّون عليها حتى الموت... وهكذا تتضمّن موعظة هذا الصنف الوعد والوعيد، والأمر والنهي، والترغيب والترهيب.

٤. يجب على الدّعاة أن يكتبوا لهؤلاء العُصَاة على مؤسّساتهم أو منازلهم بالبريد أو بالفاكس، خطابات يتناولون فيها ما يرتكبه كلّ إنسان منهم من معصية، وما يقترفه من منكرات. وتتّسم تلك الخطابات بمخاطبة العاصي برفق، وأدب حديث وحسن بيان، شارحًا له بالأدلة الشرعية عواقب ما يرتكبه من أفعال، ويخاطب نفسه، ويحرّك مشاعره نحو التزام الطاعة، والخوف من عقاب الله. ويذكر له أنّ ما حَمَلَه على الكتابة هو: حبُّه له، وحرْصُهُ عليه، وإبراء للذِّمة، ووفاء وامتثال لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]. والآيات والأحاديث في هذا الشأن كثيرة جدًّا.

٥. إن لم تُجْدِ أي وسيلة من الوسائل الآنفة الذِّكْر، ولم ينفع الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، وأصرَّ العاصي على اقتراف المعاصي والجهْر بها

على الملأ دون استحياء، كمن يشرب الخمر على قارعة الطريق، أو يؤذي النساء ويطاردهنّ ويلاحقهنّ لحمْلِهنّ على الفاحشة، أو من يتعاطى الربا ويتعامل به عطاءً أو أخذًا واشتهر ذلك عنه، فعلى المحتسِب أن يستنجد بولي الأمر لِمنْعه عن ارتكاب المنكرات بوسائل المنع التي سنذكرها في موضعها -إن شاء الله-.

وهذا واجب شرعي على الولاة، وفرضٌ ديني عليهم، لا يتقاعسون عنه ولا يُهملون مواجهته لقول الرسول ﷺ: ((كلّكم راعٍ وكلّكم مسئول عن رعيّته: فالحاكم راعٍ وهو مسئول عن رعيته...)) الحديث.

وقال ﷺ: ((إنّ الله سائلٌ كلَّ راعٍ عمّا استرعاه، أحفِظ أم ضيَّع)).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال عثمان بن عفان > : "إنّ الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَع بالقرآن".

الصنف الثالث:

جماعة من المسلمين على علْم بالعقائد الإسلامية، غير أنّ عندهم وعيًّا غير كامل ومعرفة ناقصة، بأحكام الشّرع وأوامر الله ونواهيه. ونتيجة لهذا الجهل تغلبهم أهواؤهم وشهواتهم، فيجنحون لارتكاب المعاصي. وأمثال هؤلاء ينبغي على الدّعاة تثبيتُ عقائدهم وتعميقها، وتكميل معارفهم بالإسلام وأحكامه وشرائعه، والانتقال بهم من تديّن العَادَة إلى تديّن العِبَادة، ليستشعروا حلاوة الإيمان ولذّة الطاعة، بعدما ذاقوا مَرَارَة المعاصي وآثارها السّيِّئة؛ فتؤثّر فيهم الموعظة الحسنة، وتستميلهم الكلمةُ الطّيبة، حيثما يتمّ فتح أبواب الأمل في

رحمة الله ومغفرته بإيقاظ دواعي الخير عندهم، وتحريك الفطرة النّقيّة في قلوبهم، ومخاطبتهم برفق، وتبصيرهم في حلمٍ ولين؛ لأنهم ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

هؤلاء المنحرفون والعصاة من المؤمنين، توجيههم وإصلاحهم واجب شرعي على علماء الأمّة، وفرض ديني على ولاة الأمْر فيها، ومسئولية المجتمع بشتّى هيئاته ومؤسّساته الدِّينيّة والتربوية والثقافية والإعلامية، وسلطاته التشريعية والقضائية والتنفيذية. ثم إن هذا الإصلاح الدّيني والتقويم الاجتماعي يقي الأمّة من الفتن، ويحفظها من العواصف الأمنيّة واضطراب الأمور، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

وعن حذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده! لتأمُرُنّ بالمعروف، ولتنْهَوُنّ عن المنكر، أو ليوشكَنّ الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدْعُنّه فلا يُستجاب لكم))، رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: "حديث حسن".

إن انصراف الأمّة عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، واستشراء حالة السلبيّة واللا مسئولية بين الأفراد والجماعات، يُنذرُ بعواقب سيِّئة ونتائج وخيمة. وإنّ ما حدث ويحدث في أرجاء العالَم الإسلامي مِن فِتن هُوج وأنواء عاتية، وعواصف من الشرق والغرب مدمِّرة، ما هو إلاّ بسبب غياب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. وهو، وإن قام به البعض الآن، إلا أنه قيام ضعيف غير قوي، متعارضٌ غير منظّم، يؤدَّى على أنّه وظيفة لا رسالة؛ فيضعف تأثيره، وتسقط هيبة القائمين على شئونه. وقد يحتجّ البعض لانصرافه عن الأمر والنهي بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فاستدلّوا بهذه الآية على تجنّب المجتمعات، واللّوذ بالصّمت، وعدم الاهتمام بحدود الله وأمْره ونواهيه. وهذا فهم خاطئ قام بتصحيحه رسول الله ﷺ، وبيّن وجْه الفهم الصحيح للآية.

فعن أبي أمية الشعباني قال: أتيتُ أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أيّة آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. قال: أما والله لقد سألتُ عنها خبيرًا. سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: ((بل ائتمِروا بالمعروف، وتناهَوْا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متّبَعًا، ودنيا مُؤْثَرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخاصّة نفسك، ودعِ العوامّ. فإنّ من ورائكم أيامًا الصابرُ فيهنّ مثلُ القابض على الجمر. للعامل فيهن مثلُ أجْر خمسين رجلًا يعملون كعملِكم)). قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: قيل: يا رسول الله. أجر خمسين رجلًا منا أو منهم؟ قال ﷺ: ((بل أجْر خمسين منكم))، رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي وقال: "حديث حسن غريب صحيح".

وفَهْم تأويلَها أبو بكر الصديق >: روى الإمام أحمد في "مسنده": قام أبو بكر الصديق > فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أيها الناس. إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم لتضعونها على غير موْضعها. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنّ الناس إذا رأوا المُنكَر ولا يغيِّرونه، يوشِك الله ﷻ أن يَعُمّهم بعقابه)).

وفي رواية أخرى لأبي داود، والترمذي، والنسائي، بأسانيد صحيحة، قال أبو بكر الصديق: وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلَمْ يأخذوا على يديْه، أوشك أنْ يَعُمّهم الله بعقاب منه)).

وهذا الفهم الدقيق أشار إليه عبد الله بن مسعود > ؛ فعن أبي العالية، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قال: "كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسًا، فكان بين رجليْن بعض ما يكون بين الناس -أي: من التخاصم والشِّجار-، حتى قام كلّ واحد منهما إلى صاحبه. فقال رجل من جلساء عبد الله بن مسعود: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟

فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ... ﴾ الآية.

قال، فسمعها ابن مسعود قال: "مهْ! لم يجئ تأويل هذه بَعْدُ. إن القرآن حيث أنزل ومنه آي قد مضى تأويلهنّ قبل أن ينزلنّ، ومنه آي قد وقع تأويلهنّ بعد اليوم، ومنه آي تأويلهنّ عند الساعة ما ذكر من الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شِيعًا، ولم يُذق بعضكم بأس بعض، فأْمُروا وانهَوْا. وإذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبِستم شِيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤٌ ونفسه. وعند ذلك جاءنا تأويل الآية"، رواه ابن جرير، وذكره ابن كثير في "تفسيره".

فقد ذكر -رحمه الله- المناخ الملائم الذي يثمر فيه الأمر بالطاعة والنّهي عن المعصية، ويؤتي ثماره. وهذه ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

كما يُبيّن > الأحوال التي تعمّ فيها الفتن، وتكثر الفوضى، ويصير الأمر والنهي بدون إدراك للعواقب ودون رويّة وتدبّر وحكمة، يَجُرُّ من المفاسد أكثر ممّا يحقِّق من المصالح.

ممّا سبق، يتضح لنا تنوّع أصناف مَن تتوجّه إليهم النصيحة، وعلى القائمين على شأن الدّعوة أن يقدّروا لكلّ جماعة من العصاة ما يناسبها وما تُطيقه من الأمر والنهي والترغيب والترهيب، وأن تكون لديهم النظرة الثاقبة لِردّ الفعل الذي يحدث في نفوس مَن يُلقى إليهم بالأمر أو النهي؛ وهذه هي الدّعوة إلى الله بالبصيرة المستنيرة، والحكمة والموعظة الحسنة.

المأمورات والمنهيّات التي يجب أن يتناولها الآمِر بالمعروف والنّاهي عن المنكَر

إنّ الشريعة تقوم على أصل عظيم وقاعدة هامّة، وهي: جلْب المصالح ودَرْء المفاسد.

ومصالح العباد تتعلّق بأمور ضروريّة أو حاجيّة أو تحسينيّة.

فالأولى: وهي التي لا قيام لحياة الناس بدونها، وإذا فاتت حلّ الفسادُ، وعمّت الفوضى، واختلّ نظام الحياة. وهذه الضروريات هي:

حفظ الدِّين، والنّفْس، والعقل، والعِرض، والمال. وبعضهم يجعل مع العِرض: النّسل.

الثانية: الحاجيات، وهي التي يحتاج إليها الناس ليعيشوا بيُسر وسَعة، وإذا فاتتهم لم يخِلّ نظام الحياة، ولكن يصيب الناسَ ضيقٌ وحرَج.

الثالثة: التحسينات، وهي ترجع إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الحارس الأمين والعين الساهرة، لحفظ الشريعة وصون أحكامها، وهو الأداة التنفيذية التي تقوم على تطبيق ما أمر الله به أو ما نهى عنه. وأوامر الشرع الحكيم ونواهيه تختلف وتتفاوت على النحو التالي:

أ- الوجوب: ومعنى هذا: أن الفعل الذي تعلّق به هذا الحُكم يلزم المكلَّف القيام به على وجه الإلزام، ويُسمّى هذا الفعل بـ"الواجب". فالواجب هو: ما طلَب الشارعُ من المكلَّف فعْلَه على وجه الحتْم والإلزام، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والوفاء بالعقود...

ب- الحُرمة: ومعنى هذا الحُكم: أن الفعل الذي تعلّق به يُلزم المكلَّف تركَه على وجه الحتم والإلزام، ويسمَّى هذا الفعل المطلوب ترْكه إلزامًا بـ"المُحرَّم". فالمُحرَّم إذًا هو: ما طلَب الشارع ترْكَه على وجه الإلزام، كالزِّنى والسرقة...

ج- النّدب: أي: طلَب الشارع القيام بالفعل على وجه التفضيل والترجيح لا الإلزام، ويُسمَّى الفعل الذي تعلّق به هذا الحُكم بـ"المندوب". فالمندوب: ما طلَب الشارعُ فعْلَه على وجه التفضيل لا الإلزام، مثل: كتابة الدّيْن حفظًا لحقوق الدائن.

د- الكراهة: طلَب الشارع ترْك الفعل على وجه الترجيح لا الإلزام، ويسمَّى الفعْل الذي تعلّق به هذا الحُكم بـ"المكروه". فالمكروه: ما طلَب الشارعُ ترْكه على وجه الترجيح لا الإلزام، مثل: إيقاع الطلاق بلا مبرّرٍ كافٍ.

هـ- الإباحة: ويعني هذا الحُكم: تخيير المكلَّف بين القيام بالفعل الذي تعلّق به هذا الحُكم وترْكه. والفعل المخيَّر بين ترْكه والقيام به يسمَّى بـ"المباح"، مثل: الأكل، والشرب، والقيام، والقعود، ومباشرة سائر التّصرّفات الشرعيّة.

و- الصّحّة: حُكم شرعي يتعلّق بالأفعال التي يقوم بها المكلّف على الوجه الذي قرّرتْه الشريعة الإسلامية، ويسمَّى الفعل في هذه الحالة: "الصحيح".

والصحيح تترتّب عليه آثاره الشرعية، سواء أكان من العبادات، أو العقود، والتّصرّفات.

ز- البطلان: حُكم شرعي يلحق أفعال المكلَّفين إذا جاؤوا بها على غير الوجه المشروع، ويسمَّى الفعل في هذا الحالة: "باطل". والباطل لا تترتّب عليه الآثار التي تترتّب على الصحيح.

هذه الأحكام باختلاف نوعية الأمر فيها أو النهي عنها، ينبغي أن توضع أمام أعيُن الدّعاة ليقدروا لكلّ حُكم قدْره في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد؛ وهذا ما سوف نتناوله من خلال العناصر التالية: ما يجب على الإنسان أن يفعله ويحرم عليه ترْكه.

وهذه الواجبات هي أركان الإسلام، وقواعد الدِّين، وصلب العقيدة، وجوهر الشريعة، ولا قيام للملّة إلا من خلالها، ولا نجاة للعبد يوم القيامة إلاّ بالإيمان بها، والمحافظة عليها، وأدائها بالكيفية التي أمر الله ﷻ بها وفرَضها على عباده، وبيّنها الرسول ﷺ ووضّحها لأمّته على الوجه الأمثل والأفضل. هذه الواجبات التي فرَضها الله -تبارك وتعالى- يُطلَق عليها: "ما عُلِم من الدِّين بالضّرورة". وهذه الواجبات والفرائض تكون على النحو التالي:

أولًا: ما يتعلّق بالعقيدة:

العقيدة لغة: العقد نقيض الحَلّ، يقال: عقَد الحَبْل والبيع، يعقده: شدّه ووثّقه.

والعقْد: الضّمان والعهد، ويُستعمل في أنواع من البيوعات والعقود وغيرها. ثم استُعمل في: التصميم والاعتقاد الجازم. وتعاقدوا: تعاهدوا. والعقيد والمعاقِد: المُعاهِد.

فـ"العقيدة" هي: كلّ ما يعتقده الإنسان اعتقادًا جازمًا، ويقينًا صادقًا موثقًا، لا ريب فيه، يطمئن له القلب، وينشرح له الصدر، ويؤمن به العقل؛ سواء كان هذا المعتقَد إيمانًا أو كفرًا، خيرًا أو شرًّا.

فالبشَر أنواع شتّى تختلف عقائدُهم وتتباين أفكارهم ومذاهبهم، وكلّ منهم يؤمن بما يعتقده، سواء كان صوابًا أو خطًا.

والمؤمنون بالله حقّ الإيمان يعتقدون عن علمٍ ويقينٍ اعتقادًا جازمًا، بأن الله ربّ كلّ شيء ومليكه، وخالقه والقائم على حفظه، والمتصرّف فيه، وأنه ﷻ الذي يستحقّ وحْده أن يُفرَد بالعبادة، من صلاة وصوم ودعاء، ورجاء وخوف، وذلّ وخضوع، وأنه سبحانه مُتّصف بصفات الجلال والكمال، ومُنزّه عن كلّ ما لا يليق بذاته. وتوحيد الله -تبارك وتعالى- وطاعته، والتزام أوامره واجتناب نواهيه، هو جوهر دعوات الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والإيمان بالله يتضمّن: "توحيده في ثلاثة: في ربوبيّته، وفي ألوهيّته، وفي أسمائه وصفاته. ومعنى توحيده في هذه الأمور: اعتقاد تفرّده سبحانه بالرّبوبية، والألوهية، وصفات الكمال وأسماء الجلال؛ فلا يكون العبد مؤمنًا بالله حتى يعتقد أنّ الله ربّ كلّ شيء ولا ربّ غيره، وإله كلّ شيء ولا إله غيره، وأنه الكامل في صفاته وأسمائه ولا كامل غيره".

ولقد جاء القرآن الكريم متضمّنًا أركان الإيمان وأسُس العقيدة في مواضع كثيرة في الذّكر الحكيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فقد اشتملت هذه الآية على أركان الإيمان، وهي: الإيمان بالله، الإيمان بالملائكة، الإيمان بالكتب السماوية، الإيمان بالرّسُل، الإيمان بالبعث. وتضمّنت الآية: الإيمان بوجوب السّمع والطاعة، وطلب المغفرة. كما أنه من أركان الإيمان: عدم التفرقة بين الأنبياء والمرسلين.

وجاءت بالإيمان أحاديث الرسول ﷺ، ووضّحتْه غاية الإيضاح؛ ومن ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب > قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى رسول الله ﷺ، فأسند ركبتيْه إلى ركبتيْه، ووضع يديْه على فخِذيْه، وقال: يا محمد. أخبِرْني عن الإسلام. فقال ﷺ: ((الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا)). قال: صدقتَ. فعجبْنا منه، يسأله ويصدِّقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال ﷺ: ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتُبه، ورسُله، واليوم الآخِر. وأن تؤمن بالقضاء والقدَر، خيْرِه وشرّه)). فقال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: ((أن تعبُدَ الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك))... إلخ الحديث، رواه مسلم.

فهذا حديث شامل لأسُس العقيدة الإسلامية، جامع لأركان الإسلام والإيمان بشِقّيْه: العقيدة، والشريعة. فلا تصحّ عقيدة المؤمن، ولا يكتمل إيمانه، إلاّ بالإسلام عقيدةً وشريعةً، قولًا وعملًا. ولقد جمَع القرآن الكريم بين جوانب العقيدة والشريعة، والسلوك والمعاملات، في الوصايا العشْر التي جاءت في سورة (الأنعام)، قال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ

﴿ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١- ١٥٣].

فهذه الآيات تضمّنت الإسلام بكلّ عقائده وتشريعاته. يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "من أراد أن ينظر إلى وصيّة محمد ﷺ التي عليها خاتمه -أي: كأنها كُتِبتْ وخُتم عليها، فلم تُغيّرْ ولم تُبدّلْ- فلْيقرأْ قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... ﴾ الآية"، رواه الترمذي وحسّنه، وابن المنذر، والطبراني.

وقد روى عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أيّكم يبايعُني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ حتى فرغ من الثلاث آيات. -ثم قال: - مَن وفّى بهن فأجْره على الله. ومَن انتقص منهنّ شيئًا فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته. ومَنْ أخّره إلى الآخرة كان أمْره إلى الله، إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه))، رواه ابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه.

فالأمر بالمعروف يتّجه لتعريف وتوضيح كلّ ما فرَضه الله ﷻ وسَنّهُ الرسول ﷺ من أنواع العبادات، وصنوف الطاعات، ومختلف القربات، ممّا جاء في القرآن والسُّنّة، وأجمعت عليه الأمّة، وأصبح معلومًا من الدِّين بالضرورة، لا يتغيّر ولا يتخلّف باختلاف الزمان والمكان.

فالاعتقاد القلبي اليقيني الصادق للعقيدة، والقيام بأداء العبادات، فرْض على كلّ مسلم بالغ عاقل، مع شروط التكليف لكلّ عبادة.

ولقد شرع الله الحدود في الدنيا والعقوبات في الآخرة، صيانةً للعقيدة وحفظًا للشريعة، وأمنًا للمجتمع، واستمرارًا للإسلام. وجعل من واجب الأمّة -ولا سيما علماؤها ودُعاتها-: الحرص على أداء الشعائر، وذلك بتثبيت المؤمنين الطائعين على إيمانهم، وتبشيرهم بما أعدّه الله لهم في الآخرة، ليزدادوا إيمانًا على إيمانهم، ويقينًا صادقًا لا يُخالجه أدنى شكّ أو ريْب في وعْد الله لهم بالجنة.

قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم: ٧٦].

نوعان من الناس يتوجَّه إليهما النّهي

النوع الأول: المقصِّرون في العبادة، المتكاسلون عنها، دون جحود أو إنكار، المتشاغلون في الدنيا عن بعض الفرائض والواجبات؛ فهؤلاء يحتاجون لِمَن يوقظهم من غفلتهم، وأن يجلُوا ما ران على قلوبهم من غشاوة، وأن يزيلوا ما في عقولهم من حُجب النسيان، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩].

وهؤلاء هم الأوّابون إلى الله، المبادرون بالتّوبة، المتسابقون إلى الطاعة. فبمجرّد سماع التذكرة والنصيحة، تقشعرّ قلوبُهم لأقلّ معصية، وترتعش أبدانهم لأدنى تقصير، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

يقول الإمام ابن كثير: "تذكروا عقاب الله وجزيل ثوابه ووعْده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله، ورجعوا من قريب".

وهؤلاء لا يُقسَى عليهم بالموعظة، ولا يُعنّفون أثناء النصيحة، ولا يُتهدّدون بالعقوبة؛ فالكلمة الحسنة توقظهم من غفلتهم، والتّوجيه الحليم الرفيق يفجّر ينابيع الخير في نفوسهم، فيتخلّصون من ذلّ المعصية، وينتقلون إلى عزّ الطاعة. فهم يَصدُق عليهم قولُ الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى: ٢٥، ٢٦].

النوع الثاني: جماعة من المؤمنين غرّتْهم الحياة الدنيا وزينتُها، فاندفعوا في طلَبها، وركضوا في تحصيلها كما يركض الوحش في البرية، وزيِّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، فارتكبوا المعاصي وانغمسوا في الشهوات، حتى قستْ قلوبهم، فأصبحوا يعيشون في دائرة المعصية لا يخرجون منها، وتنكّبوا الطريق المستقيم، وصرفتهم رياح الفسوق فوقعت بهم إلى هاوية الذنوب، ومنحدَر الخطيئة، وإثم الفجور والعدوان.

هؤلاء العصاة كالوباء، يجب محاصرتهم وعلاجهم، وتوخّي الحِكمة والحيطة والحذر في نهْيهم عن المنكر. ويكون ذلك بما يلي:

أولًا: دراسة أسباب المعاصي، وقد تناولنا دراستها.

ثانيًا: التّعرّف على حقيقة ما يُرتكب من المُنكرَات؛ فقد قسّم الشرع المعاصي إلى كبائر وصغائر، فالكبيرة هي: "كلّ معصية يترتّب عليها حدّ، أو توعّد بالنار، أو اللعنة، أو الغضب".

وهذا التعريف مروي عن ابن عباس { والحسن البصري. قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧]. وقال تعالى شأنه: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢].

ففي هذه الآيات توضيح على أنّ الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر. ولقد جاءت سورة (الإسراء) تفصل هذه الكبائر قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣١ - ٣٨].

ولقد جاءت السُّنّة النبوية الشريفة تُحدِّد الكبائر وتُحذِّر منها، فعن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((اجتنِبوا السَّبْع الموبقات!)). قيل: يا رسول الله. وما هنّ؟ قال: ((الشِّركُ بالله، وقتْلُ النَّفْس التي حرَّم الله إلاّ بالحق، والسّحر، وأكْل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتّولِّي يوم الزّحْف، وقذْف المحصنات الغافلات المؤمنات))، رواه الشيخان.

وهناك أحاديث أخرى تُضيف إلى تلك الكبائر السّبْع كبائرَ أخرى، كعقوق الوالديْن، واستحلال البيت الحرام، والإلحاد فيه بظلم، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ

﴿ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]، كذلك شهادة الزور، قال تعالى: ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠].

وعن أبي بكرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدَيْن. وكان مُتّكئًا فجلس فقال: ألاَ وقوْل الزُّور! فما زال يُكرِّرها حتى قلنا: لَيْتَه سكت!)). متفق عليه.

وقد أورد ابن كثير الكثير من الأحاديث التي تُحدِّد الكبائر، فلْيرجع إليها في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء: ٣١]، لمن يريد أن يستزيد في هذا الموضوع.

ولقد ذكَر الكبائر وحصَرها ابن حجر الهيثمي في كتابه القيِّم: "الزّواجر في اقتراف الكبائر"، فلْيراجَع.

وفي التمييز بين الصغائر والكبائر، يقول شيخ الإسلام العزّ بن عبد السلام -رحمه الله- في كتابه "القواعد":

"إذا أردتَ معرفة الفرْق بين الصغائر والكبائر، فاعْرِضْ مفسدةَ الذّنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقلّ مفاسد الكبائر -أي: المنصوص عليها-، فهي من الصغائر، وإن ساوت أدنى مفاسد الكبائر أو أربَتْ عليها، فهي من الكبائر".

وقد ذكَر الإمام أبو حامد الغزالي حالات وقوع المعاصي:

الحالة الأولى: أن تكون مُنصرِمة، أي: ارتُكِبتْ وانتهى أمرْها.

فالعقوبة على ما تصرّم منها: حدٌّ أو تعزير؛ وهو إلى الوُلاة لا إلى الآحاد. أي: أن إقامة الحد الشرعي أو التعزير فيما ليس فيه حد أمْر يخصّ ولي الأمر أو من

ينوب عنه بنفسه، ولا يجوز لأحد من الأفراد عالِم أو غير عالِم أن يوقع العقوبة بنفسه، وإلا تنقلب الأمور إلى فوضى.

الحالة الثانية: أن تكون المعصية راهنة، وصاحبها مباشِر لها، كلبسه الحرير، أو إمساكه العود، أو تختّمه بالذهب؛ فإبطال هذه المعصية واجب بكلّ ما يمكن، ما لم تُؤدِّ إلى معصية أفحش منها أو مثلها. وذلك يثبت للآحاد من الرّعيّة. أي: أن الأفراد والمجتمع وولي الأمر مطالبون شرعًا بالحيلولة دون وقوع المُنكر، بشرط ألاّ يؤدِّي النهي والمنع إلى معصية مثلها أو أشدّ منها.

الحالة الثالثة: أن يكون المُنكَر متوقَّعًا، كالذي يستعدّ بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين، لِشُرب الخمر؛ فهو مؤهَّل لارتكاب المعصية، ولم يرتكبها بَعْد. فهذا مشكوك فيه؛ إذ ربما يعوقه عائق. فلا يثبت للآحاد سلطةٌ على العازم على الشرب إلاّ بطريق الوعظ أو النصح، فأمّا التعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ولا للسلطان، إلاّ إذا كانت تلك المعصية عُلمت منه بالعادة المستمرّة، وقد أقدم على السبب المؤدِّي إليها، ولم يبق لحصول المعصية إلاّ ما ليس له فيه إلاّ الانتظار.

فدرء هذه المفاسد والمُنكَرات لا يتمّ بالانفعال الموقوت، والعاطفة الجيّاشة، والحماس الأرعن، الذي قد يُفسد أكثر ممّا يصلح، ويضرّ أكثر من أن ينفع.

وإنّما الأمر يتطلب الرّوية وعدمَ الاندفاع. وينبغي دراسة ما يترتّب على الأمْر والنّهي، ومدى ردّ فعل العاصي: هل سيتسجيب من فوْره ويكفّ عن ارتكاب المعصية، ويُبدي أسفه وندمَه، أم سيُعاند ويُكابر وينتقل إلى فاحشة أشدّ؟ أم سيقاوم وسيعتدي على مَن يريد منْعَه، وقد يُلحق به الأذى.

وقد ساق القرآن الكريم قصة بني إسرائيل مع هارون # ، حينما ذهب موسى # لمناجاة ربّه واستخلف أخاه هارون على بني إسرائيل، فاتّخذوا العجل بحيلة صنَعها السّامري. فلمّا رجع موسى # ووجَد تغيّر قومه وانحرافهم، عَتب على أخيه وعنّفه لِعدم التّصدّي لِهذا المُنكر، فكان جواب هارون # هو خشيته أن يؤدِّي الإنكار إلى ضرر أشدّ، وهو: وقوع الفرقة والانقسام وإحداث الفتنة بين قومه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠، ١٥١].

ولقد جاءت سورة (طه) لتُكمل مشهد موسى # مع أخيه، وتعنيفه لِعدم مقاومة المُنكَر، وكيف أبدى هارون # وجهة نظَره في السّكوت. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ [طه: ٩٠ - ٩٤].

ففي هذه الآيات من سورة (الأعراف) و(طه) قواعد هامّة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. ومن هذه القواعد والتوجيهات ما يلي:

أولًا: للدّاعية أن يُبدي غيرته وغضبه وأسفَه على ما يُرتكَب من المُنكرات؛ وهذا ما فعلَه موسى # .

ثانيًا: عدم التّصدّي للمُنكَر إذا كان سيؤدِّي إلى ما هو أشدّ منه مُنكرًا؛ وقد برّر هارون # ذلك لسببيْن:

السبب الأول: أنّ القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه.

السبب الثاني: خشيته تفرّق بني إسرائيل، وحدوث شقاق وفتنة بينهم.

ثالثًا: أنه لا ينبغي للدّاعية أن يغمض عينه عمّا يدور حوله من المنكَرات، بل يجب عليه أن يكشف عن أضرارها وأخطارها؛ وهذا ما فعَله هارون # بالموعظة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾ [طه: ٩٠].

رابعًا: أنه في حالة خروج إزالة المُنكَرات عن قدرات الدّاعي وسلطاته، فلينتظرْ حتّى يأتي مَن هو أقدر منه ليتولّى الأمْر من واقع إمكاناته؛ وهذا ما فعَله هارون # حينما وجَد أنّ قدراته لا تمكِّنه من إزالة العِجل الذي اتّخذوه إلهًا، فانتظر حتى رجع موسى # من مناجاة ربه.

خامسًا: عدم التّسرّع في إلقاء اللّوم على الدعاة لتقصيرهم، دون الوقوف على أسباب هذا التقصير؛ فحينما استمع موسى # لأخيه هارون، وتبيّن له وجهة نظره، دعا الله له ولأخيه أن يغفر لهما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

سادسًا: ينبغي أن يُحافَظ على هيبة الدّعاة وعدم النَّيل منهم أمام الناس أو عبر وسائل الإعلام؛ حتى لا تسقط مكانتهم في المجتمع. وهذا ما أشار إليه هارون # بقوله لموسى # ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

سابعًا: عدم القيام بالدعوة في حالة الانفعال والغضب والثورة؛ وهذا ما فعَله موسى # . قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

بهذه التوجيهات المستخلَصة من الكتاب والسُّنّة وفِقْه السّلف من الأمّة، يستقيم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ويتمّ تحديد نوع المعصية، ومدى الآثار المترتّبة على الوقوع فيها، وهل هي أضرار فردية أم اجتماعية؟ وهل الضرر يقع على الدِّين أو على أمور الدنيا وسلامة المجتمع؟ حتى تتمّ المعالجة بالترتيب والتّدرّج.

إن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من القضايا الجوهرية المتعلِّقة بالدّعوة إلى الله، وإن لم يحسن الدّعاة معالجة هذه الأمور برويّة وتعقّل وتقدير للأمور، بميزان الشرع الحكيم، والتّفقّه في الدّين، والتّبصّر بأحوال المخاطَبين، والوقوف على حقيقة المعصية والدوافع التي تكمن وراء ارتكابها، فقد تحدث من الفتن التي قد تعصف بالمجتمع نتيجة المعالجة الخاطئة.

مراتب إنكار المنكر الذي فيه الاحتساب

لقد حدّد الإمام أبو حامد الغزالي حقيقة الفعل الذي يستوجب الإنكار، والشروط التي ينبغي توافرها فيه ليحكم عليه، وسوف نورد ما ذكره في إيجاز:

ما فيه الحِسبة: هو كلّ منكر في الحال، ظاهر للمحتسِب -المعيّن من قِبَلِ ولي الأمر-، بغير تجسّس، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد. وقد فصّل هذا التعريف متضمنًا **الشروط التالية:**

الشرط الأول: كونه مُنكَرًا، ونعني به: أن يكون محذور الوقوع في الشّرع. وعَدَلَ الشيخ أبو حامد عن لفظ "المعصية"؛ لأن المُنكَر أعمّ من المعصية لأنه يشمل الصغائر والكبائر.

الشرط الثاني: أن يكون المنكر موجودًا في الحال، وهو احترازٌ أيضًا عن الحسبة عمّن فرغ من شرب الخمر، فإن الإنكار لا يقوم به الآحاد من الناس، بل يقوم به المحتسب أو الداعي المعيّن من قِبَلِ الحاكم لأن المنكر قد انقضى وانتهى.

واحتُرز أيضًا عمّا سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقرينة حال أنّ الشخص عازم على الشّرب ليلته ولم يشرب بَعدُ، فالمحتسِب ليس له عليه إلاّ الوعظ. وإن أنكر هذا الشخص عزْمه على ارتكاب المنكَر، لم يجُز وعظه أيضًا؛ فإن فيه إساءة ظنٍّ بالمسلم، وربما صدق في قوله، وربما لا يقوم على ما عزم عليه لعائق مَنَعه.

الشرط الثالث: أن يكون المُنكَر ظاهرًا للمحتسِب بغير تجسّس؛ فكلّ مَن ستَر معصية في داره وأغلق بابه، لا يجوز التّجسّس عليه. ولقد نهى الله عن التّجسّس فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحُجُرات: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

يقول الإمام أبو حامد -رحمه الله-:

"فاعلمْ: أن مَن أغلق باب داره وتستّر بحيطانه، فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لِتعرف المعصية، إلاّ أن يُظهر المعصية في الدار ظهورًا يَعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير، أو صيحات السكارى؛ فهذا إظهار يوجب الإنكار والاحتساب فيه". ثم يذكر أنه إذا وجدنا فاسقًا يحمل قارورة خمر بين طيات ملابسه، فلا يجوز كشف ما تحته ثيابه.

وقد أُمرنا أن نستر ما ستر الله، وننكر على من أبدى لنا صفْحته، لورود حديث شريف في هذا المعنى.

الشرط الرابع: أن يكون منكَرًا معلومًا بغير اجتهاد؛ فكلّ ما هو في محلّ الاجتهاد فلا إنكار عليه ولا حسبة فيه. فليس للحنفي أن يُنكر على الشافعي أكْله الضب، والضبع، ومتروكَ التسمية، ولا على الشافعي أن يُنكر على الحنفي شُربه النبيذ الذي لا يُسكر، وتناوله ميراث ذوي الأرحام.

الصغائر والكبائر، ومراتب إنكار المنكر، وإزالته وضوابطه

عناصر الدرس

العنصر الأول	: وجوب معرفة الفرق بين الكبيرة والصغيرة	١٥٩
العنصر الثاني	: أسباب انتقال الصغائر إلى كبائر	١٦١
العنصر الثالث	: مراتب التصدي للمنكر وإزالته	١٦٣
العنصر الرابع	: حكم التغيير بالقلب، وبيان مظاهره	١٧٣
العنصر الخامس	: ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للحاكم المسلم	١٧٨

وجوب معرفة الفرْق بين الكبيرة والصغيرة

إنّ التّعرّف على حقيقة الذنب وحجْمه ودوافعه يُسهِّل الطريق للتّصدّي له ولإنكاره، بحيث يوجِّه الدّعاة لِكلّ مُنكَر ما يناسبه من طُرق الإنكار. وإنّ ممّا يعاني منه ميدان الدّعوة: التفرقة بين الصغيرة والكبيرة، وبين البدع الحقيقية والبدع الإضافية.

وسوف نحاول في هذا العنصر توضيح دوافع المعصية. وقد قسّمها صاحب "الإحياء" إلى أربع صفات:

الأولى: النزوع لصفات الربوبية -أي: الصفات التي يختص الله بها- مثل: الكِبْر، والفخر، وحب المدح، والثناء، والغنى، وحب دوام الثناء، وطلب الاستعلاء، حتى كأنه يريد أن يقول كما قال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. وهذا يتشعّب منه جملة من كبائر الذنوب.

الثانية: الصفات الشيطانية التي يتشعّب منها الحسد، والبغي، والحيلة، والخداع، والأمْر بالفساد، والمنكَر، ويدخل فيها: الفسق، والنفاق، والغش، والدعوة للبدع والضلالات.

الثالثة: الصفات البهيمية، ومنها يتشعب: الشّره، والتكالب، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج. ومنه يتشعب: الزنا، والشذوذ، والسرقة، وأكل مال اليتيم، وجمع الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السّبُعيّة، ومنها يتشعب: الغضب، والحقد، والتهجم على الناس بالضرب، أو الشتم، أو القتل.

ولقد وضَع الإسلام لكل معصية من تلك المعاصي العلاج الناجع لها، إمّا بالوعظ والوعد والوعيد، أو بإقامة الحدود في مستوجب الحدّ، أو التعزير فيما ليس فيه حدّ شرعي.

وتحديد الكبائر وحصْرها أمْر مختلَف فيه، لورود الآيات والأحاديث الكثيرة التي توضّح الأمور المنهيّ عنها. وموضع الاختلاف: نوعية النهي هل هو للحرمة أم للكراهة؟ هل فيه حدّ شرعي أم لا؟

وقد حصَرها بعض العلماء من خلال النصوص الدِّينيّة، وأقوال ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وغيرهم } في سبع عشرة كبيرة، وهنّ:

١. الشِّرك بالله.
٢. الإصرار على المعصية.
٣. القنوط من رحمة الله.
٤. الأمن مِن مَكْرِه.
٥. شهادة الزور.
٦. قذف المُحصَنات.
٧. اليمين الغموس.
٨. السِّحر.
٩. شرب الخمر.
١٠. المكر.
١١. أكْل مال اليتيم ظلمًا.
١٢. أكْل الرّبا.
١٣. الزنا واللواط.
١٤. القتل.
١٥. السرقة.
١٦. الفرار من الزحف.
١٧. عقوق الوالديْن.

ولقد جاءت بهذه الكبائر الآيات والأحاديث، وما عدا ذلك من الذنوب يُعتبر صغائر، أو ما أطلق عليها القرآن الكريم "اللمم" قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢].

أسـباب انتقـال الصـغائر إلى كبـائر

إن الصغائر قد تأخذ حُكم الكبائر إذا توفّرت فيها العوامل التالية:

أولًا: الإصرار والمواظبة على ارتكابها: ولذلك قيل: "لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، قال تعالى: ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ثانيًا: استصغار الذّنب: فإنّ الذنب كلّما استعظمه العبد من نفسه صغُر عند الله؛ لأن استعظامه يَصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له. وذلك النفور يمنع من شدّة تأثّره به، واستصغاره يصدر عن الأُلْف به؛ فعن ابن مسعود > قال: قال ﷺ: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا)) رواه البخاري.

ثالثًا: السّرور والفرح بالصغيرة، والتظاهر بها، والتّبجّح في اقترافها: فكلّما سُرّ العبدُ بالصغيرة كبُرت وعظُم أثرُها في تسويد القلب. قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطفّفين: ١٤].

وإنّ بعض العصاة يتبجّح بذنْبه ويفتخر به، كما يُسمَع ويُرى ويُقرأ في وسائل الإعلام عن عدم استحياء الفجَرة والفسَقة من الإعلان عن معاصيهم تحت شعارات كاذبة، كحُرّيّة الرأي أو الحُرِّيّة الشخصية.

رابعًا: أن يتهاون المُذنب بستر الله عليه، وحِلمه عنه، وإمهاله إيّاه: وهو لا يدري أنه إنما يُمهَل مَقتًا لِيزداد بالإمهال إثمًا، فيظنّ أنّ تمكّنه من المعاصي عناية

من الله تعالى، فيكون ذلك إثمًا لأمْنه مكْر الله وجهْله بمكامن الغرور بالله. قال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

قال تعالى موضحًا حال المتهاونين الذين انتابهم الغرور: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

وقد حذّر القرآن الكريم من تغرير الشيطان للإنسان وإغوائه، قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠].

خامسًا: أن يأتي الإنسان الذّنب ويستره الله، فيُظهره بأن يَذْكُره بعد إتيانه: أو يكرّر الذنب في موقع آخر؛ فعن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنْ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ)) متفق عليه.

سادسًا: أن يكون المذنب عالِمًا يُقتدى به:

فإذا فعلَه بحيث يُرى كِبر ذنبه وعظُمت معصيتُه، كمن يشترك من العلماء والدّعاة في بعض البدع والمنكرات، كموالد الأولياء، والطواف حول الأضرحة والقبور، وتقديم النذور لغير الله، فإذا كان حدوث ذلك من العوام والجهال يُتسامح فيه لسذاجتهم وجهلهم، فإنه لا يُتسامح في حقّ العلماء. قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

بهذا التّحديد الدقيق لكلٍّ من الكبيرة والصغيرة، وبالوقوف على الأسباب والدوافع تأتي المرحلة التالية وهي: إقدام الدعاة والمحتسبين على الجانب القولي والفعلي للتّصدّي للمنكرات وإزالتها.

مراتب التّصدّي للمُنكَر وإزالته

من الأسُس والقواعد التي يقوم عليها إنكار المُنكر وإزالته:

وقوفُ الدّعاة على مراتب التّصدّي له حسب إمكاناتهم وقُدراتهم، وأن يستطلعوا أو يعرفوا حالة مَن يقترف السيئات، ومدى تقبّله للتّوجيه والنّصح، وأن يتحسّب الداعية مدَى ردِّ فعْله: هل سيقبل الوعظ؟ أم سيُكابر ويعاند ويتبجّح بالمعصية؟ هل سيَردعه التّصدّي باليد؟ أم سيؤدِّي ذلك لفِتَن قد تكون أسوأ من ردْعه؟

ولقد وضع الرسول ﷺ مراتب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وبدأ ﷺ بأعلى الدرجات وأقواها، ثم تدرّج إلى الأدنى حسب الاستطاعة والتمكّن؛ قال رسول الله ﷺ: ((مَن رأى منكم مُنكرًا فلْيُغيِّرْه بيده. فإن لم يستطِعْ فبلِسانه. فإن لم يستطعْ فبقلْبه؛ وذلك أضعف الإيمان)) رواه مسلم.

وعن عبد الله بن مسعود > أن رسول الله ﷺ قال: ((مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)) رواه مسلم.

فمِن هذيْن الحديثيْن الشريفيْن، يضع الرسول ﷺ مراتب إنكار المنكر والتصدي له على النحو التالي:

المرتبة الأولى: التّغيير باليد:

وهي أقوى المراتب وأعلاها، وهذه لا تتيسّر لآحادِ الأمّةِ على وجهِ العموم. ولا بدّ من بيان التفصيل في هذا الأمر، لما له من أهمية في ميدان الدّعوة، ولِما ينتج عن عدم مراعاة ما أشار إليه ﷺ مِن فتن؛ ولذلك كان البدء بالتّغيير باليد لِمن يَقدر عليه وهم كالآتي:

أولًا: في محيط الأسرة، يتولّى التّغيير باليد:

- الوالدان على أبنائهما، إذا وجدا في الأولاد انحرافًا في السلوك، وانصرافًا عن الواجبات، وارتكابًا للمُحرّمات، ولم يُجْدِ معهم الترغيب والترهيب أو الوعد والوعيد. وهذا واجب عليهما، كقوله ﷺ: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص } قال: قال رسول الله ﷺ: ((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ)) رواه أبو داود وغيره، بإسناد صحيح.

- وكذلك للأخ الأكبر على أخيه الأصغر حقّ ممارسة التغيير باليد، ولكن لا يجب اللجوء للتغيير باليد إلا بعد استنفاد الطُرق الأخرى.

وهذا التغيير إمّا أن يُوجّه إلى أداة المعصية، كآلة الملاهي، أو كأس الخمر، أو غلْق التلفاز على من يشاهد مُنكرًا، أو يتّجه إلى الفاعل نفسه، فيتم إبعاده

بالحسنى، أو بالتهديد، أو بالضرب، حسب واقع الحال، ووفْق مروءة العاصي أو عدم مروءته، ومدى درجة استجابته.

ثانيًا: التغيير باليد حقّ لوليّ الأمْر، أو لِمن ينوب عنه، كالشّرطة أو المحتسِب. فمِن التّغيير باليد: إقامة الحدود على مَن خرج من شريعة الله، أو ارتكب معصية تستوجب حدًّا كالزنا، والسرقة، والغصب، وقطْع الطريق، وشُرب الخمر... إلخ.

وهذه إحدى المهام الرئيسة للحاكم: أن يحافظ على المجتمع ويؤمِّنه بإزالة المنكرات والتّصدي للمعاصي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ولقد مارس الأنبياء والمرسلون التغيير باليد حيثما تمكّنوا من ذلك، وحسب الجهد والطاقة. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

١. إبراهيم # حطّم الأصنام بحيلة تكشف سوأة القوم، وتفضح عبادتهم للأصنام. ونرى حِكمته ﷺ في إزالة المُنكَر؛ فهو لم يُعلن أنه عازمٌ على فِعْله، ولم يتحرّك أمام أعينهم؛ لأنه ليس معه من الجند والأعوان مَن يَحمونَه أثناء التنفيذ، بل اتّجه لتحطيمها بعد انصرافهم عنها، ووضَع الفأس على عاتق أكبر الأصنام؛ تمويهًا واستهزاءً لهم. قال تعالى مبيِّنًا ما فعَله إبراهيم # ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا

﴿بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧ - ٦٣].

فيُؤخذ من هذه الآيات جواز الاحتيال في إزالة المُنكر وفْق مقتضى الحال، وحسب الظروف التي تقدّر مدى التّصدّي وحجْمه.

٢. إقدام موسى # على إحراق العِجل الذي عبَده بنو إسرائيل، ونسفه في اليم نسْفًا. قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ [طه: ٩٧].

"اليم": البحر.

٣. الرسول ﷺ بعدما استتبّ له الأمر في المدينة المنورة بعد الهجرة، وتأسّست الدولة الإسلامية التي قامت على أسس ثلاثة: علاقة المسلم بالخالق ﷻ وتمّ ذلك من خلال بناء مسجدَيْ قباء ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ثم علاقة المسلمين بعضهم ببعض، وتم ذلك بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم إرساء العلاقة بين المسلمين وغيرهم، كالمعاهدة مع اليهود، ونصارى نجران، وغيرهم...

وتمّ ضرْب الكفْر ضربات موجعة قاتلة في أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها، وانكسرت شوكة الكافرين واليهود والمنافقين. وأصبح للإسلام قوّة ودولة وصوْلة وجوْلة. حينذاك تحوّل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والذي استمر بالقول فقط خلال مرحلة الدعوة في مكة، إلى التغيير باليد والإزالة بالقوة، ولم يكن

ذلك أمرًا مأذونًا به ومباحًا مِن قِبل أفراد المسلمين، ولكن كان يتمّ بأمْر الرسول ﷺ وبتوجيهاته، حتى لا تنقلب الأمور إلى فوضى.

والأمثلة على ذلك كثيرة نقتطف منها النماذج التالية:

١. بعد فتح مكّة المكرّمة، اتّجه ﷺ إلى الأصنام المحيطة بالكعبة المشرّفة وحطّمها بقضيب في يده قائلًا: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]. ودخل الكعبة المطهّرة وأزال ما فيها من تصاوير، وأرسل فرسان الصحابة { لإزالة الأصنام في أنحاء الجزيرة العربية. فأرسل المغيرة بن شعبة > إلى الطائف لهدْم صنم اللات، وكانت صخرة كبيرة بيضاء منقوش عليها، فهدمها وحرّقها. وبعث خالد بن الوليد > إلى نخلة بين مكة والطائف، حيث صنم العزّى الذي كانت قريش تعظِّمه وتقدِّسه من دون الله. أما مناة فكانت بين مكان اسمه القديد بين مكة والمدينة، فبعث رسول الله ﷺ عليًّا > فهدَمها. كما أرسله ﷺ إلى اليمن لإزالة ما بها من منكرات. فقد روى مسلم عن أبي الهيّاج، قال: قال لي عليٌّ: "ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ إلا تَدَعَ صورةً إلا طمَسْتَها، ولا قبرًا مُشرفًا إلا سَوّيْتَه".

ولقد تضمّن تغيير المُنكر وإزالته بالقوّة للأمور المتوقَّع خطرُها، درءًا للمفسدة وغلقًا لأبواب الفتن. ومن ذلك إقدام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب > على قطع شجرة بيعة الرضوان التي ذكَرها الله في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]. وقد قطَعها لمّا رأى الناس ينزلون عندها ويتبرّكون بها.

٢. ولقد كان ﷺ إذا رأى أمرًا مُنافيًا للعقيدة نهى عنه بشدّة، وأمَر بتَرْكه، أو نزَعه بيده؛ ومن ذلك ما روي عن عمران بن الحصين > : ((أن النبي ﷺ رأى رجلًا في يده حَلَقة من صفْر، فقال: ما هذا؟ قال: من الواهنة. فقال ﷺ: انزعْها! فإنها لا تزيدك إلا وهنًا؛ فإنك لو متّ عليها ما أفلحتَ أبدًا)) رواه الإمام أحمد بإسنادٍ لا بأس به.

الواهنة: عِرْقٌ يأخذ في المنكب وفي اليد كلّها فيؤلمها، وقيل: هو مرض يأخذ في العضد. وإنما نُهي عن الحلقة لأنها تميمة، ولأنه إنّما اتخذها على أنها تعصمه من الألم.

٣. وعن أبي بشير الأنصاري أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا: ((أن لا يُبْقِيَنَّ في رقَبة بعير قلادةً من وتَر إلا قُطِعتْ)) رواه الشيخان.

والوتر: واحد الأوتار القوس، وكان أهل الجاهلية إذا اخلوْلق الوتر أبدلوه بغيْره، وقلّدوا به الدواب اعتقادًا منهم أنه يدفع العيْن عن الدابة.

٤. وعن عبد الله بن عباس } : ((أن رسول الله ﷺ رأى خاتَمًا من ذهبٍ في يد رجل، فنزعه فطرَحه، وقال: يعمد أحدُكم إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده)). "فقيل للرجُل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خُذْ خاتَمك انتفِعْ به! قال: لا والله! لا آخذه أبدًا، وقد طرَحه رسول الله ﷺ" رواه مسلم.

فهذه الأمثلة وغيرها تفيد: أنّ الرسول ﷺ كان يغيّر المنكر بيده حينما تمكّن من ذلك خلال المرحلة المدنية، وقد كان يرسل من أصحابه لإزالة المنكرات، وأن الصحابة -رضوان الله عليهم- ما كانوا يقدمون على أمْر أو نهْي إلا بإذن لهم من الرسول ﷺ يأمرهم به؛ وهذا أكبر ضمان لمرتبة التغيير باليد، وحتى لا

تنقلب حياة الأمن إلى فوضى تؤدي إلى الفتن بسبب إقدام آحاد الأمّة غير المكلَّفين من قِبَلِ وليّ الأمر بالتصدي للمنكرات وإزالتها بالقوة، فهذا تكليف بما لم يكلَّفوا به، وتحميل للنفس فوق طاقتها. وقد يوردها موارد التّهلكة إذا تصدّى الإنسان للمنكرات والمعاصي دون قوة تحميه، أو قانون يُسنده، أو هيئة تشدّ من أزره.

المرتبة الثانية: التّغيير بالقول:

قال ﷺ: ((... فمَن لم يستطعْ فبِلسانه)).

إن التّغيير بالقول هو جوهر الدّعوة إلى الله والتي تقوم على:

١. التبليغ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢. التذكرة، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

٣. النصيحة، قال تعالى على لسان هود # لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٨].

٤. الوعظ، قال تعالى: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦].

كلّ هذه الألفاظ تنطلق من قول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

والتغيير باللسان له مراتب، ينبغي على الدعاة مراعاتها، وترتيب الأولويات؛ وهذه المراتب هي:

الدّرجة الأولى: التّعرّف، والمراد به: أن يعرف الدّاعي المُنكَر ويُحدّد موقعه وفاعلَه، دون تجسّس أو تتبّع؛ فلا ينبغي أن يسترق السّمع على دار غيره لِيعْلم ما يجري فيها من المنكرات، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه، فهذا ليس شأن آحاد الأمّة، إنما هذا يخصّ وليّ الأمر الذي يُخوِّل له الشّرع والقانون أن يتابع المنكرات ويتعرّف عليها بالتّتبع ونحوه.

الدرجة الثانية: التعريف، ويُقصد منه: تعريف مرتكِب المنكر بحقيقة جُرم ما ارتكبه، في أدب ولطف لاحتمال أنه فعَلَه لِجهل به، أو لكونه حديث عهد بإسلام، أو نشأ في قوم فشتْ فيهم البدع والخرافات. وإنما يجب على الداعية: أن يوضِّح الحُكم الشرعي فيما فعلَه، ويُرشده بالحسنى.

الدرجة الثالثة: النهْي بالوعظ والنصح والتخويف من الله تعالى؛ وهذا يتمّ في شأن مَن يعلم أن هذا منكَر، وأن فعْله إثم. ويذكر له آيات الوعد والوعيد، وينقل له مشاهد يوم القيامة وما فيه من أهوالٍ للعصاة.

وفي هذا المقام يُبدي الإمام أبو حامد الغزالي ملاحظة دقيقة يقول عنها: "وها هنا آفة عظيمة ينبغي على -مُنكِر المُنكَر- أن يتوقّاها؛ فإنها مُهلِكة، وهي:

أنّ العالِم يرى -عند التّعريف- عزّ نفسه بالعلْم وذلّ غيره بالجهل، فربما يقصد بالتعريف الإدلال وإظهار التمييز بشرَف العلْم، وإذلال صاحبه -أي: صاحب المنكَر- بالنسبة إلى خِسّة الجهل. فإذا كان الباعث هذا، فهذا المنكَر أقبح في نفسه مِن المُنكَر الذي يعترض عليه. ومثال هذا المُحتسِب مِثال مَن يخلِّص غيره من النار بإحراق نفْسه، وهو غاية في الجهل. وهذه زلّة عظيمة، وغائلة هائلة، وغرور

للشيطان يتدلّى بحبله كلّ إنسان، إلا من عرّفه الله عيوب نفسه، وفتح بصيرته بنور هدايته".

الدرجة الرابعة: التعنيف بالقول الغليظ واللفظ الحاد، دون تجريح وتفحّش في القول، أو تلاعن وسبّ بالكفر. ولقد ساق القرآن الكريم أدب الأنبياء حتى في شدّة حِدّتهم، وبيّن عفّة لسانهم وهم في قمة ثورتهم، فحكي عن إبراهيم # صورة تعنيفه بالقول، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

ولهذه المرتبة أدبان:

أحدهما: ألا يُقدم عليها إلا عند الضرورة، والعجز عن اللطف.

الثاني: أن لا ينطق إلا بالصدق، ولا يقول في المخالف إلا حقًّا ولا يدفعه إنكار المُنكَر أن يصفه بما ليس فيه.

بهذا النهج الإسلامي الراقي، وهذا الأسلوب المهذّب الفريد الرائد، يتناصح الناس فيما بينهم ويصبح كل مسلم مرآة لأخيه؛ قال ﷺ: ((المسلم مرآة أخيه)). يعظ كلّ منهم الآخَر في مودّة، وينبّهه إلى الأخطاء من غير عنف، ويُرشده بدون قسوة.

وإنه ممّا يجدر ملاحظته: أن كلمة ﴿ قُلْ ﴾، والمكوّنة من حرفيْن فقط، وردت في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمائة مرة، ممّا يشير إلى اعتماد الدعوة إلى الله على القول باللسان.

ولقد كانت فصاحة الرسول ﷺ وبلاغته وروعة بيانه، وحسن حديثه، لها الجانب الأكبر في الدعوة إلى الإسلام.

المرتبة الثالثة : التّغيير بالقلب :

كما قال ﷺ ((... فإن لمْ يستطِعْ فبقلْبه ، وذلك أضعف الإيمان)).

القلب في الإنسان هو مركز المشاعر والعواطف ، ومستودع الإيمان والكفر ، والحبّ والبغض ، وبتوقّفه تتوقّف الحياة وينتهي العمر.

ولقد ذكر رسول الله ﷺ : أنّ صلاح القلب هو صلاح للجسد كلّه ، وأن فساده فسادٌ للجسد كلّه ، فقال ﷺ : ((ألاَ إنّ في الجسد مضغة ، إذا صلحتْ صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدتْ فسَد الجسدُ كلّه ؛ ألا وهي القلب)).

والقلب يجلو بالطاعة ويصدأ بالمعصية ؛ فإذا ما التزم بالطاعة واستشعر حلاوة الإيمان وعظمة الإسلام ، ظلّ يقظًا وحارسًا أمينًا على كلّ ما يمتّ إلى الدِّين بِصلة ، وينفعل ويغضب إذا ما انتُهِكت حرُمات الله ، ويُصدر أوامره للحواس لتغيير المنكرات ، إما باليد ، أو اللسان. فإن لم يستطيعا المقاومة ، لضعف منهما أو لغلبة الباطل وكثرة جُنده ، وجب على القلب أن يشارك في معركة التغيير. فالمسلم لا ينسحب من ميدان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر مهزومًا ، ويتركه للعصاة والفسقة يعيثون في الأرض فسادًا ، بعد ما لم يجد التغيير باللسان أو باليد ؛ بل يجب عليه أن يظلّ يقاوم. وآخِر حصون هذه المقاومة هو : القلب ، كما قال ﷺ : ((... فإن لمْ يستطِع فبِقلْبه ، وذلك أضعف الإيمان)).

فلقد أسند الرسول ﷺ التغيير إلى القلب كتغيير اللسان واليد ؛ فالمسلم مطالبٌ شرعًا أن يتتبّع المُنكَرات ويكشف للمسلمين سوأتها ، ويظل يطارد المعاصي ويحافظ على حدود الله ، لا تفتر عزيمته ، ولا توهن قوّته ، ويستمر كذلك حتى آخِرِ رمق في حياته.
ولا ينبغي للمسلم أن يستهين بمقاومة القلب للمنكَرات ؛ فهو سلاح فعالٌ ومؤثّر في التصدي لها والقضاء عليها ، أو إضعافها ، إن أحسن استخدامه ، وأخلص الإنسان النية في الإنكار ؛ فإنه يحصل على فائدتيْن عظيمتيْن :

الفائدة الأولى: نيْل الثواب والأجْر من الله، على إخلاص النية في التّصدِّي للمنكَرات، قال ﷺ: ((إنّما الأعمال بالنِّيّات، وإنّما لِكلّ امرئٍ ما نوى. فمَن كانت هجْرتُه إلى الله ورسوله، فهجْرته إلى الله ورسوله. ومَن كانت هجْرتُه لِدنيا يُصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)) رواه الشيخان.

الفائدة الثانية: استمرار مقاومة المسلم للمنكَرات، وعدم تسرّب اليأس والقنوط من انتشار المفاسد وكثرة المعاصي، وملاحقة المنحرفين عقائديًّا وأخلاقيًّا، وتضييق الخناق عليهم، فيتوبون إلى الله، ويكفّون عن ارتكاب السيئات. فيتطهّر المجتمع من الدّنس، وتطهر القلوب والنفوس من الفواحش؛ فيعمّ الأمن والرخاء في المجتمع. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

حُكم التغيير بالقلب، وبيان مظاهره

معنى التغيير بالقلب:

هو إظهار المسلم عدم رضاه عن المعاصي. والقلب خير وسيلة للتعبير عن ذلك. وإن إبداء التأفّف والحنق والغضب على العصاة، الذي يكمن في القلب، ويضيق به الصدر، وتظهر آثاره على ملامح الإنسان وقَسمات وجهه، لهو اعتراض صامت، ولكنه يُشْعِرُ بعدم الرضا والارتياح من الشخص الذي يرتكب المُحرّمات، أو يهمل في أداء الواجبات. ويكون هذا شعورًا عامًّا ومظهرًا جماعيًّا، فتضيق الأرض بما رحبت على العصاة، ويشعرون بامتهان الناس لهم، وامتعاضهم من تصرفاتهم؛ فإمّا يتوبون إلى الله، أو يجدون ملجأ آخَر يمارسون فيه منكَراتهم بعيدًا عن ديار الإسلام.

حكم التغيير بالقلب:

التغيير بالقلب فرْض عيْن على كلّ مسلم ومسلمة، بخلاف حكْم اليد واللسان، فإنه يتفاوت بين فرْض العين وفرْض الكفاية، حسب مكانة وقدرات وصلاحيات القائم بذلك -كما سبق توضيحه-.

والقلب لا سلطان لأحدٍ عليه، إلا الله ﷻ ولا يطلِّع على ما يُضمره من حُبّ أو كُرْه إلا الخالقُ ﷻ. قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [المُلك: ١٣].

فليس لكائن بشريٍّ -مهما كان سلطانه وسطْوته وجبروته- القدرة على البحث عن النوايا، والتنقيب عمّا تحتويه القلوب وما تُضمره الصدور.

لهذا كلّه، تصبح إرادة التغيير بالقلب أمرًا مُستطاعًا، وفرضًا واجبًا على كلّ مسلم ومسلمة.

مظاهر التغيير بالقلب:

إن إنكار القلب للمنكرات له ملامح ومظاهر لا تخفى على كلّ ذي عقل سليم وفكر مستقيم؛ ومن هذه المظاهر ما يلي:

أولًا: أن يحول المرء بين قلبه وبين حبّ المعصية والرضا بها:

ويتم ذلك بأداء العبادات، والحرص على الطاعات، والمداومة على الذِّكر والاستغفار؛ فإنّ هذا يولِّد نفورًا من المعاصي، وكُرهًا للمنكرات؛ فتُسدُّ منافذُ الشيطان إلى القلب. فإذا حدث هذا، أصبح القلب أشدّ كرهًا وبغضًا للذنوب والآثام.

ويظهر هذا الغضب على قسمات وجْه المسلم، فيتأفّف ويتجهّم لرؤية العصاة، ويتجنّب اللقاء بهم والحديث إليهم؛ فيشعرون بنظرات الغضب تُلاحقهم، ويُحسّون بالوحدة والانعزال؛ فيكون هذا دافعًا قويًّا للتّوبة إلى الله والكفّ عن المُنكَرات.

ثانيًا: قطْع روابط الصِّلة والمحبّة بين المؤمنين وبيْن مُرتكِبي المُنكَرات:

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

فمصاحبة العصاة، وإلقاء المودّة إليهم، وإظهار الحبّ لهم يُشجِّعهم على مواصلة الفواحش والمنكَرات. وإنّ مِن أكبر عوامل الفساد في المجتمعات: إظهارُ الحفاوة والإعجاب بالفنّانين والفنّانات والمُمثِّلين والمُمثِّلات، الذين اشتهر عن الكثير منهم سوء الأخلاق وفساد السلوك. وإنّ إبراز مظاهر حياتهم المترفة اللاهية الماجنة عبر وسائل الإعلام، جعَل الكثير من الشباب والفتيات يحذون حذوهم، ويتمنّون أن يكونوا على شاكلتهم.

أمّا لو شعر هؤلاء أنّ الناس يمقتون أعمالهم، ويتأفّفون من سلوكهم، فتحنق عليهم القلوب، وتضيق بأعمالهم الصدور، لفكّروا كثيرًا في أحوالهم، ولأصلحوا أمورهم؛ ويكون هذا أجدى نفعًا مِن التّصدِّي لهم بالقول أو باليد، وأبعد عن إثارة الفتن.

ثالثًا: عدم الجلوس إليهم، ومقاطعة مجالسهم، والإعراض عن أنديتهم:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

ولقد بيّن القرآن الكريم: أنّ من أمارات عباد الرحمن: تجنّبهم لملاقاة العصاة، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣].

فالإعراض والابتعاد عن مجالِس السوء: تعبيرٌ حيٌّ ومُشاهَدٌ وملموسٌ عمّا يُبديه القلب من أمارات إنكار المُنكر.

ولقد ذكَر القرآن الكريم أنّ سبب إنزال اللّعنة ببني إسرائيل: سكوتهم ورضاهم عمّا كان يدور في مجتمعاتهم من منكرات، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

رابعًا: الشعور الاجتماعي العامّ بإنكار المُنكَر:

إنّ التغيير باللّسان أو اليد أمْر لا يتسنّى لكثير من الناس، لاختلاف ظروفهم، وتبايُن قُدراتهم العلميّة والفقهية، ومدى ما منح لهم من اختصاصات وصلاحيات لإزالة المنكرات. أمّا الإنكار القلبي فأمْر مشترَك بين المسلمين جميعًا، لا يحتاج إلى تفقّهٍ في الدِّين، أو إمعان النظر في الأدلّة الشرعية.

فالقلب ميزان دقيق وضَعه الله في صدر الإنسان، ليقوم بعمل مادِّيّ ملموس هو: ضخّ الدم إلى شرايين الجسد، ومدّه بالحياة والحركة. وبجانب هذا، أودع الله فيه ما يفرز الخير من الشر، والطاعة من المعصية، وهذا ما يسمَّى بـ"الشعور الفطريّ

السليم"، وهذا ما ذكَره الرسول ﷺ لِمَن سأله عن البِرّ؛ فعن وابصة بن معبد < قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فقال: ((جئتَ تسأل عن البِرّ والإثْم؟)) قلت: نعم. فقال: ((استفْتِ قلبَك. البِرُّ: ما اطمأنّتْ إليه النفْسُ واطمأنّ إليه القلب. والإثمُ: ما حاك في النّفْس وتردّد في الصدر، وإن أفتاك الناسُ وأفْتَوْك)) رواه أحمد والدارمي.

وفي رواية أخرى عن النواس بن سمعان < قال: قال ﷺ: ((البِرُّ: حُسْن الخُلُق. والإثم: ما حاك في نفْسك، وكرهْتَ أن يطّلعَ عليه الناس)) رواه مسلم.

فقلوب عباد الرحمن تتّحد في حُكمها على المُنكَرات، وتُجمع على بُغضها وكراهتها للفواحش، وإن لم تُعبِّر الأيدي والألْسنة على هذا؛ إذ إنّ واقع الحال والمشاهدة يُؤكِّده؛ ولذلك عُدّ إجماع الأمّة على أمرٍ ما هو اجتماع حقٍّ، لقوله ﷺ: ((لا تجتمع أمّتي على ضلالة)).

ولذا، فإنّ توحُّد القلوب على بُغض المنكرات وكُرْه فاعِلها، وإشعاره باحتقار المجتمع له وازدرائه به- لدافعٌ قويّ ومؤثِّر في تغيير المُنكَر. ويصبح هذا شعورًا عامًّا ومَظهرًا اجتماعيًّا ذا أثر فعّال في التغيير بالقلب، لا يقلُّ أهمّيّة عن التغيير باليد واللسان. ولهذا أضاف ﷺ الأمْر بالتغيير إلى الثلاث غير أنه ﷺ أضاف: أنّ الاكتفاء بالقلب دون الوسائل الأخرى يُنبئ أحيانًا عن ضعف الإيمان الذي يفِرّ من المواجهة، ويخشى من التّصدِّي باليد واللسان. وإن الإنكار بالقلب لا يُعفي من المساءلة إذا كان لدى الإنسان القدرة على المواجهة باليد أو اللسان. وفي نفس الوقت لم يُحرَم من ثواب الله، لبُغْضه المنكر وعجزه عن مقاومته؛ لأن هذا فوق طاقته وأكبر مِن قدراته.

فعن ابن مسعود < أنّ رسول الله ﷺ قال: ((ما من نبيٍّ بعَثه الله في أمةٍ قبْلي إلا كان مِن أمّته حواريّون وأصحابٌ يأخذون بسنّته ويقتدون بأمْره. ثم إنها تَخلُف مِن بعْدِهم خُلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون؛ فمَن

جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّةُ خردل)) رواه مسلم.

بهذا البيان النبوي المُعجز والمُبهر يوجِّه الرسول ﷺ الأمّة إلى مكامن الداء وموضع المرض الذي يكمن في:

١- قول بلا عمل ٢- فعْل ما لا يؤمرون به.

ثم بيّن ﷺ أنّ الدواء لِعِلَل المجتمعات وأمراضها، يكون ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم وضع ضوابطه ودرجاته ومراتبه ليتمّ ذلك كما أمر الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ضوابط الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر للحاكِم المسلم

إن قضيّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لِوُلاة الأمر، من الأمور المهمّة التي تشغل عقل وفكر المجتمعات الإسلامية، والتي ينبغي بيانُ حدودها وضوابطها في إطار الأدلّة الدِّينية والأحكام الشرعية.

وإنّ فقدان الموازين الشرعية في هذا الموضوع، يُؤدِّي إلى فتن تُضعف الأمّة، وإلى انقسامات تعصف بأمْنها، ولا سيما في هذا العصر الذي ابتعد فيه بعض الحكام من المسلمين عن توجيهات الإسلام في الحُكم، ووَلَّوْا وجوههم شطر الأنظمة الغربية. وممّا زاد الأمر نفورًا بين الرّاعي والرّعية، وزرع بذور انعدام الثقة بين العلماء والأمراء: التّوجّه العلماني لبعض المفكّرين والمثقّفين الذين تَربَّوْا على موائد التبشير والاستشراق والاستعمار، وشربوا من مستنقع الثقافة الغربية الإلحادية المادية حتى ثملوا، فترنّحت عقولهم؛ حيث أخذوا يحادّون الله ورسوله، وينالون من الحضارة والنظم الإسلامية، ولا سيما فيما يخصّ جانب

الحُكم في الإسلام. وقد مكّن لهم النفوذ الأمريكي والأوروبي على العالَم الإسلامي بالاحتلال العسكري لبعض أقطاره، والسيطرة الاقتصادية على مُعظمه، ومحاولة زعزعة الثوابت الإسلامية وإحلال الثقافة والأخلاق الغربية محلّها، فأخذ هؤلاء البوم والغربان يُطِلّون على الأمّة عبْر وسائل الإعلام، يثيرون الفِتن، ويشعلون نار الفرقة بين الأمّة وحُكّامها، مُنكرين في جهل وغباء أن يكون للإسلام دولة ذات نظامٍ مرتبطٍ بوحي السماء ورسالات الأنبياء، تُحقِّق للأمّة صلاح الدِّين وإصلاح الدنيا.

وضاق بعض الحُكّام بنصيحة العلماء والعقلاء من الأمّة. وغالى بعض الدعاة وقسَوْا في نُصحهم لوُلاة الأمْر، وتطاولوا عليهم، ونالوا منهم؛ فعظم الأمر، وجلّ الخطب، وتأجّجت نيران الفتن بخروج البعض، والنزوع للقتْل والتّخريب وترويع الآمِنين، وإهدار طاقات الأمّة. وما هذه الأحداث الدامية والمفجعة والمحزنة، التي روّعت أقطار العالَم الإسلامي، ومزّقت شعوبَه، وعصفت باستقلاله، وأهدرت قُدراته وثرواته، إلا بسبب الارتجال والتخبّط في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لِحكّام الأمّة، وعدم وضع الضوابط الشرعية لها. وهذا ما يجب علينا توضيحه؛ إبراءً للذّمّة ونصحًا للأمة، وفقًا لأعْيُن كلِّ مَن يتطاول على الإسلام وشرائعه ونُظمه. وسوف يتناول هذا العنصر الموضوعات التالية:

أوّلًا: الإسلام دين ودولة:

وهذا أمْر يَفْرضه الدِّين، ويوجبه العقل والمنطق، للأسباب التالية:

١. تنظيم العلاقات بين البشَر، ووضْع الأُطُر الشرعية والقانونية للحقوق والواجبات، والمحافظة على قواعد الدِّين، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يوجب وجود دولةٍ قويّة على رأسها حاكم مرهوب الجانب، ليِّنًا في غير ضعفٍ، قويًّا من غير قسوة وغلظة.

٢. حماية الثغور، والمحافظة على سلامة الوطن وأمنه، وتدبير المسكن والمأكل والمشرب من خلال عملٍ شريف تُدبِّره الدولة لأبنائها، يوجب قيامَ حكومة قويّة على رأسها حاكم أمِين على رعيّته، يحكم بالحق، ويقيم العدل. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

٣. تنمية موارد الأمّة، والمحافظة على ثرواتها بإقامة المصانع واستصلاح الأراضي، وتعبيد الطّرُق وتوفير الخدمات التعليمية والعلاجية، والقضاء على الثالوث البغيض (الجهل – الفقر – المرض) يوجب وجودَ دولة موطّدة الأركان، قويّة الدعائم.

٤. إقامة العدل بين الرعيّة، وإعطاء كلّ ذي حق حقّه، وذلك بإنصاف المظلوم وردْع الظالم كما قال أبو بكر الصديق > حين تولّى الخلافة: "القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخُذ الحقّ منه، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخُذ الحقّ له".

٥. إقامة أركان الإسلام الخَمْس والتي حدّدها ﷺ في حديث ((بُني الإسلام على خَمْس))، وذلك بتوفير أماكن للعبادة، وتأمين المسلمين في أدائها، وردْع المُقصِّرين والمتكاسلين عنها، وجمع الزكاة وتنظيم مواردها ومصارفها، مما يوجب جهازًا حكوميًّا يُديره خبراءُ أمناء ثقات، كما قال يوسف # لعزيز مصر: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

وكما وصفت ابنة الرّجل الصالح موسى # في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

٦. صيانة وحماية ضروريّات الإسلام الخمْس (الدِّين – النّفْس – العقل – النّسل - المال) ووضْع التشريعات والنّظم التي تكفل ذلك وتحقّقه.

هذه الأمور مجتمعة تستوجب وجودَ حاكم يترأّس جهازًا حكوميًّا يحقّق ذلك، في إطار المحافظة على ثوابت الأمّة عقيدة وشريعة، مع الأخذ بالأساليب العلّميّة والتقنية التي تساعد على ذلك.

ثانيًا: كيفيّة اختيار الحاكِم في الإسلام:

لم يضع الشّرع الإسلامي طريقةً مُعيّنةً ومُحدّدة يتمّ من خلالها اختيار الحاكم، ولكن تُركت لِما يتّفق عليه المسلمون حسب ظروف كلّ عصر وبيئته. فلقد تمّ اختيار أبو بكر الصدّيق > من خلال بيْعة عامّة في مسجد الرسول ﷺ بعدما حُسم الأمر في سقيفة بني ساعدة. وعَيّن > عمرَ بن الخطاب > بعد مشورة كبار الصحابة. وقد جعَل عمرُ الخلافة من بعدُ في سِتّة نفَر مِن صحابة رسول الله ﷺ على أن يختاروا أحدَهم، ووضَع لهم ضوابط دقيقة للاختيار. ولقد تمّ اختيارُ عثمان بن عفان > وتمّت بيْعة عامّة بعده لعليّ بن أبي طالب > .

ثم حدث ما حدث مِن تحوّل الحُكم بعده مُلكًا يُتوارث خلال الدولة الأموية والعباسية. ثم انقلب الأمْر أحيانًا، فوثب على سدّة الحُكم بالقوة كما كان يحدث خلال حُكم المماليك قديمًا والانقلابات العسكرية حديثًا. ولقد رضيت الأمة إن طوعًا أو كرهًا بهذه الأنواع، إذ إن المقصد والهدف والغاية: أن يتحقّق العدل،

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

ولقد وضع الإسلام الشروط التي يجب توافرها في وليّ الأمر، وعلى أساسها يكون تعيينه واختياره. ومن هذه الشروط:

١. الإسلام.

٢. العلْم.

٣. الخبرة السياسية.

٤. العدالة.

٥. الشجاعة.

٦. سلامة الحواس والأعضاء.

٧. الذّكورة.

٨. أن يتعهّد بمشورة أولي الرأي، أو ما يُطلق عليهم: "أهل الحَلّ والعقْد". ولم يُحدِّد الإسلام طُرق اختيارهم، فقد ترَكها حسب ظروف الزمان والمكان، ولكن وضع شروط اختيارهم وهي:

أن يكونوا من أهل العلْم والخبرة، ومشهود لهم بالاستقامة وحسْن الرأي.

فإذا ما تمّ الاختيار والبيْعة، أصبح للراعي والرعية حقوق وواجبات.

ثالثًا: حقوق وليّ الأمْر في الإسلام:

وضَع الإسلام لولِيّ الأمر حقوقًا يجب على الأمّة الالتزام بها، وعدم الخروج عليه، إلا في حالة قيامه بأمْر يُنافي العقيدة، أو يضرّ بمصالح الأمّة. ومن هذه الحقوق ما يلي:

١. **وجوب طاعته فيما ليس بمعصية**، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩].

وروي عن ابن عمر } عن النبي ﷺ قال: ((على المرء المسلمِ السّمْعُ والطّاعة فيما أحبّ وكَرِهَ، إلا أن يُؤمر بمعصية، فإذا أمِرَ بمعصية فلا سمْعَ ولا طاعة)) متفق عليه.

وعن أنس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((اسمَعُوا وأطيعوا، وإن استُعمِل عليكم عبْدٌ حبشيّ كأنّ رأسَه زبيبة)) رواه البخاري.

٢. **حرمة نقض بيْعته أو العمل على خلْعه**، فعن ابن عمر } قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((مَن خلع يدًا من طاعة لقِيَ الله يوم القيامة ولا حجّة له. ومن مات وليس في عُنقه بيْعة مات ميتة جاهلية. ومن مات وهو مفارق للجماعة مات ميتة جاهلية)) رواه مسلم.

٣. **عدَم إهانته بالقول أو الفعل**، فعن أبي بكرة > قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((مَن أهانَ السلطان أهانَه الله)) رواه الترمذي وقال: "حديث حسن".

٤. **أن يختار الوزراء الصالحين من أهل الخير**، كما ينبغي أن يحوط نفسَه بالرِّجال المخلصين ذوي الحكمة، والرأي السديد، والخبرة الفائقة.

فعن أبي سعيد وأبي هريرة } أن رسول الله ﷺ قال: ((ما بعث الله من نبيّ ولا خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمُره بالمعروف وتحضّه عليه، وبطانة تأمُره بالشر وتحضّه عليه؛ والمعصوم من عصمه الله)) رواه البخاري.

إلى غير ذلك من الحقوق التي بسطتْها كتبُ الفقه.

رابعًا: ما يجب على وليّ الأمر نحو رعيّته:

١. الحُكم بالعدل: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ ﴾ [النساء: ٥٨].

٢. الرِّفق بالرّعيّة وبذل غاية الجهد لتحقيق ضروريات الحياة لها: فعن أم المؤمنين عائشة < قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: ((اللهم من ولِيَ مِن أمْر أمّتي شيئًا فشقّ عليهم فاشقُقْ عليه، ومَن وَلِيَ مِن أمْر أمّتي شيئًا فرَفق بهم فارفُق به)) رواه مسلم.

٣. عدم التّعالي والاستبداد والاحتجاب عن الرعية، قال ﷺ: ((من ولاّه الله شيئًا من أمور المسلمين، فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم، احتجب الله عنه دون حاجته وخلّته وفقره يوم القيامة)) رواه أبو داود والترمذي.

٤. أن يعمل بالشّورى، ويأخذ برأي أهل الحلّ والعقد، قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

فقد ذكر الله ﷻ الشورى في سياق الآية بين ركنيْن من أركان الإسلام: الصلاة والزكاة، ممّا يدل على أهميّتها ووجوب الالتزام بها.

٥. أن يتقبّل النصيحة، وأن يعمل بها إذا كانت لصالح الدِّين والدنيا، قال ﷺ: ((الدِّين النّصيحة)) فقال أصحابه: لِمَن يا رسول الله؟ قال: ((للهِ، ولِكتابه، ولِرسوله، ولأئمّة المسلمين وعامّتهم)) رواه مسلم.

وهذا ما وضعه أبو بكر > في أوّل خطبة له حيث قال: "أيها الناس. إني قد وُليتُ عليكم ولستُ بخيركم؛ فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني..." إلى آخر الخطبة.

حتى قال: "أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

وبهذه الخطبة الرائعة العظيمة وضع أبو بكر الصديق > المعالم الواضحة للحُكم في الإسلام.

٦. **على الرعية -ولا سيما العلماء-: أن يقوموا بالنّصح** بالقول أو بالكتابة لولي الأمْر، حسبما أمر به الله في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولقد بيّن الرسول ﷺ الحدود والأطر التي ينبغي أن يتحرّك فيها العلماء والدّعاة للتعامل مع أُولي الأمر؛ فعن أم المؤمنين أم سلمة > عن النبي ﷺ قال: ((إنه يُستعمَل عليكم أمراء، فتعرفون وتُنكرون. فمَن كره فقد برئ، ومَن أنكر فقد سَلِمَ، ولكن مَن رضي وتابع)). قالوا: أنقاتلهم، يا رسول الله؟ قال: ((لا، ما أقاموا فيكم الصلاة)) رواه مسلم.

ومعنى الحديث الشريف: مَن كَرِه بقلبه ولم يستطع إنكارًا بيدٍ ولا لسان، فقد برئ من الإثم. ومَن أنكر بحسب طاقته فقد سلِم من المعصية. ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي.

ولقد نهى ﷺ عن منازعة الحاكم، والخروج عليه، فقال ﷺ فيما رواه عبادة بن الصامت: ((بايعَنا رسولُ الله على السمع والطاعة، في العُسر واليُسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا نُنازع الأمْرَ أهلَه، إلا أن ترَوْا كُفرًا بواحًا عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنّا، لا نخاف في الله لومةَ لائم)) متفق عليه.

٧. **يجب على الحاكم أن لا يضيق ذرعًا بحرية الرأي**، ما دامت في إطار الشّرع وحدوده، وطالما كان المقصد منها الصالح العامّ، وأن يتّسع صدرُه للنّقد البنّاء والتوجيه السديد والرأي الرشيد.

بهذا التوافق والتعاون، والاحترام المتبادل بين الرّاعي والرّعيّة، وسعة الصدر والحِلم في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، تستقيم سفينة المجتمع المسلم، وتنجو من العواصف والأنواء والأحداث التي تكاد تفرّقها.

ويتمّ التلاحم والترابط والرضا بين الحاكم والمحكومين؛ فعن عوف بن مالك > قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ قَالُوا: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)) رواه مسلم.

بهذا نُنهي القول في أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عناصر الدرس

العنصر الأول : أسلوب التعليم والتفقيه ١٨٩

العنصر الثاني : تقوية الإيمان، واستثمار الوازع الديني، والموعظة الحسنة ١٩١

العنصر الثالث : التأليف والستر، واستثارة العواطف والمشاعر، وإيقاظ دوافع الحمية والغيرة ١٩٤

أسلوب التعليم والتفقيه

إنّ الإنسان بفطرته ينزع إلى العلْم ويميل إلى المعرفة، وكلّما زاد الإنسان علْمًا اتّسعتْ أمامه سُبلُ الطاعة، وضاقت أمامه فُرص المعصية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وإن كثيرًا ممّن ضلّ بهم الطريق، أو تهاونوا في القيام بالطاعات والتزام العبادات، يكون الجهل بالدِّين وعدم تقدير جُرم المعصية وعظم عقابها سببًا لضلالهم؛ وذلك بسبب الأمور التالية:

١. إهمال الأسرة لِغرس ينابيع الخير ونزْع بذور الشرِّ في الأبناء.

٢. النظام التعليمي في كثير من أقطار العالَم الإسلامي الذي يهتمُّ بالعلوم العلْمية عن العلوم الشرعية، وما بقي من أقطار تُولي اهتماماتها بعلوم الشريعة والثقافة الإسلامية تواجه من دوَل الغرب والشرق ضغوطًا رهيبة لتغيير مناهجها الدّينيّة تحت مزاعم مكافحة الإرهاب.

٣. المناخ الاجتماعي الذي بدأ ينحو ناحية السلبية والأنانية والأثرة بأفراده، حتى أصبح الترابط الاجتماعي من خلال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر قد خفَتَ صوته وضعف توجيهه تحت مُسمّى الحرية الشخصية، ممّا أفقد المجتمع المسلم أكبر عوامل انضباطه وصوْنه عن المنكَرات؛ فأصبح الجهل بالدِّين ليس جهل أفراد، ولكن أصبح جهل شعوب، تشاغلت عن تفيهم دينها والتفقه في أحكامه، بسبب ظروف الحياة الاقتصادية والسياسية وغيرها من القضايا التي صَرفت الناس عن العلْم وتعليم الدِّين، فعمّت المعصية مع تفشِّي الجهل بالدِّين.

٤. أجهزة الإعلام ودوْرها الترفيهي والعبَثي الذي كاد يُنسي الناس دِينَهم، هذا بجانب التّوجّه العامّ نحو التّرف والتّمتّع بلذائذ الحياة وشهواتها، حتى أصبح شاغل الجمّ الغفير من المسلمين هو الحصول على شهوتَي الأكل والجنس. وأصبح هذا التوجيه الخطير يأخذ جانبًا كبيرًا من حياة المسلمين، وجزءًا ضخمًا بين مواردهم المالية؛ فلم يعد لديهم الوقت للجلوس إلى كتاب من كُتب الدِّين أو تدبّر آية من كتاب الله، أو حديث من أحاديث رسول الله ﷺ إلى غير ذلك من الأسباب والعوامل التي عملت على تفشّي الجهل الدِّيني، ممّا ساعد على ارتكاب المعاصي.

لذا، يجب على الدّعاة قبل أن يَقسوا في الموعظة، ويعنّفوا المقصِّرين، ويحملوا بغلظة على العاصين: أن يبدءوا بالتعليم، وتبصير الناس بأحكام الشرع، وبالعقوبات في الدنيا والجزاء الأليم في الآخرة، لِمن قصّر وأهمل أو عاند واستكبر. ويتمّ ذلك على مستوى اللقاء الفردي، بحيث يتّجه الدّاعي إلى الفرد الذي يرى فيه عدم التّقيّد بالدِّين والتغافل عن أداء العبادات، بالتقرب إليه والتّعرّف عليه. ثم يعلّمه في لين ورفْق، وصبر وأناة. يُبيِّن له عظم ثواب الطاعة وآثارها في الدنيا والآخرة، ويكشف له عن خطر المعصية، وجزاءها الأليم، وعواقبها في الدنيا والآخرة. وعليه أن يقتفي أثر الرسول ﷺ في دعوته إلى الناس أفرادًا وجماعات، بالرسائل أو بالكتب.

ويكون التعريف والتعليم على مستوى جماعة المسلمين، من خلال خُطب الجمعة أو الدروس في المساجد.

وهناك ميدان كبير يغفل عنه الدّعاة ولا يلتفتون لأهمِّيّته، وهي أماكن تجمّع الشباب في الأندية الرياضية، والمنتديات الثقافية، والتّجمّعات العُمّالية في

المصانع؛ فينبغي على الدّعاة أن يذهبوا إلى تلك الأماكن، ويُبصّروا العاملين فيها بأحكام الإسلام وحدود الدِّين، ويَدْعونهم إلى المعروف وينهَوْنَهم عن المنكر، ويكشفون لهم عمّا ابتُدِع في الدِّين من أمور قد يظنّها البعض عبادات وهي ليست منه. وهذا هو الخير الذي وجّه إليه ﷺ حيث قال: ((مَن يُرِدِ الله به خيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّين)).

تقوية الإيمان، واستثمار الوازع الديني، والموعظة الحسنة

الإنسان يحمل بين حنايا صدره وجوانب نفْسه دوافعَ الخير ونوازع الشرّ، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].

فلا يوجد شخص على خير مطلقًا، أو في شرٍ مطلقًا. ولقد أودع الله في قلب الإنسان ميزانًا يَزِن به الخير من الشر، قال ﷺ: ((البِرُّ: ما اطمأنّت إليه النّفْس. والإثم: ما حاك في صدرك، وكرِهتَ أن يطّلع عليه الناس)).

فيجب على الدّعاة أن يستثمروا جوانب الفطرة النّقيّة في الإنسان، والتي يولد كلّ إنسان مجبول عليها، كما قال ﷺ: ((كلّ مولودٍ يولَد على الفطرة؛ فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانِه)).

يجب أن يعمل الدّاعية على تقوية الوازع الدِّيني في الشخص الذي أمامه، ويتعهد ما لديْه من بقية صلاح أو مروءة بالعناية والرعاية، كما يتعهّد الإنسان الزرع الأخضر الصغير لينمو ويكبر، ويقضي على ما حوله من شجر خبيث. وليْبدأ بِمَنْحه الثقة والاعتزاز بما لديْه من بعض صفات الخير فيُقوِّيها، فكلّما قويت تضاءلت في نفسه نوازعُ الشّرّ، وضمرت مسالك المعصية، وسُدّت منافذُ الشيطان.

فإذا ما أحسّ ببرْد الطاعة في نفسه، وحلاوة الإيمان في قلبه، ووازن بين ما كان عليه من حياة قلِقة، وتردّد بين الطاعة والمعصية، وتجاذب بين الخير والشر، وبين ما هو عليه الآن بعد تثبيت وتقوية ما عنده من ينابيع البِرّ في نفسه، وإشعاره بأنّ التوبة تجُبُّ ما قبلها، وأنّ الله يفرح بتوبة عبده المؤمن، كما قال ﷺ: ((للهُ أفرحُ بتوبة عبْدِه حين يتوب إليه مِن أحدِكم؛ كان على راحلته بأرض فلاةٍ، فانفلتتْ منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها. فأتى إلى شجرة فاضطجع في ظلّها، وقد أيس من راحلته. فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدّة الفرح)) رواه مسلم.

وممّا يقوّي الإيمان ويُثبِّته في القلوب، ويضعف الشر وينزعه من النّفْس: الأمور التالية:

١. الحرص على أداء العبادات، والتوبة والاستغفار على ما فرّط في جنب الله.

٢. كثرة الدعاء، ولا سيما أدعية الرسول ﷺ. وفي كتاب (الأذكار) للإمام النووي ما يفي بالغرض.

٣. التّأمّل والنظر والتّفكّر في آيات الله في الأنفس والآفاق، ليشعر بعظمة الله، ويخشى من عقابه فيفرّ من المعاصي ويلجأ إلى الله. قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

الموعظة الحسَنة:

الوعظ هو أحَد أساليب الدّعوة إلى الله الرئيسة، قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهذه الآية الكريمة أصْل عظيم من أصول الدّعوة إلى الله ؛ فهي تدْعوه إلى الحِكمة في القول، واللّين في الخطاب، وأدب المجادلة، وسعة الصدر، والإنصات إلى آراء الآخَرين من غير ذمّ وتقريع وتوبيخ، والتوجيه والإرشاد والتذكرة، مستعينًا بالله، وبأساليب خير الكلام من القرآن الكريم وهدْي الرسول ﷺ ويتخلّله قصص الأمم البائدة، وأحوال الشعوب المعاصرة. يتنقّل به من موعظة إلى أخرى، ويسوق له الدليل تلو الدليل، يُرغّب ويُبشّر إذا كان يُجدي، ويُنذر ويُحذّر إذا كان ينفع. يصف الجنّة ونعيمها، والنار وأهوالها. ويكون لدى الدّاعي من روعة الحديث، وحسْن البيان، ودقّة التعبير، ما يحمل السامع على الاقتناع بالموعظة، والانتفاع بالتّذكرة.

ولقد كان الرسول ﷺ المَثَل الأعلى في استمالة النفوس والتأثير على القلوب، والوصول إلى المشاعر والعواطف، بحُسْن الحديث وأدب الموعظة.

وعلّم أصحابه كيف تكون الدّعوة إلى الله.

روى ابن الجوزي -رحمه الله- قال: "مرّ أبو الدرداء > على رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبّونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مُستخرجيه؟

قالوا: بلى، قال: فلا تسبّوا أخاكم، واحمدوا الله ﷻ الذي عافاكم.

قالوا: أفلا تُبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي".

وعلى الدّاعية ألا يُثقل بالموعظة، حتى لا يَسأم الناس مِن كلامه، ويَثقل عليهم حديثُه. وهذا من أدب الرسول ﷺ، كما جاء في قول أصحابه: "كان ﷺ يتخوّلنا بالموعظة، مخافة السآمة علينا" أي يُخفّف فيها.

ولذا، فإن أكبر خطبة لرسول الله ﷺ وهي خطبة الوداع لا تتجاوز عدّة دقائق، ولكنها خرجت من أطيب فم وأطهر لسان، وأحسن حديث وأروعه، فتشربتها النفوس كما تروى من الظمأ، واستقرت في عقلها وقلبها تُردِّدها الأجيال ويرويها التاريخ.

قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣].

التأليف والستر، واستثارة العواطف والمشاعر، وإيقاظ دوافع الحمية والغيرة

أولًا: التأليف:

على الدّاعية أن يجذب إليه النفوس، بطلاقة الوجْه، وحُسْن المظهر، وجمال الخُلق، وأن يكون في دعوته مِن دُعاة التآلف والوحدة؛ يتألّف الناس بالكلمة الطيبة، وبالعطاء إن أمكن ولو قليلًا. ولقد تألّف رسول الله ﷺ صناديد قريش وقُساتها؛ فحينما أشار عليه عمه العباس بن عبد المطلب أثناء فتح مكة، وقال له: "إن أبا سفيان رجل يحبّ الفخر، فأعْطه شيئًا". فقال ﷺ: ((مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمِن))، فتألّفه بهذا. وحينما أعطى المؤلَّفَة قلوبهم عقِب فتح مكة عطاءً سخيًّا، ممّا جعلَهم يخلعون كلّ صلة لهم بالكفر، ويصبحون حماةً للإسلام.

ومن صوَر التآلف التي نضعها أمام أعين الدارسين والدّعاة: ما روي عن سعد بن أبي وقاص > قال: أعطى رسول الله ﷺ رهطًا، وسعد جالسٌ. فترك رسول الله ﷺ رجلًا هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله، ما لَك عن فلان؟

فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال: أوَمسلمًا؟ ثم غلبني ما أعلم منه، فعُدتُ لمقالتي، فقلت: ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال: أوَمسلمًا؟ وظلّ يُردِّد ذلك. ثم قال رسول الله ﷺ: ((يا سعد، إني لأعطي الرجلَ وغيرُه أحبّ إليّ منه، خشية أن يُكبَّه الله في النار)) متفق عليه.

وعن أنس >، قال: "كان الرّجُل يأتي النبي ﷺ فيُسلِم لشيء يُعطاه من الدنيا، فلا يُمسي حتى يكونَ الإسلام أحبّ إليه وأعزّ عليه من الدنيا وما فيها". رواه الإمام أحمد في مسنده.

وصوَر تآلف الرسول ﷺ لأصحابه تعطّر سيرته الحميدة.

ثانيًا: السِّتْر:

فهذا خُلُق إسلامي رفيع، يصون الأعراض، ويحفظ المجتمعات، ويقطع ألْسنة الفتن، ويرأب صدع المجتمع، ويسدل على المعصية غطاءً، فلا تنكشف سوأتها، ولا تفوح رائحتها الخبيثة في المجتمع. وهناك فرق كبير بين السّتْر على الجريمة، وبذْل الوسائل لعدم اكتشافها، وتمكين مُرتكبيها من الفرار من وجه العدالة، وبين السِّتْر على هفوات البعض الذين يرتكبون الذّنْب لأوّل مرة، وقد يقعون في أخطاء لظروف أحيطت بهم أو فُرضت عليهم؛ فهذه أحوال تُترك لوجهة نظر الدّاعية حيث يُقدّر الظرف الذي ارتُكِب فيه الذّنب، ويرى أيهما أفضل: السِّتر أم الإعلان والتشهير؟

ولقد كان السِّتر أسلوبًا من أساليب الرسول ﷺ في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. والأمثلة كثيرة وعديدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

ما روي عن أنس بن مالك > قال: كنتُ عند النبي ﷺ يومًا فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ حدًّا فأقِمْه عليّ! قال: ولم يسأله عنه. قال: وحضرت الصلاة فصلّى مع النبي ﷺ. فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام إليه

فقال: يا رسول الله. أصبتُ حدًّا فأقِمْ فيَّ كتاب الله! قال ﷺ: ((أليس قد صلّيتَ معنا؟ قال: نعم. قال: فإنّ الله قد غفر لك ذنبك - أو قال: حدّك)) متفق عليه.

ولقد أشار ﷺ على السّتر على ذوي المروءات هناتهم، فقال: ((أقيلوا ذوي الهيئات عثَراتهم، إلاّ الحدود)) رواه الإمام أحمد.

ضوابط التّستّر:

وللتّستّر ضوابط وأمور يجب أن تُراعى، ومن ذلك:

١. أن يترجّح في الظّن إقلاعه عن المعصية بعد انكشاف أمْره والتستر عليه.

٢. أن لا يترتّب على السّتر مفسدة شرعيّة.

٣. أن لا يكون السّتر خشية مِن جاهه أو منصبه.

٤. أن يكون كشْفه سببًا في فتن يبلغ ضررها أشدّ من فضْح أمْره.

٥. أن لا يكون الأمر قد وصل إلى الحاكم، فإذا ما وصل فلا شفاعة ولا ستْر، لقوله ﷺ: ((تعافَوا الحدود فيما بينكم، فمن بلغني حدّه فقد وجب)).

ثالثًا: استثارة العواطف والمشاعر، وإيقاظ دوافع الحميّة والغيرة:

كثير من الناس حينما يفعلون المنكَرات ينسوْن أنفسهم، ولو فعَل ما فعلَه من منكر أحدُ أبنائه أو زوجتُه لغضب وثار، وربما أوقع الأذى بمن فعَل ما يرتكبه هو؛ لأن الغفلة والنسيان سبب من أسباب ارتكاب المعاصي، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

ولذلك، فإنّ من واجب الدّعاة أن يستثيروا المشاعر، ويستجيشوا العواطف، ويوقظوا دوافع الغيرة والحميّة والمروءة؛ فهذه أمور نظرية في الإنسان تحتاج إلى مَن يوقظها مِن غفْلتها ويحرّكها من سباتها العميق.

وتاريخ الدعوة الإسلامية يشهد بأن إثارة العواطف وبثّ الحماس والغيرة ينقل الإنسان من الضد إلى الضد ؛ ومن ذلك ما حدث في إسلام حمزة بن عبد المطلب. فقد كان على دين قومه ، وفي عودته من رحلة الصيد قالت امرأة له ما فعله أبو جهل بالرسول ﷺ فأخذتْه الغيرة والحماس ، وذهب إلى أبي جهل وهو في وسط أكابر قريش ، فضربه بالقوس فشجّه ، وقال : أتسبّه وأنا على دينه؟ وكان هذا سببًا في إسلامه.

ومن ذلك : ما كان من عمر بن الخطاب < حينما أخذ سيفَه قاصدًا قتْل الرسول ﷺ وقابَله رجُل وقال : إلى أين يابن الخطاب؟ قال : أقْتُل مَن عاب ديننا وسبّ آلهتنا. فقال : ارجعْ إلى أختك فاطمة وزوجها ، فقد أسلما. فتحرّك الغضبُ في نفسه ، وعاد إلى بيت أخته. وحدث ما حدث ؛ وكان هذا سببًا في إسلامه.

ونلحظ أسلوب الاستثارة في القرآن الكريم ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد : ١٦]، وقوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧].

ولقد أقرّ ﷺ غيرة سعد < حينما قال : "والله لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربتُه بالسيف غير مصفح". فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال : ((أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه ، والله أغير منِّي. ومن أجل غيرة الله حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا أحدَ أحبّ إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشِّرين والمنذرين. ولا أحدّ أحبّ إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعَد الله الجنة)) متفق عليه.

تابع: أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الحث على التوبة، وقبولها من المذنبين	٢٠١
العنصر الثاني :	الزجر بالإغلاظ في القول والضرب، وردع العصاة بإقامة الحدود الشرعية	٢٠٣
العنصر الثالث :	تغيير البيئة، وإيجاد البدائل	٢٠٤

الحثّ على التوبة، وقبولها من المذنبين

لقد أودع الله بين حنايا الإنسان الكثيرَ من الغرائز التي تُسيطر على سلوكه، وقد تدفعه إلى ارتكاب بعض الآثام، تحت ضغط غرائزه، وضعف تديُّنه، وكثرة الإغراءات مِن حوْله؛ قال ﷺ: ((كلّ بني آدم خطّاء، وخيرُ الخَطّائين التّوّابون)) رواه ابن ماجه، وقال: "حديث حسَن".

ومن رحمة الله بعباده: أنه لم يترُكهم للذنوب تفترسهم، ولم يَدَعهم لليأس والقنوط من رحمته، ولكن فتح لهم أبواب التوبة، ويسَّر لهم سبُلَ الرجوع إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّمَر: ٥٣ - ٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ترِدُ بكثرة عن التوبة وشروطها وقبولها عند الله. وإنّ ممّا ينبغي أن يسلكه الدّعاة في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر: أن يستثمروا رحمة الله الواسعة، ويأخذوا بأيدي العصاة في رفْق، ويَمدّون لهم حبال التوبة، فيستمسكون بها ليخرجوا من مستنقع الرذيلة وهاوية

المعصية، ويفتحون لهم باب الأمل والرجاء في عفو الله. وحينما يُقلعون عن الذنب ويكفّون عن المعصية يبيِّن لهم الدّعاة شروط التوبة، وهي:

١. الإقلاع عن الذنْب.

٢. النّدم القلبيّ.

٣. العزم على عدم العَوْد.

٤. ردّ المظالم والحقوق لأصحابها، سواء كان حقًّا لله أمْ للبشَر.

ولقد ذكَر شيخ الإسلام ابن تيمية أمورًا بجانب التوبة، يكفِّر الله بها الخطايا؛ ومنها:

١. التوبة، باتّفاق جميع المسلمين.

٢. الاستغفار.

٣. الحسنات الماحية للذنوب.

٤. دعاء المؤمن للمؤمن، كصلاة الجنازة.

٥. ما يُعمل للميِّت من أعمال البرّ.

٦. شفاعة الرسول ﷺ.

٧. المصائب التي تُكفَّر بها الخطايا في الدّنيا.

٨. ما يحصل في القبر من الفتنة والضّغطة.

٩. أهوال يوم القيامة وشدائدها.

١٠. رحمة الله ومغفرته بلا سبب من العباد.

والاستتابة مطلوبة شرعًا في الكبائر التي تستوجب الحدّ، ولا سيما ممّن يُقدم على جريمة الرّدّة - والعياذ بالله.

فالواجب: مناقشة المرتدّ في أسباب خروجه عن الدِّين، وإزالة ما لديْه من شبهات، ثم تترك له فرصة يراجع فيها نفسه؛ فإن تاب وإلا أقيم عليه الحدّ.

الزجر بالإغلاظ في القول والضرب، وردع العصاة بإقامة الحدود الشرعية

وقد تعرّضنا له بالتفصيل في أركان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكَر.

ردْع العصاة بإقامة الحدود الشرعيّة:

لقد شرع الإسلام حدودًا لبعض الجرائم، كَـ:

١. حدّ القتل العمْد.

٢. حدّ الردة.

٣. حدّ الحرابة وقطع الطريق.

٤. حدّ الزنا.

٥. حدّ القذف.

٦. حدّ شرب الخمر.

٧. حدّ القصاص في الأطراف.

والتعزير فيما ليس فيه حدٌّ، أو ما دون الحد.

وكل هذه الحدود جاءت في القرآن والسُّنّة، وأجمعت عليها الأمة.

تغيير البيئة، وإيجاد البدائل

أولًا: تغيير البيئة:

قد يرتكب الإنسان الذّنْب لظروف اجتماعية تُسهِّل له المُنكَر، أو بسبب قُرَناء السّوء الذين يعيشون معه، أو أن البيئة التي نشأ فيها تدفع إلى ارتكاب المُحرّمات. وعلاج أمثال هؤلاء يكون بانتشالهم من هذا الوسط الاجتماعي الموبوء إلى وسط اجتماعي آخَر، تُصان فيه الحُرُمات ولا ترتكب فيه المنكرات.

وإنّ في حديث رسول الله ﷺ عن الرجل الذي قتَل تسعًا وتسعين نفْسًا لَخَيْرُ دليل على وجوب تغيير البيئة.

ولقد شُرِع مع الحدّ تغريبُ عامٍ، حتى ينسى الناس جريمتَه، ولا يظلّ أثرُها يُلاحقه؛ وهذا من عظمة الإسلام وسموِّ تشريعاته التي تعالج الآثار النفسية للجريمة.

ثانيًا: إيجاد البدائل:

من الأساليب التي يُقضَى بها على المنكَرات إيجاد البدائل:

فمثلًا: مواجهة الانحراف الجنسيّ للشباب يكون بتيسير أمور الزواج، وتقديم العوْن من الدولة وأغنياء الأمّة لتسهيله.

ولقد قصّ القرآن الكريم أنّ لوطًا # عرَض بناته على قومه للزواج منهن، بديلًا عن إتيان الذكور، قال تعالى عنه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ [هود: ٧٨].

و كان البديل في تحريم الزنا وتوابعه تيسير الزواج، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وفي المقابل لذلك ذكَر النكاح وحثّ عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٣٢].

ولّما حرّم الله الميتة والدم ولحم الخنزير جعل البديل: الأكل من الطيبات.

هذه هي الأساليب والوسائل التي شرعها الإسلام لمحاربة المنكَرات والقضاء عليها، وتطهير المجتمع من رجْس المعصية ودوافع الانحراف.

ولن يتم هذا إلا بإعداد دُعاة يفهمون الإسلام فهمًا عميقًا، وتتعاون معهم كافَّة الأجهزة الإعلامية والسلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية في المجتمعات الإسلامية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو الوجه الحضاريّ للمسلمين في كلِّ زمان ومكان.

الآثار السيئة الناتجة عن تقاعس المسلمين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقيقة الدعوة الإسلامية

عناصر الدرس

العنصر الأول : الآثار السيئة الناتجة عن تقاعس المسلمين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٠٩

العنصر الثاني : هل الدعوة إلى الله رسالة أم وظيفة؟ ٢١٣

العنصر الثالث : القاسم المشترك بين الأنبياء جميعًا ٢١٦

العنصر الرابع : الفرق بين معجزات الإسلام، والمعجزات الأخرى ٢١٨

الآثار السيئة الناتجة عن تقاعس المسلمين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن التهاون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتخاذل عن تبليغ الإسلام ونشْره، قد أدّى إلى آثار سيِّئة وعواقب وخيمة، على المسلمين وعلى العالَم بأسره.

ومن هذه العواقب ما يلي:

أولًا: حينما خفَتَ صوت الحق وأقلع المسلمون عن التناصح فيما بينهم، وآثر كلّ منهم الصمت وغضّ الطرف عمّا حوله من عوامل الفساد ومعالم الانحراف، وانزوى الإنسان داخل نفسه وانشغل بأموره عن أمور المسلمين وأحوالهم، استشرى الفساد، وعظُم الظّلم، وكثرت الفتن؛ قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

ولقد بيّن القرآن الكريم: أنّ من أسباب استحقاق بني إسرائيل اللّعن والطّرد من رحمة الله، وإنزال العقاب بهم: أنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فعن عبد الله بن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنّ أوّل ما دخل النّقصُ على بني إسرائيل: أنه كان الرجل يَلْقى الرجل فيقول: يا هذا، اتّقِ الله، ودَعْ ما تصنع؛ فإنه لا يحلّ لك! ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه. فلما فعلوا ذلك، ضرَب الله قلوبَ بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ثم قال: كلاّ والله! لتأمرُنّ بالمعروف، ولَتَنهوُنّ عن المنكر، ولتأخذُنّ على يد الظالم، ولتَأْطُرُوهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، ولتقصُرُنّه على الحق قصرًا، أو ليضربَنّ اللهُ بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلْعَنكم كما لعَنهم))، رواه أبو داود، والترمذي وقال: "حديث حسن".

ثانيًا: إن التخاذل عن إبداء النصح، والتهاون في التّصدي لفواحش القول والعمل، جعل ساحة الدّعوة شاغرة، وقلوب العباد فارغة، ممّا جعل الشيطان وحزبَه يعيثون في الأرض فسادًا، ويتلاعبون بالعقول والقلوب إضلالًا وانحرافًا. وتعدّدت ميادين أنشطة الشياطين في المجالات التالية:

أولًا: إفساد عقيدة التوحيد، وقد اتّخذ في سبيل ذلك صُورًا عِدّة، منها:

١. الدعوة إلى إنكار وجود الخالِق ﷻ.

٢. الدعوة إلى عبادة مظاهر الطبيعة.

٣. ادّعاء الألوهيّة، والتّكبّر والاستعلاء في الأرض.

٤. اتّخاذ أنداد وشركاء من دون الله، يتوجّه الناس إليهم بالدعاء والاستغاثة.

ثانيًا: الإفساد بين بني الإنسان:

فكلّما تذكّر الشيطان أنه طُرد من الجنة وأُبعِد من رحمة الله بسبب خلْق آدم # وتكريم بني جنْسه واستخلافهم في الأرض، اشتعل وميض الحقد في قلبه، وتوهّجت نار العداوة في صدره، فيقدح زناد فكره الخبيث ومكره اللئيم، وصبّ جام غضبه على الإنسان، فأوغر الصدور، وفرّق القلوب، ومزّق الروابط. فأصبحت الكرة الأرضية ميدانًا فسيحًا للصراعات، وساحةً تشتعل فيها الحروب

والفتن. وصمَتَ صوتُ العقل والحِكمة، وعلا زئير جند الباطل وحزبه؛ وما ذلك إلاّ بسبب تخلّي المسلمين عن واجب الدّعوة إلى الله لإصلاح ذات بينهم وهداية غيرهم إلى الطريق المستقيم. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ثالثًا: الإفساد المادي:

لقد جُبل الإنسان على حبّ المال وجمْعه قال تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠].

ومن خلال حبّ الإنسان للمال، فإن الشيطان يُزيِّن لابن آدم جمْعه بكافة الطُرق غير المشروعة، كالربا، والسرقة، والغصب، وأكل مال اليتيم، والاحتكار، والاستغلال، إلى غير ذلك من الوسائل المحرّمة. ولقد أصبح ميدان المال ميدانًا فسيحًا للشيطان يعيث فيه فسادًا. ولم يكن العالَم الإسلامي بمنأى عن هذا الفساد، فقد أصابته العدوى، وحلّ بدياره الأنظمة المالية والرّبوية ممّا هدد استقلالها. قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

رابعًا: الإفساد عن طريق المرأة:

لقد كان من آثار عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن استطاع الشيطان وحزبه من شياطين الإنس، الاستحواذ على قلْب المرأة وعقلها، فانحرفوا بأنوثتها، وأفسدوا فطْرتها وما جُبلت عليه من حياء؛ فزيّنوا لها التبرج والسفور،

والخروج عن آداب الإسلام، ولا سيما في هذا العصر الذي خرجت فيه المرأة إلى الحياة العامة تَعرض أنوثتها بطريقة فجّة ومُثيرة، يساعد على ذلك أجهزة الإعلام، وبخاصة القنوات الفضائية التي ينفث الشيطان في روعها إغواء المرأة وإخراجها من مملكتها، وهو منزلها وعالَم أسرتها. فأفقدوها حنان الأمومة، وحرموها من وجوب احترام الزوج لها؛ فاضطرب أمر الأسرة، وانفرط عِقدها.

ودفعت الأرحام بأجيال فقدوا حنان الأم ورعاية الأب، فلم يحرزوا هدفًا ولم يحققوا نصرًا، ولم يصونوا دينًا أو يَحموا عرضًا. وقد استغلّت بعض أجهزة الإعلام المرئيّة أنوثة المرأة أسوأ استغلال، فجعلوا منها ممثّلة متبرّجة تعرض جسدها باسم الفن والدعاية والإعلان.

هذا، ولقد اشتدّت الهجمة الشرسة على المرأة المسلمة في هذه الأيام، للقضاء على ما بقي من الإسلام في عقلها وقلبها؛ فالأسلحة كلّها مصوّبة نحو المرأة المسلمة، تتدرّع بكل وسائل الشيطان وحزبه من تقنيات حديثة تدعو إلى الانحراف وتزيِّن له. وقد خفَتَ صوت الدعاة إلى الفضيلة، بل كاد يختفي وسط صخَب وضجيج وسائل الإعلام الحديثة، إلاّ من بعض الأصوات الصادقة التي تنبعث من هنا أو من هناك، تذكّر بالإسلام وتدعو إلى الفضيلة، وتحذِّر من شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٢١].

هذه بعض الآثار السيئة التي نجمت عن خفوت صوت الدّعاة إلى الله، وضعف أداء البعض منهم، والارتجال في ميادين العمل الدّعوي، وعدم التخطيط السليم

للدّعوة، وعدم الإعداد الجيّد للدّعاة، وافتقار الكثير منهم للوقوف على أصول الدعوة إلى الله وأساليبها، وخلوّ ذهن الكثيرين من الدّعاة عن: فقه الأولويّات في ميدان الدّعوة، وتنظيم العمل الدعوي، والتنسيق بين العاملين في حقل الدّعوة إلى الله.

هل الدّعوة إلى الله رسالة أم وظيفة؟

الدّعوة إلى الله رسالة هذه الأمّة التي اصطفاها من بين الأمم، لحمْل أمانة الدّعوة ونيل شرف التبليغ. والقائمون على شئونها هم أصحاب رسالة سامية، ورُسُل دعْوة نبيلة، قبل أن يكونوا موظّفين يتعاطَوْن على هذا أجرًا ويتقاضَوْن راتبًا.

وإنّ في رسُل الله وأنبيائه -عليهم السلام- لَقُدوةٌ حسَنة وأسوةٌ طيِّبة، فما كانوا يريدون بدَعْوتهم إلى الله من البشر أجرًا ولا يبتغون من ورائها جاهًا.

وقد تحدّث القرآن عنهم، فقال تعالى عن نوح # : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٢٩].

وعن هود # يقول الله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١].

وقد استشعر أتباع المرسلين أنهم لا يتعاطَوْن من أتباعهم مالًا، وأنهم جرّدوا دعوتهم من متاع الدنيا، فدعَوْا الآخرين للإيمان بهم. قال تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وأمَر الله رسوله ﷺ: أن يُعلن على أهل مكة بهذا الأمر، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣].

ولقد ذكَر القرآن الكريم والسُّنّة النبوية الشريفة: أنّ الأنبياء والمرسلين كانوا ذوي حِرَف وأعمال يتكسّبون بها ويعيشون على مواردها؛ فداود # كان حدادًا، قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [سبأ: ١٠].

ونوح # كان نجارًا، قال تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود: ٣٧].

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: ((كان زكريّا نجّارًا)).

وعن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((ما بَعث الله نبيًّا إلاَّ ورعَى الغنَم))، قال الصحابة: وأنت؟ فقال ﷺ: ((نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة))، رواه البخاري.

وعلى هذا الدّرب سار سلَف هذه الأمّة وخلَفُها من العلماء والدّعاة، لا يطلبون أجرًا ولا يستَجْدون ولا يتكسّبون بالدّعوة إلى الله.

يقول الحسن البصري: "لا يزال الرجُل كريمًا على الناس حتى يطمع في دينارهم ودرهمهم، فإذا فعَل ذلك استخفّوا به وكرهوا حديثه".

هذا، وقد اختلف الفقهاء على حُكم تعاطي الأجْر على عمل الطاعات، وقد انقسموا إلى فريقيْن:

الأوّل: يرى عدم جواز أخْذ الأجر، بل يُحرِّم ذلك، واستدلّوا بقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال الفخر الرازي في "تفسيره": "احتجّوا بهذه الآية على: أنه لا يجوز أخْذ الأجر على التعليم، لأن الآية لمّا دلت على وجوب التعليم فكان أخذ الأجر أخذًا على أداء الواجب، وأنه غير جائز".

وذهب الأحناف إلى هذا الرأي أيضًا فقالوا: "إن الإجارة على الطاعات لا تجوز، ويحرم اتّخاذ الأجر"، واستدلوا بقول الرسول ﷺ: ((اقرءوا القرآن، ولا تأكلوا به)). وبقوله ﷺ لِعمرو بن العاص: ((وإنِ اتُّخذْت مُؤذِّنًا، فلا تأخُذْ على الأذان أجرًا)).

وقال الحنابلة: "لا تصحّ الإجارة لأذان وإمامة، وتعليم وفقه وحديث، ولا يقع إلاّ قُربة لفاعله، ويحرُم أخذُ الأجْر عليه". وجوّزوا أخذ رزق من بيت المال أو مِن وقْف على عمل يتعدّى نفعُهُ، كقضاء وتعليم، وليس بعِوض، بل رزق للإعانة على الطاعة، ولا يُخرجه عن كونه قُربة، ولا يقدح في الإخلاص.

الفريق الثاني: يرى جواز أخْذ هذا الأجر؛ وهذا ما ذهب إليه: المالكيّة، والشافعية، وابن حزم.

قال ابن حزم: "والإجارة جائزة على تعليم القرآن، وعلى تعليم العلْم مشاهرة وجملة. ويستدلون على ذلك بقول الرسول ﷺ: ((إنّ أحقّ ما أخذْتُم عليه أجرًا هو كتاب الله))"، رواه البخاري.

وقد جاء في "فتح الباري" ما يعضد هذا الرأي.

هذا، ومع قوّة الأدلة الشرعية من القرآن والسُّنّة وأفعال الصحابة، التي لا تجيز أخْذ عوضٍ مادي عن عمل الطاعات، ومنه الدّعوة إلى الله، إلاّ أنه يُرجَّح الرأي القائل بجواز أخْذ الأجر، ولا سيما في هذا العصر الذي نضَب فيه مَعين الخير، وشحّت الأنفس، واستشرى البخل والتقتير على الدعوة والدعاة، وتكاد علوم الشرع تندثر والدّعاة ينقرضون، مع الأخذ بفتوى من يجيز أخْذ الأجر؛ فكيف لو أخذنا بفتوى من لا يُجيز أخْذ الأجْر؟

وعلى الدّعاة إلى الله : أن يُخلصوا النّية ، وأن يجعلوا ما يَحصلون عليه من راتب هو وسيلة لتحقيق العيش الكريم ، وعونًا على حُسن القيام بالدّعوة إلى الله وليس غاية في حدّ ذاته. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣].

القاسم المشترك بين الأنبياء جميعًا

من الأمور التي يشترك فيها الأنبياء جميعًا ؛ ما يلي :

أولًا : نظرية تلقّيهم عن الله واحدة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

ثانيًا : المُوحَى به واحد في أصوله ؛ قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

ثالثًا : أنّ مُسمَّى دينهم واحد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

رابعًا: أسلوبهم في الدّعوة إلى الله واحد؛ قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء: ١٦٥].

خامسًا: الغاية التي بُعثوا بها جميعًا واحدة؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

سادسًا: دلائل صِدْقهم وأمارات نبوّتهم واحدة، رغم اختلاف الزمان والمكان؛ فهي تتجمّع في الأمور التالية:

أ. مكارم الأخلاق التي اتّصف بها جميع الأنبياء والمرسلين قبل البعثة وبعدها واحدة، ممّا يُقيم الأدلة والبراهين على أهليّتهم لشرف النبوة والرسالة.

ب. جميعهم -عليهم الصلاة والسلام- أيّدهم الله بالمعجزات، تصديقًا لهم، وتحدِّيًا لأعدائهم، كما أنّ نزول الكتب والصّحف والألواح قاسم مشترك بين الأنبياء جميعًا.

ج. أنّ كلّ ما جاءوا به من تشريعات تتلاءم مع الفطرة السليمة، ولا تتعارض مع غرائز الإنسان السّويّة.

د. مقاومة المعارضين لهم، شأن مشترَك بينهم جميعًا.

ه. إجماع الأنبياء على الإعراض عن الدنيا والزهد فيها، وعدم تعاطي أجْر على دعْوتهم، وصبرهم على الأذى.

كلّ هذه العوامل مجتمعة، تدل على اتّفاق المنهج، ووحدة الهدف لجميع الأنبياء والمرسلين -عليهم السلام-.

الفرْق بين معجزات الإسلام والمعجزات الأخرى

"المعجزة": أمْر خارق للعادة، يُظهره الله على يد النبي والرسول، تأييدًا له وتحدِّيًا للمعانِدين.

ومعجزات الأنبياء السابقين معجزات حسِّيّة، ترتبط بمكان وزمان الرسول والمرسَل إليهم؛ فإذا مات النبيّ أو الرسول انقطعت معجزتُه، ومن ثَمّ لم يعد هناك دليل قائم على نبوّته واستمرار رسالته. فمعجزة موسى # كانت العصا، يلقي بها على الأرض فتنقلب حيّة تسعى، ويضرب بها البحر فيصبح طريقًا يبسًا، ويهوي بها على الحجر فتتفجّر منه اثنتا عشرة عينًا. وبانقضاء حياة موسى # انتهت معجزتُه، ولم يصبح في يد اليهود دليل على نبوّة موسى # . حتى بقايا التوراة، تناولتها يد اليهود بالتغيير والتحريف، ولم تَعُدْ بصورتها الحالية دليلًا على صِدْق نبوّة موسى # .

وكذلك الشأن في معجزات عيسى # كالنّفخ في الطِّين على هيئة الطير فيصبح طيرًا بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، والإخبار بما يدّخره الناس في بيوتهم؛ وهي كلّها معجزات موقوتة بمكان وزمان عيسى # . وعقِب رفْعه رُفعت معه معجزاته، ولم يَعُد لدى النصارى دليلٌ قائمٌ على نبوّة عيسى # واستمرار رسالته. وما بين أيديهم من الأناجيل لا تُمتّ -باعتراف المحقِّقين والمدقِّقين من علماء التاريخ والأديان- بصِلَة إلى وحْي السماء المُنزَل على عيسى # .

وكذلك الحال في جميع معجزات الأنبياء والمرسلين السابقين. فلولا إخبار القرآن عنهم، وذكْر نبوّاتهم ورسالاتهم، ووجوب الإيمان بهم، لما كنّا نعرف عنهم

شيئًا، ولسنا مطالَبين بالتصديق بوجودهم، إذ ليس مع أتباعهم ما يُفيد ذلك سوى أخبار يَنقصها التوثيق العلْمي وصحة السّند وصدْق الخبر.

أمّا الإسلام العظيم، فقد تفرّد بمعجزة خالدة باقية محفوظة، حتى يرِثَ الله الأرض ومَن عليها، لا ترتبط بمكان مُحدّد ولا زمان مُعيّن؛ إنه القرآن الكريم. "كتاب الله المُنزَل على رسوله ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلًا متواترًا بلا شبهة". وقيل في تعريفه:

"كتاب الله المُنزَل على رسول الله ﷺ المتعبَّد بتلاوته، المُعجِز ببلاغته، المتحدَّى به الإنس والجنّ".

ولاستمرار خلودِه، وبقائه وصوْنه ممّا نزل بالكتب السابقة، فقد توافرت أمور عدّة وضمانات كثيرة لم تتوافر لغيره، ومن ذلك ما يلي:

أولًا: تعهّد الله بحفْظه، فلم يَلحقْ به ما لحق بالكتب الأخرى، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحِجر: ٩].

ثانيًا: تيسير الله سُبُل حفْظه، وإعانته على بقائه في صدور الحفَظة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

ثالثًا: أمَر الله باستمرار تلاوته، قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزَّمل: ٤].

رابعًا: إعانة الله على جمْعه وقراءته وتسهيل طُرق بيانه. قال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

خامسًا: مضاعفة أجْر وثواب من يقرؤه، وكذلك من يستمِع إليه؛ وقد وردت في ذلك كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية.

فمِن القرآن: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٨].

ومن السُّنة النّبويّة ما يلي:

١. عن ابن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن قرأ حرْفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشْر أمثالها؛ لا أقول: ﴿ الٓمٓ ﴾ حرفٌ، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف))، رواه الترمذي وقال: "حديث حسن صحيح".

٢. عن أبي أمامة > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((اقرءوا القرآن؛ فإنّه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه))، رواه مسلم.

٣. عن عبد الله بن عمرو بن العاص { عن النبي ﷺ قال: ((يُقال لصاحب القرآن: اقرأْ وارتَقِ، ورتِّلْ كما كنتَ ترتِّل في الدنيا؛ فإنّ مَنزلَتك عند آخِر آية تقرؤها))، رواه أبو داود، والترمذي وقال: "حديث حسن".

سادسًا: حفِظ الله -تبارك وتعالى- اللغة العربية، فلم يَنزِل بها ما نزل باللّغات الأخرى، حتى لا يُستعجَم القرآن الكريم. هذا، وإنّ من المحاولات الخبيثة: محاولات البعض تغيير قواعد اللغة العربية، أو استبدالها بالعاميّة، أو إحلال اللّغات الأخرى محلّها.

سابعًا: ارتباط القرآن الكريم بحياة البشَر، وتنظيمه الدّقيق والمعجز لجوانب العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات التي تشمل الناس جميعًا. هذا، بجانب

حديثه عن الأمم السابقة حديث صدق وحق، وإخباره عمّا يعتري البشريّة من أحوال إلى قيام الساعة.

ثامنًا: تعدّد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم؛ فبجانب الإعجاز البلاغي هناك الإعجاز العلْمي، والتاريخي، والتشريعي، إلى غير ذلك من وجوه الإعجاز المتعدِّدة...

تاسعًا: اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم منذ أن تلقّاه الرسول ﷺ وكان يأمر كُتّاب الوحي بكتابته؛ هذا، بجانب حفْظه في الصدور. ثم التعاون على جمْعه في خلافة أبي بكر الصديق، ثم في خلافة عثمان بن عفان. وعقب تاريخ المسلمين، كان القرآن الكريم ولا يزال له الصدارة في الاهتمام؛ فبرز الخط العربي، وأبدع الخطّاطون في كتابته، كما وُضعت قواعد النحو لِصوْن قراءته. وظهر علْم التجويد والقراءات والتفسير. وتبارت الأمّة حُكّامًا ومحكومين، على حفْظ كتاب الله وصوْنه ورعايته؛ وهذه خصوصية انفرد بها القرآن الكريم عن باقي الكتب السماوية، وتميّز بها المسلمون عن سائر أمم الأرض.

عاشرًا: ومِن خصائص الدعوة: حفْظ سيرة الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله:

شهد تاريخ البشرية أنبياء ورسلًا كثيرين، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ولقد انتهت رسالتهم، واندثرت آثارُهم، وطُويت كتبُهم، وجهِل الناس سيرتَهم وأحوالهم، ولم يعُدْ يُعرف عنهم شيء إلاّ من خلال ما جاء في القرآن الكريم عن دعْوتهم لأمَمِهم.

وإنّ من خصائص الإسلام: ما تفرّد به رسول الله ﷺ عن سائر الأنبياء وجميع المرسلين، مِن عِصمته في حياته رغم كثرة محاولات قتْله، لأن الله قد تكفّل بذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد شملت العصمة حفْظ الله لِسيرته، وصوْن أقواله وأفعاله ﷺ حيث قيّض الله بهذا الحفظ الرّواة العدول الثّقات من آل بيته وزوجاته أمّهات المؤمنين وصحابته -رضوان الله عليهم أجمعين- الذين روَوْا تفاصيل حياته ﷺ وحدّثوا الأمّة حديث صِدق عن أقواله وأفعاله وعظمة أخلاقه.

وتناقلها الرواة العدول الثقات جيلًا بعد جيل، في تسلسل فريد، وتوثيق مُحكم، ومحافظة على السّند والمتن، بصورة لم ولن تشهد لها البشرية مثيلًا. وقد كان بعض صحابة رسول الله ﷺ يدوِّنون ما يسمعونه منه ﷺ كعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وأنس خادم الرسول ﷺ.

ولقد بدأ التدوين الرسميّ للسُّنّة في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، حيث كتب إلى الآفاق: "انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه!". وكتب لأهل المدينة: "انظروا حديث رسول الله ﷺ، فاكتبوه! فإني خِفتُ دروس العلْم وذهاب أهله".

ولقد نشط العلماء وتعالت هممهم في الجمع والتدوين، ووُضعت قواعد علْم مصطلح الحديث، وتعددت المصنفات التي جمعت أحاديث الرسول ﷺ. وكان من أتقنها: "صحيح البخاري ومسلم"، ثم كتب المسانيد الأخرى. وقد تم تصنيف السّنة وتبويبها وتنقيحها من الدخيل والموضوع والضعيف، بصورة فريدة وبطريقة انفرد بها الإسلام عن غيره من الأديان الأخرى.

وبجانب التوثيق بالرواية والكتابة والحفظ، فإنّ ممّا انفرد به ﷺ وتميّز به عن غيره من الأنبياء والمرسلين: أنّ مواطن الدعوة في مكة والمدينة، وأماكن أحداثها وآثارها، شاهد عدلٍ ودليل صدْق على التواجد المستمرّ والبقاء الخالد للإسلام.

ففي كل عام، يتوافد ملايين الحجاج والمعتمرين لِيشاهدوا أماكن الدّعوة ومواطنها.

فغار حراء ما زال قائمًا مرتفعًا تطلّ قمّته على مكة كلّها، يسترجع المسلمون عند رؤيته مشهد جبريل وهو ينزل على رسول الله ﷺ بالوحي.

وغار ثور في الناحية الجنوبية من مكة، حيث مشاهد وأحداث الهجرة.

هذا، ومما اختُصّ به ﷺ أنه هو النبي الوحيد من بين سائر الأنبياء، معروف موطنه في مكّة المكرمة، ومسجده وقبره الشريف في المدينة المنورة، يتوافد جموع المسلمين للصلاة بمسجده، والتسليم عليه في الروضة الشريفة، حيث يقفون أمام القبر الشريف يشهدون أنه ﷺ بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وكشف الغمة، وترَك أمّته على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

والرسول ﷺ دون كلّ الأنبياء والمرسلين، هو الذي يتردّد اسمه الشريف في الأذان خمس مرات في اليوم والليلة، هذا بجانب الصلاة عليه ﷺ من قِبل الله والملائكة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

كلّ هذه الأمور من دواعي الحفْظ، وأمارات الاستمرار، مما اختُص به ﷺ ليظلّ الإسلام من خلال القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ حيًّا في وجدان الإنسانية، يقظًا في قلبها وعقلها، حتى إنّ بعض العلماء من غير المسلمين يهتمّون بسيرته، ويكتبون عنه، ويتناولون حياته بدافع ذاتيّ وشعور داخليّ؛ بل إن الأقطار والدّول التي تعادي الإسلام وتعلن الحرب على المسلمين، تقام فيها المساجد وترتفع فيها المآذن ويكثر الداخلون في الإسلام منهم عامًا بعد عام.

من خصائص الدعوة الإسلامية

عناصر الدرس

العنصر الأول :	من خصائص الدعوة الإسلامية (أ)	٢٢٧
العنصر الثاني :	من خصائص الدعوة الإسلامية (ب)	٢٣٢
العنصر الثالث :	ربانية الدعوة الإسلامية	٢٣٥
العنصر الرابع :	عالمية الدعوة الإسلامية	٢٣٨

مِن خصائص الدّعوة الإسلامية (أ)

والإسلام بهذه الخصائص يتقدّم مسيرة الحياة بفكر واضح، وعقيدة ثابتة، ومنهج متميِّز فريد، يرفض التقليد ويأبى التّبعية.

وإنّ اختيار مكّة المكرّمة مهدًا ونشأةً وبعثةً لرسول الله ﷺ وهي كما وصفها إبراهيم # في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فقد كانت مكة المكرمة بعيدة عن الحضارتيْن المؤثِّرتيْن في العالَم حينذاك، وهي: الحضارة الفارسية والرومانية، ممّا يوحي بخصوصيّتها واستقلالها، وعدم تأثّر الدعوة بما يدور في جوانب العالَم الأخرى. وهذه الخصوصية والاستقلالية اتّسمت بها الدّعوة إلى الإسلام، واتّصف بها المسلمون في كلّ زمان ومكان.

وهذا ممّا يُقلق الأعداء ويثير غيظهم وحقْدهم: أنّ المسلم ثابت المعالم، مميّز الشخصية، متفردٌ في عقيدته، وحيدٌ في سلوكه، لا نظير له في العبادة والأخلاق والمعاملة، يحتمي بدينه ويعتصم بمعتقداته، ويعتز بتاريخه، ويسابق الموت طلبًا للشهادة دفاعًا عن إسلامه.

ومن ثم عمَد أعداء الإسلام للنّيل من هذه الخصائص الإسلامية، بالاستعمار العسكري أحيانًا، وبالغزو الفكري أحيانًا أخرى، وبعملائهم من بعض أبناء المسلمين الذين تربّوْا على موائد الاستشراق والتبشير والاحتلال.

وإنّنا إذْ نضَع بين أيدي الطّلاب والدّعاة خصائص الدعوة إلى الله، ليزداد إيمانهم بالإسلام، ويعظم حفظهم له ودفاعهم عنه. ولقد تحدّث القرآن الكريم عن

بعض هذه الخصائص في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد فسّرت سورة (الحج) هذه الخصائص في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

فهل توجد أمّة من بين أمم الدنيا أو شعبٌ من شعوب الأرض، له خصائص الأمّة الإسلامية؟

ولقد أعلن الرسول ﷺ في وثيقة الموادعة بين المسلمين واليهود، بعد الهجرة إلى المدينة، عن خصائص أمّته الإسلامية حيث نصّت هذه الوثيقة على أنّ المسلمين أمّةٌ من دون الناس.

والمسلمون بهذه الخصوصية لا يستعلون على الآخرين، ولا يستعبدون الشعوب، ولا يتميّزون على الأمم؛ وإنما هم بتلك الخصوصية يحملون على عاتقهم إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان، وهم مسئولون أمام الله -كأمّة دعوة- عن هداية العالَم. قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أما عن خصائص الدّعوة الإسلامية، فهي على النحو التالي:

أولًا: إنّ دعوة الإسلام وثيقة الصّلة بدعوات الأنبياء والمرسلين، من لدُن آدم # إلى محمد ﷺ.

فـ"الإسلام" هو الاسم الذي اختاره الله ليكون عنوانًا لجميع الرسالات. والمتتبِّع لقصص الأنبياء في القرآن الكريم، يجد أنّ الإسلام هو أساس كلّ رسالة، وجوهر كل شريعة، ومعالم كلّ ملّة يُرى ذلك واضحًا في الأدلّة القرآنية التالية:

أ. نوح # يُعلن أنه من المسلمين، ويُحذِّر قومه من عاقبة الإعراض عن دعوة الإسلام. قال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢].

ب. إبراهيم # يُعلن في جلاء تام أنه مسلم، وتبعه في الإسلام حفيده يعقوب حينما حضرتْه الوفاة فوصّى أبناءه بالإسلام. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٣].

ج. ويوسف # تمنّى أن يلْقى الله مسلمًا. قال تعالى: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

د. وموسى # يدعو قومه إلى الإسلام، ويُحرِّك مشاعرهم نحوه. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

ه. وحواريّو عيسى # شهدوا بالإسلام. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

وقد توثّقت هذه الصِّلة وقويت تلك الرابطة بالعهد والميثاق الذي أخذه الحقّ ﷻ على جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، إن أدركوا الرسول ﷺ أن يؤمنوا به، وينصرونه ولا ينابذونه العداء قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد وُثِّق هذا العهد باللقاء المباشر بين الرسول ﷺ وبين الأنبياء والمرسلين ليلة الإسراء والمعراج، حيث استقبلوه بالحفاوة والتّرحاب قائلين له: ((مرحبًا بالأخ الصالح، والنّبيّ الصالح. نِعْم المَجيء جئتَ)). وقد صلّى بهم إمامًا.

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حينما قال:

أسرى بكَ اللهُ ليلاً إذ مَلائكُهُ ❖ وَالرُسلُ في المسجدِ الأقصى
لَمّا خطَرتَ بِهِ التَفّوا بسَيِّدِهِم ❖ كَالشُهبِ بِالبَدرِ أو كَالجُندِ بِالعَلَمِ
صَلّى وَراءَكَ مِنهُم كُلُّ ذي خطَر ❖ وَمَن يَفُز بِحَبيبِ اللَهِ يَأتَمِمِ

ولقد هيمن الإسلام على الرسالات السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فالهيمنة على الكتب السابقة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أي: مؤتمن عليهم".

وهيمنة الإسلام على الشرائع السابقة تكون بما يلي:

أولًا: نسخ الإسلام لبعض التشريعات التي جاءت بها الأديان السابقة.

ثانيًا: تصحيح ما انحرف منها، ولا سيما ما يتعلّق بمسائل العقيدة. قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

ثالثًا: تطهير سيرة الأنبياء والمرسلين ممّا لحِق بهم من أكاذيب وافتراءات تتنافى وعصمة الأنبياء وقُدسيّتهم وطهارتهم، ولقد ذُكرت هذه الافتراءات في العهد القديم والأناجيل المحرّفة.

رابعًا: إن القرآن الكريم والسُّنّة النبوية الشريفة قد عملا على تعديل مسار تلك الأديان التي انحرفت، والاتجاه بها نحو الإسلام. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ونفى القرآن الكريم ما أُطلِق على أبي الأنبياء إبراهيم # من كونه يهوديًّا أو نصرانيًّا. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ولقد تحدث القرآن الكريم في أكثر من موضع عن تلك العلاقة الوثيقة بين رسُل الله أجمعين. قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولقد عبّر الرسول ﷺ عن هذا التواصل والترابط أصدق تعبير في قوله ﷺ: ((مَثلي ومَثَل الأنبياء قبلي كمَثَل رجُل بنَى بيتًا فأتمّه وأحسنه، إلاّ موضع لبنة. فكان الناس يمُرّون بالبناء يقولون ما أتمّه! ما أحسَنَه! لولا هذه اللّبنة! فأنا هذه اللبنة. وأنا خاتم الأنبياء والمرسلين)).

هذه العلاقة المتينة والصلة الوثيقة بين الرسُل والرسالات جميعًا، من خصائص الإسلام الذي يعمل على تدعيمها، ويُذكِّر بها من خلال القرآن الكريم والسُّنّة النبوية الشريفة.

فالإيمان بجميع الأنبياء أصْل من أصول عقيدة الإسلام، ومن أهمّ خصائصه ومميزاته.

والإيمان بجميع الرسُل يوجب الإيمان بكلّ ما جاءوا به من عند الله من تشريعات، والتصديق بما أجرى الله على أيديهم من معجزات وأدلّة على أنّ جميع الأنبياء والمرسلين يجْمعهم منهج واحد.

مِن خصائص الدّعوة الإسلاميّة (ب)

وإنّ من خصائص الدعوة الإسلامية: أنها أقرّت تلك الرّوابط واعترفت بها ولم تُنكرها، رغم عدم اعتراف الآخَرين برسالة محمد ﷺ. وهم -وإن اعترفوا بها ظاهرًا، أو مداراة، أو حرصًا على مصالحهم في بلاد المسلمين- فهم في حقيقة أمْرهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ ولا يطيقون حتى ذكْر اسمه.

وهذا هو الفرْق الشاسع بين ما اختصّ به الإسلام نحو الرسالات السابقة، وبين ما يُضمره له الآخَرون من حقدٍ أسود وغلّ دفين، أسفر عن وجهٍ قبيح، وكشّر عن أنيابه في العدوان الذي يحصل على ديار المسلمين الآن. ويصحب هذا العدوان دعوات خبيثة وماكرة لحرمان الإسلام من خصوصيّة الهيمنة والتصحيح للأديان والمِلل الأخرى، والعمل على فقدان شخصيته المستقلّة وعقائده المتميزة، وعباداته وأخلاقه المتفرّدة، تحت دعاوى: لقاء الحضارات، وحوار الأديان،

وتلاحم الثقافات. وقد حفلت بهذا الأمر المنتدياتُ الفكريّة، وروّجت له وسائل الإعلام، وأقيمت له المؤتمرات، وشُكِّلت له اللِّجان، ورُصدت لذلك الأموال...

وهُرع إلى هذا الحوار بعضُ المسلمين الذي انخدعوا ببريقه، وتولّى كِبرَه مَن تغذّى على موائد الغرب، وانغمس في بريق حضارته المادّيّة الزائفة، حتى عمِيتْ بصيرتُه وطُمس قلبُه، وردّد ما يدعون إليه، دون أن يعرف أنّ هذه الدعاوى تُفقد الإسلامَ خصوصيّته وتطمس هويّته، لأنهم لا يَقبلون الحوار الذي يحمل بين ثناياه خصوصيّة الإسلام التي توجب على المسلمين أن يتحاوروا مع غيرهم، وأن يتجادلوا معهم بالحسنى، وفْقَ الضوابط التي وضعها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

هذا في إطار قول الحقّ -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فالإسلام لا يخشى الحوار، ولا يضيق بالمناقشة، طالما يُثمر في النهاية الرضوخ للحق، والإذعان للإسلام، أو مهادنته وحسن الجوار في رحابه.

وإنّ من خصوصيّة الدعوة الإسلامية: أنها قامت على الحوار وحسْن المناقشة وسعة الصدر.

فالرسول ﷺ تحاور مع كفار مكة، وجادل يهود المدينة، وتناقش مع وفْد نصارى نجران. وجعفر بن أبي طالب > تحدّث مع نجاشي الحبشة، وتحاورا في مسائل العقيدة النصرانية وموقف الإسلام منها.

وحوارات الإسلام ومجادلاته لا تحمل بين طيّاتها مداهنات النفاق، ولا تقبل التّخلي عن الثوابت العقائدية الإسلامية مجاملة للآخَرين. كما أنّ الإسلام لا يعرف اللقاء في منتصف الطريق، كما يروّج له دعاة هذا الحوار. وقد رفض الرسول ﷺ ما عرَضتْه عليه قريش من تبادل العبادة بين الإسلام والشّرك، حيث قالوا: نعبد إلهك عامًا، وتعبد آلهتنا عامًا آخر؛ فنزل الله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢] إلى آخر السورة.

هذا، ومما ينبغي أن يعرفه الدّعاة إلى الله: أنه تكْمن خلْف قضية "حوار الأديان": الأمور الخطيرة التالية:

أولًا: أن يفقد الإسلام خصائصه العقائديّة والعبادية والأخلاقية، ويصبح المسلم كالماء، لا طعم له، ولا لون، ولا رائحة.

ثانيًا: إضفاء صفة الشّرعية على المعتقدات الوثنية التي تحفل بها النصرانية، كعقيدة التثليث وما يتْبعها من طقوس لا تُمتّ إلى الدِّين الحقّ بصِلة.

ثالثًا: تهميش دوْر الدِّين في الحياة الاجتماعية، سياسيًّا، وثقافيًّا، واقتصاديًّا.

رابعًا: الانطلاق بالعقل والعلْم بعيدًا عن ضوابط الدِّين وقواعد الأخلاق، ممّا ينتج عن ذلك: إفساد الفطرة بالتلاعب في الجينات الوراثية، وتخريب البيئة بأسلحة الدّمار.

خامسًا: الإيمان بالمحسوس، مع عدم الاهتمام بغير المحسوس، كالإيمان بالبعث والحشر، والثواب والعقاب؛ فهذه قضايا مستبعَدة في الفكر الغربي الحديث تمامًا.

سادسًا: الانغماس في الترف، وتحطيم مقوّمات الأسرة، وإباحة الشذوذ، تحت دعاوى الحرية، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة.

سابعًا: إذكاء النّعرات الوطنية والقومية، وإضعاف وتوهين أيّ رابطة تقوم على الدِّين والعقيدة.

ممّا سبق، تتّضح خطورة مثل هذه الدعاوى؛ وعلى الدعاة إلى الله: أن يتنبهوا إليها، وأن يقفوا على مكان الخطر فيها. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

ربّانيّـــة الـــدّعوة الإســـلاميّة

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأودع بين حنايا نفْسه العقلَ الذي يُفكِّر به واللسان الذي ينطق، وخلَق في كيانه العواطف والمشاعر التي تختلف إدراكاتها وأحاسيسها من شخص لآخر. كما أنّ النفس البشرية تضمّ بين جوانبها العديد من الغرائز التي تتفاعل وتتصادم لإشباع رغباتها، إلى غير ذلك ممّا أبدعه الله في خلْق الإنسان من أسرار كشَفَ العلْم عن القليل منها، وما زال يُجهد نفسه للبحث عن أمور أخرى.

قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

هذا الخلْق المبدع والتصوير المبهر، لا أحَد من البشَر يعْلم أسراره أو يقف على حِكمة خلْقه، إلاّ الله ﷻ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: "يُخبر الله عن قُدرته على الإنسان، بأنه خالقُه، وعلْمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر".

وعن هذه الإحاطة الشاملة بالكون والإنسان، يقول الله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ⁽٦⁾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٦، ٧].

فالله ﷻ عليم خبير بأحوال العباد، يعلم ما يُحقِّق لهم السعادة وما يجلب لهم الشقاء؛ فجاءت التشريعات من خلال وحي السماء ورسالات الأنبياء، تتوافق وتتلاءم مع فطرة الإنسان التي فطَره الله عليها. فهذه التشريعات توازن بين متطلَّبات الروح والعقل، ورغبات الجسد، وتُراعي مصلحة الفرد في إطار مصلحة الجماعة، وتعمل على تناسق حياة الإنسان مع حركة الكون.

هذا، وإنه مّما تفرّدت به الدعوة إلى الله، واختصّت به عن غيرها من الرسالات السابقة: أن أحكامها وتشريعاتها فيما يخصّ العقائد والعبادات والمعاملات وحْي من الله تعالى، نزل به جبريل الأمين على رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⁽١٩٢⁾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ⁽١٩٣⁾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ⁽١٩٤⁾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ⁽١⁾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ⁽٢⁾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ⁽٣⁾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ⁽٤⁾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ١ - ٥].

ولقد ترتب على ربّانية الدّعوة إلى الله ما يلي:

أ. تناسقها مع فطرة الإنسان، وإشباعها لمتطلّبات الروح والجسد، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

ب. كمال التشريعات وخلوّها من النقائض النقائص؛ فتشريعات الله كاملة سابغة، تُلبِّي حاجات الإنسان السّويّ، ولها صفة الدوام والاستمرار، وتلائم كلّ زمان ومكان، وتناسب كلّ أجناس البشر، وهم جميعًا أمام شرع الله سواء، ممّا يُحقِّق العدل للإنسانية والأمن والاستقرار في العالَم. قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وكوْن هذه العقائد والتشريعات من قِبل المولى ﷻ ومن رسول الله ﷺ فإنّ هذا يُكسبها القداسة والهيبة والتعظيم، وأوجب للالتزام، وأدعى إلى سرعة الامتثال؛ فهي تشمل البشرَ جميعًا، ولا يمتنع عن الإذعان لها أيّ إنسان مهما كانت مكانته. وليس لفرد أو هيئة أو جماعة أن تنال من هذه الأحكام، أو تُعطّلها، أو تحول دون تنفيذها. وإن محاولات إبعاد الإسلام بعقائده وتشريعاته عن مجالات الحياة المختلفة ذنْب لا يُغتفر وكفْر صريح. قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

فتنوّع الحُكم على من يعمل على تعطيل شرْع الله مِن الكفْر إلى الظّلم إلى الفسق، بحسب موقف المعترِض، ودرجات جحوده وإنكاره وإغفاله؛ بل هناك قَسَمٌ عظيمٌ ونفْي صريح للإيمان عمّن يحول دون ربّانية الدّعوة، ويحول دون تطبيق شرْع الله، أو يجد في نفسه حرجًا أو ضيقًا كلّما انطلقت الدّعوة لتطبيق شرْع الله والتزام أحكامه. قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

بل لا وجه للمقارنة والاختيار بين ما شرعه الله للإنسان من أحكام، وبين ما يشرِّعه البشَر لأنفسهم من قوانين ونُظم وتشريعات، لم تحصد الإنسانية منها سوى استفحال الظّلم، واستعباد الشعوب، واشتعال الحروب، وتحوّل العالَم إلى غابة ضارية تفترس فيها الدّول القويّة الأممَ الضعيفة، وتصادر حقّها في العيش الآمن. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

إنّ ربانيّة الدعوة الإسلامية تجعل الناس أمام أحكامها سواء، وتُشعِرُ البشَر بالاطمئنان فيما يصدر لهم أو ضدّهم من أحكام، لأنها مُجرّدة عن الهوى، وتبتعد عن الأنانية والأثرة وحبّ الذات، وتوجب الالتزام بمنهج الله والدعوة إليه وتطبيقه. قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩].

عالَميّة الدّعوة الإسلاميّة

إنّ دعوات الأنبياء والمرسلين عبْر مسيرة البشرية كانت دعوات خاصّة تقتصر على قوم بعيْنهم، أو على أمم بذاتها، لا تتجاوز الدعوة حينذاك حدودَ تلك الأوطان والبيئات، إلاّ من خلال ما تتحدّث به القوافل والركبان، أو تنقله جهود بعض الأفراد أثناء الأسفار. ولقد ذكر القرآن الكريم أنّ من خصائص الدعوات السابقة: اقتصارها على قوم الرسول وعشيرته.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هود: ٢٥].

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٥٠].

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٦١].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٨٤].

وكذلك كوكبة أنبياء بني إسرائيل: يعقوب، ويوسف، وموسى، وداود، وسليمان، وزكريا ويحيى، وعيسى -عليهم جميعًا أفضل الصلوات- كانت دعواتهم تقتصر على بني إسرائيل خاصة.

فلقد كان مطلب موسى # من فرعون: إنقاذ بني إسرائيل من بطْشه واستخلاصهم من ظُلمه. قال تعالى آمرًا موسى وهارون -عليهما السلام-: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه: ٤٧].

وعيسى # اختصّ ببني إسرائيل دون غيرهم من أمم الأرض، قال تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال تعالى عن عيسى #:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الزُّخرُف: ٥٩].

أمّا رسالة محمد ﷺ فقد تجاوزت حدود الزمان والمكان، وتخطّت حواجز الأمم والشعوب، وانطلقت لتشمل كلّ الأجناس واللغات. فهي دعوة الله إلى الإنسانية جمعاء حتى قيام الساعة. بل تجاوزت عالَم الإنس إلى عالَم الجن. ولذلك كان القرآن الكريم، وهو معجزة الرسول ﷺ ودليل نبوته، معجزةً معنويةً لا ترتبط بحياة الرسول كمعجزات الأنبياء السابقين، بل مستمرّة متجدِّدة، كلها عطاء إلى يوم الدِّين.

والأدلّة على عالَميّة الدّعوة وعمومها من القرآن الكريم، ما يلي:

١. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

٢. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٣. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

٤. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فالنصوص القرآنية تخاطب الناس جميعًا، لا تميّز قومًا على قوم، ولم تخاطب جنسًا دون جنس. ولقد كثر النداء في القرآن الكريم: بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾؛ بل توجد أكثر من أربعين آية يُذكر فيها الله ﷻ بـ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ التي تصدّرت بها سورة (الفاتحة)، وهي تُقرأ في ركعات الصلاة.

الأدلّة من السُّنّة على عالميّة الدّعوة وعمومها:

١. قال ﷺ: ((فُضِّلْتُ على الأنبياء بستّ، أعطيتُ جوامعَ الكلِم، ونُصرتُ بالرّعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجُعلت ليَ الأرضُ مسجدًا وطهورًا، وأُرسِلتُ إلى الخلائق كافّة، وخُتم بيَ النّبيّون))، رواه مسلم.

٢. عن أبي هريرة > عن رسول الله ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده! لا يسمَع بي أحدٌ من هذه الأمّة -يهوديٌّ أو نصرانيّ- ولم يؤمن بالذي أُرسِلتُ به، إلاّ كان من أصحاب النار))، صحيح مسلم.

ولقد خطا الرسول ﷺ خطوات عمليّة لتحقيق عالَمية الدّعوة إلى الله، وذلك من خلال كُتبه ورُسله إلى الملوك والأمراء؛ فأرسل إلى كسرى ملِك الفُرس، وإلى هرقل إمبراطور الروم، والمقوقس عظيم القبط في مصر، وأمراء الشام واليمن.

ولم ينتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلاّ بعد أن ردّد الكون صدَى دعْوتِه، وفُتحت لها القلوب والأمصار.

وقد أخبر القرآن الكريم: أنّ الإسلام سينتشر ويعمّ أرجاء الكون؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

[الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

وعن تحقيق عالَميّة الإسلام، قال ﷺ ما معناه: "إنّ الله طوَى لي مشارق الأرض ومغاربَها، وإنّ هذا الأمْر سيبلغ ما بلغ الليلُ والنهار، يُعز الله به عزيزًا، ويُذلّ به ذليلًا. يُعزّ به الإسلام وأهلَه، ويُذلّ به الكفر وأهلَه".

وإن الواقع -والحمد لله- يُبشِّر بهذا الفتح المبين؛ فالإسلام رغم إمكانيات دُعاته المحدودة، بل المعدومة، ورغم ضراوة أعداء الإسلام له، وحرْبهم الشعواء عليه، فإنه ينتشر خيرُه وتعمّ هدايته للبشرية، وما من بقعة من بقاع الأرض إلاّ وصوت الإسلام يعلو فيها. قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

تابع: من خصائص الدعوة الإسلامية

عناصر الدرس

العنصـــــر الأول :	الدعوة الإسلامية خاتمة الرسالات السابقة	٢٤٥
العنصـــر الثـــاني :	الإسلام نظام شامل لكل شئون الحياة	٢٤٩
العنصـــر الثـالـــث :	ثبوت مصادر الإسلام وسلامتها من التحريف	٢٥٣

الدعوة الإسلامية خاتمة الرّسالات السابقة

لقد انتهت روافدُ الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله إلى الخلْق عبْر مسيرة الجنس البشري، إلى محمد ﷺ الذي خُتمت به النبوات والرسالات، وانقطع الوحي من بعده، فلم يَعُد يتنزّل على أحد من البشَر غيره، ﷺ.

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فهذه الآية نصّ صريح: أنه لا نبيّ بَعده، ﷺ.

وإذا كان لا نبيّ بَعده، فأيضًا لا دِين غير دِين الإسلام يقترن به أو يتساوى معه،

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى في نص صريح واضح: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالأديان السماوية المتواجدة الآن -وهي: اليهودية والنصرانية- أشبهُ بعملة تذكارية انتهى التّداول بها؛ لِما حلّ بهذه العملة من تزييف وتغيير، والأوْلى بها أن تُحفظ في متاحف التاريخ، لوجود عُملة جديدة يصعب بل يستحيل تزييفها، ولا يستغني الناس عنها. وإنه من الخطأ العلمي، والانحراف الفكري، والتضليل العقائدي: الزعم بوضع الأديان الثلاثة على قَدَم المساواة.

فكيف بدينٍ انقطعت معجزاتُه، وتبدّلت معتقَداتُه، وحُرِّفت مصادرُه، وتنكّر له أهله، وقطعوا صلته بالحياة إلّا من طقوس مبهَمة، وترانيم غامضة، يتساوى

بدين معجزته قائمة ومحفوظة، وهي: القرآنُ الكريمُ، دِين كلّ عبادة فيه تنبض بالحركة وتُدير سفينة الحياة على الوجه الأمثل والأكمل.

إنه منذ أشرقت شمس الإسلام على الدنيا، وبسط جناحيْه بالقرآن والسُّنّة على العالَم، والأديان السابقة تعيش في كنفه، وتحظى برعايته، ما دامت تحفظ العهد وتصون الودّ، ولا تفكّر في العدوان عليه. وما كان غير المسلمين يحلمون يومًا أن تكون لهم هامة تقترب من هامة الإسلام، وما فكّروا يومًا أن يقفوا منه موقف النِّدّ للنِّدّ؛ لأنهم يعرفون حقيقة ما بين أيديهم من دِين انقطعت صلته بوحي السماء، ولا يُعلم عن مصادره شيء، ويعلمون حق العلْم ما لدى المسلمين من دين موصولٍ بالسماء في كل لحظة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠].

ولكن للأسف تطوّع بعض العلماء من المسلمين -إمّا جهلًا، أو نفاقًا، أو طمعًا في منصب، أو عَرَض من أعراض الدنيا- فأنزلوا الإسلام الشامخ من عليائه، ليضعوه في مصافّ أديان فقَدت أصولَها، وضعفت فروعها، حتى وجدنا بعضَهم يتأوّل في تفسير النصوص، ويلوي عنق الأدلة، ليوافق أهواء الآخَرين في وضْع أديانهم على قدَم المساواة بالإسلام. وهم بهذا يُنكرون أمرًا معلومًا من الدِّين بالضرورة، وهو: نسْخ الإسلام لكلّ الديانات السابقة، وختْم نبوة محمد ﷺ لكلّ النبوات والرسالات.

فعن أنس بن مالك > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنّ الرسالة والنبوّة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبيّ)). قال: فشق ذلك على الناس. فقال: ((ولكن المبشّرات)). قالوا: يا رسول الله. وما المبشِّرات؟ قال: ((رؤيا الرّجل المسلم، وهي جزءٌ من أجزاء النبوة))، رواه الترمذي وقال: صحيح غريب.

وعن العِرباض بن سارية > قال: قال لي النبي ﷺ: ((إني عند الله لخاتم النبيِّين، وإن آدم لمجندل في طينته))، رواه أحمد. وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي))، أخرجه الشيخان.

ونسوق لأولئك القوم -الذين انساقوا طَوْعًا أو كرهًا لرغبات الغرب، ووقعوا في شباكه تحت مسمًّى: "حوار الحضارات" و"لقاء الأديان"، فتخلَّوْا عن ثوابت الإسلام- نصوصًا من الأناجيل التي بين أيدي النصارى الآن، تشير بوضوح وصراحة إلى أنّ الإسلام هو خاتم الرسالات. كما أشار إلى ختم النبوة والرسالة بعض نصوص العهد القديم.

فممّا جاء في العهد القديم: "جاء الرّبّ من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، وتلألأ من جبال فاران". ويذكر العلماء أنّ هذه العبارة تشير إلى أماكن نزول الوحي:

فالمجيء من سيناء: إشارة إلى رسالة موسى # .

والإشراق من ساعير: دلالة على رسالة -عيسى # .

والتلألأ من جبال فاران: تنبيه على رسالة محمد ﷺ فإن جبل فاران هو أحد جبال مكة.

وهذا ما تشير إليه سورة "التين"، قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣].

فلقد أقسم الله تعالى بهذه المواطن الثلاثة التي شهدت وحي السماء لأنبياء الله تعالى الثلاثة: عيسى، وموسى، ومحمد -عليهم جميعًا الصلاة والسلام-

وإن قصْر اسم الإشارة على هذا البلد الأمين في قوله: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ [التين: ٣] دلالة على وجود الإسلام واستمراره، وأنّ مكة المكرمة والكعبة المشرّفة سيَظلاّن محطّ أنظار المسلمين وقِبلتهم؛ لأن اسم الإشارة لا يشار به إلّا إلى شيء واقعٍ وموجود ومُحَسّ ومُشاهَد.

ولقد جاء في "إنجيل متّى"، "الإصحاح: ٢١"، قول عيسى # لقومه:

"ما قرأتم قطّ في الكتب الحجَر الذي رفضه البنّاءون، قد صار رأس الزاوية من قِبل الرّبّ. كان هذا عجيبًا في أعيننا؛ لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطي لأمة تعمل أثماره".

وهذا ما أشار إليه الرسول ﷺ: فقد روي عن جابر بن عبد الله > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلي ومَثَل الأنبياء كمَثَل رجُل بنى دارًا فأكملها وأحسنها، إلّا موضع لَبِنة. فكان مَن دخَلها فنظر إليها قال: ما أحسنها! إلّا موضع هذه اللّبنة! فأنا موضع اللّبنة؛ خُتم بي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-))، رواه البخاري ومسلم.

وجاء أيضًا في "إنجيل يوحنا" "الإصحاح: ٢٠-٢٤"، قول عيسى # للمرأة السّامريّة عن تحويل القِبلة التي يصلي إليها بنو إسرائيل إلى قِبلة أخرى، ولم تتغيّر القبلة إلّا على يد محمد ﷺ يقول الإنجيل: "إن المرأة السّامريّة قالت ليسوع: آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون: إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجدوا فيه. قال لها يسوع -أي: عيسى، # : "يا امرأة، صدقيني. إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون لله. الله روح، والذي يسجدون له؛ فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا".

وهكذا تتابع الأدلة من بقايا الكتب السماوية رغم تحريفها، أو حرمان الكنيسة من قراءتها كإنجيل "برنابا"، الذي أشار إشارات صريحة إلى رسالة محمد ﷺ على كون الإسلام هو الدِّين الخاتم لكلّ الرسالات، وأن شريعته ناسخة لغيرها من الشرائع. قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

الإسلام نظام شامل لِكلّ شئون الحياة

الإنسان في هذا الكون مُتعدِّد العلاقات، متشابك المصالح والمنافع، متصادم الرغبات، بين ما يحمله بين ثنايا نفسه من الأنانية والأثرة وحب الذات، وما تُمليه عليه مصلحته من التعاون مع أفراد مجتمعه من خلال علاقاته الأُسَرية والاجتماعية. وقبل هذا فهو خلْق من مخلوقات الله وأثر من آثار قُدرته، يجب عليه طاعته وعبادته. والطاعة والعبادة لله يمنعان النفس البشرية من الاندفاع وراء نزواتها وشهواتها، فضلًا عن علاقة الإنسان بكل مظاهر الكون من حوله، من حيوان أو نبات أو جماد.

فالبشر في حاجة إلى تشريع متكامل يُحقِّق الرغبات، ويفي بالحاجات، ويحول دون التصادم والتعارض، ويعادل ويوازن بين الدوافع والموانع، بين الأوامر والنواهي، بين الحلال والحرام، بين الحق والباطل، بين الظلم والعدل، بين الإيمان والكفر.

وليس غير الإسلام وحده الذي يفي بالغرض.

فهو نظام إلهي شامل لجميع شئون الحياة موجِّه لسلوك الإنسان، منظِّم لعلاقة الإنسان بربّه من خلال العقائد والعبادات، ومنسِّق لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان

من خلال الأخلاق والمعاملات الإسلامية. وشمول الإسلام لشئون الحياة وسلوك الإنسان هو شمول عام محيط بكل أمور الدِّين والدنيا، لا يقبل تخصيصًا ولا استثناءً؛ فالبشر جميعًا في دائرة أحكامه سواء، كما قال ﷺ: ((الناس سواسية كأسنان المِشط، لا فضْل لعربيّ على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، إلّا بالتقوى والعمل الصالح. كلّكم لآدم، وآدم من تراب. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم)).

وهذا هو الفرق بين الإسلام في شمول تعاليمه، وبين شرائع وقوانين البشَر التي تعالج أمور الإنسان من زاوية خاصّة بهذا التشريع، ولا شأن لها بالأمور الأخرى.

والمسلم أمام شرع الله يجب أن يؤمن به كلّه، وأن يلتزم بكلّ ما أمر الله به، وأن يجتنب كلّ ما نهى الله عنه. فليس من كمال الإيمان: أن يأخذ الإنسان من الدِّين ما يُحقِّق منفعته الذاتية ورغباته، ويُبعد ما يحول دون شهواته ورغباته. قال تعالى محذِّرًا من تجزئة الأحكام الشرعية وأخْذ البعض وتعطيل البعض الآخر: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

كما ليس من صحيح الإيمان أن يُستعاض عن شرع الله بما شرعه البشَر من قوانين ونُظم، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فالإسلام عبر تشريعاته يهتمّ بالإنسان من حيث تكوينه النفسي والجسدي، فنظَّم الغرائز كغريزة حبّ التملك أو الجنس وغيرهما، فلا يحرمه منها. ولم يترك له الانغماس فيها، والوقوع في براثن شهواتها، ولكنّه يلائم وينسِّق بين رغبات الجسم ومتطلبات الروح، ويوازن بين متطلّبات الفرد ومصلحة المجتمع دون إفراط أو تفريط. ولم يَنْحُ نحو المسيحية في الانخراط في سلك الرهبانية والانعزال

عن الدنيا، وفصْل الدِّين عن المجتمع وَفْق مقولة خاطئة: "دعْ ما لقيصر لقيصر، وما لله لله".

ولم ينهج نهج اليهودية التي اتّسمت بالمادية المطْلَقة. ولكنه وضع التشريعات التي تتّسم بالإحاطة والشمول، وتتناول حياة الإنسان منذ ولادته، وحتى يخرج من هذه الحياة. فأنّى تلفّت المسلم في حياته اليومية، أو خطا خطوات في جانب من جوانب الحياة -سياسية، أو اقتصادية، أو ثقافية، أو اجتماعية- إلا وجد شرائع الإسلام وأحكامه مِن حوله تحوطه بالعناية والرعاية، وتكبح جماح شهواته في حنو ورحمة، وتأخذ بيده في سهولة ويسر، وتسمو بالإنسان في بساطة وإقناع.

والشمول والإحاطة التي اختصّ بها الإسلام نظّمتها التشريعات والأحكام التالية:

١. كل ما يتعلق بعلاقة الإنسان بخالقه، كالإيمان بوجود الله ووحدانيته، والتصديق بكتبه ورسُله واليوم الآخر، والتسليم بالقضاء والقدَر، والرضا بما قسم الله من أرزاق، والتزام العبودية والطاعة من خلال ما يؤدّى من عبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج، وغير ذلك من العبادات التطوعية التي توثّق الصلة بين الخلْق والخالق سبحانه.

٢. الأحكام التي تتعلّق بتنظيم علاقات الأفراد فيما بينهم. وهذه على أنواع منها:

أ. أحكام الأسْرة من: نكاح، وطلاق، وميراث، ونفقة، وغيرها... وتسمَّى في الاصطلاح الحديث بـ"أحكام الأسرة، أو "قوانين الأحوال الشخصية".

ب.أحكام تتعلّق بالقضاء، والدّعوى، وأصول الحُكم، والشهادة، واليمين. وهي تدخل فيما يسمَّى بـ"قانون المرافعات".

ج. أحكام تتعلّق بعلاقات الأفراد ومعاملاتهم، كالبيع، والرّهن، والإجارة، والكفالة. وهي تسمَّى في الاصطلاح الحديث بـ"أحكام المعاملات المالية"، أو "القانون المدني".

د. أحكام تتعلّق بمعاملات الأجانب غير المسلمين، عند دخولهم إلى أقاليم الدّولة الإسلامية، والحقوق التي يتمتّعون بها، والتكاليف التي يلتزمون بها. وهذه الأحكام تدخل فيما يسمَّى اليوم بـ"القانون الدّولي الخاصّ".

ه. الأحكام التي تتعلّق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدّول الأخرى في السّلم والحرب، وتدخل اليوم فيما يسمّى بـ"القانون الدّولي العامّ".

و. أحكام تتعلّق بنظام الحُكم وقواعده، وكيفية اختيار رئيس الدولة وشكل الحكومة، وعلاقة الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها. وهي ما يُطلق عليه بـ"القانون الدستوري".

ز. ما يتعلّق بموارد الدولة ومصارفها، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة، وبين الأغنياء والفقراء. وهي تدخل في "القانون المالي" بمختلف فروعه.

ح. أحكام تتعلّق بتحديد علاقة الفرد بالدولة، من جهة الأفعال المنهيّ عنها.

ط. ومن بين ثنايا هذه التشريعات، يبرز الإسلام كنظام فريد تتضاءل أمامه كلّ تشريعات الشرق والغرب، ولا يقارَن به دِين من الأديان أو شريعة من الشرائع؛ لأن الله تكفّل بحِفْظه، وضمن له الخلود والبقاء. وصان القرآن الكريم الذي هو مصدر تلك التشريعات، من التحريف والتغيير. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: ٤١، ٤٢].

ثبـوت مصـادر الإسـلام وسـلامتها من التّحريـف

من الثوابت العلْمية والحقائق التاريخية: أنّ الرسالات السماوية السابقة عن الإسلام قد انقطعت أخبارُها، واندثرت معالُمها، وانتهت مصادرُها إلى مجاهل التاريخ وزوايا النسيان. ولم يعُدْ من تلك الأديان ما يتردّد فيه نبض الحياة، سوى الديانتيْن: اليهودية والنصرانية. حتى أن نبض هاتيْن الديانتيْن أصبح نبضًا ضعيفًا، بل كاد يتوقّف لِما حلّ بهما من تغيير وتبديل؛ فلقد امتدّت إليهما أيدي أحبار اليهود ورهبان النصارى بالتحريف زيادةً ونقصًا، ثم احتدم الخلاف واشتدّ الجدال حول مسائل العقيدة في الديانتيْن، فضاق بهما أصحابهما، ودفعوا بهما خلْف جدران البِيَع والكنائس والأدْيرة.

وقامت الثورات في أوروبا تُنحِّي الدين عنها وتُبعده عن الحياة. وكان من شعار الثورة الفرنسية: "اقضوا على آخِر ملِك بأمعاء آخِر قسّيس".

فتعاظم شأن الإلحاد، وتم فصلْ الدِّين عن الدولة، واستعاضت أوروبا عن الدِّين بالقوانين الوضعية التي لا تمتّ بصلة لوحي السماء ورسالات الأنبياء، وإنما هي مزيج من الحضارتيْن اليونانية والرومانية، مع صبغهما بصباغ المسيحية التي وضع أصولها بولس الرسول الذي غيّر معالمها الحقة؛ ومن ثم لم يَعُد الدِّين هو المُوجِّه للحضارة الغربية المعاصرة.

أمّا الإسلام العظيم فإن ممّا اختص به وتميّز عن سائر الدّعوات السابقة عليه: ثبوت مصادره، وقدسية نصوصه، وبقاء ونقاء ثوابته الشرعية وأصوله التشريعية؛ لأن الله تعالى قد تكفّل بحفظه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحِجر: ٩].

ولقد بَدَا هذا الحفظ الإلهي واضحًا جليًّا، لم ينل منه تتابع القرون، ولم تضعفه الأحداث الجسام التي واكبت تاريخ الإسلام. ولم تتغيّر قواعد حجّيّته وقوة أدلّته أمام الحقد الأسود والغلّ الدفين، الذي يُضمره له أعداؤه منذ محاولات المشركين في مكة، حينما أرادوا صرفَ الناس عن القرآن بأي صورة. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فُصِّلَت: ٢٦]، إلى الادعاء الكاذب أنه ليس من عند الله، وإنما تلقاه ﷺ من رجُل أعجمي في مكة، قال تعالى مفنِّدًا مزاعمَهم: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

ولقد زاد الإمعان والإصرار عبر مراحل التاريخ للنّيْل من مصادر الإسلام، واتّخذ صورًا عِدةً منها:

أ. إنكار أنّ القرآن من عند الله.

ب. التشكيك في القصص التاريخيّ للقرآن الكريم.

ج. وضع الإسرائيليات في كتب التفسير؛ تشويهًا لمعاني القرآن الكريم.

د. إنكار حجّيّة السُّنّة والنّيل من رواتها وتجريحهم.

ه. محاولات التحريف المستمرة من أعداء الإسلام للقرآن الكريم، وذلك بطبع المصحف الشريف وبه تغيير لبعض الكلمات التي تُخِلّ بالمعنى. وآخر هذه المحاولات الخبيثة: ما قامت به الصهيونية العالمية التي تساندها قوى الشر والبغي التي تخشى الإسلام وحضارته، بطبع ما يسمى بـ"الفرقان الحق!" بديلًا عن القرآن الكريم، وُضعت فيه سور وآيات تتّفق وأغراضهم الخبيثة، ألا ساء ما يمكرون. قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

فعلى الرغم من هذه المحاولات وغيرها، فإنّ مصادر الإسلام وبراهين أدلّته ودعائم شريعته نقيّة بيضاء، قيّض الله لها كلّ عوامل الحفظ، وضمن لها كلّ دوافع البقاء والاستمرار، وصانها من كل جوانب التحريف والتغيير. ولم يُرد الحق ﷻ لأيّ دِين أو مذهب أو حضارة هيمنةً عليها أو احتواءً لها.

هذا الكلام لا تُمليه العواطف، وإنما يُثبته البحث العلمي المنصف. وقد أقرّ بثبات مصادر الإسلام وسلامتها من التحريف والتغيير إجماعُ علماء المسلمين في كلّ العصور، وكذلك العلماء المُنصفون من غير المسلمين، الذين اعترفوا بتلك الحقيقة، وتبيّن لهم الفرْق الكبير والبَوْن الشاسع بين ما عليه الإسلام من قواعد وأسُس سليمة ومحفوظة ومصونةٍ بقدرة الله، ثم بجهود العلماء من سلَف الأمّة وخلَفها، وبَيْنَ أديان تهاوتْ قواعدُها، واضطربت مصادرُها، وأهملها أصحابُها، وعفا عليها الزمن، وطوتْها سحائب النسيان، وغدتْ في هامش الشعور لأتباعها.

أمّا الإسلام، فهو -ولله الحمد- ما يزال في بؤرة شعور الأمّة، وهو محطّ اهتمامها، وإنّ مصادره من القرآن الكريم، والسّنة النبوية الشريفة، وسائر المصادر الأخرى، هي في عقلها وقلبها، ومحلّ عناية العلماء والمجتهدين في كل عصر ومصر. وإن بدتْ في هذه الأيام بعض أمارات ضعف المسلمين، وهوانهم على أعدائهم، وتخاذلهم في الدّفاع عن دينهم ومقدّساتهم، وإن ظهرت بعض الأصوات النشاز من بعض أبناء المسلمين عرب اللسان، أعاجم العقل والفكر، ينالون من هذه المصادر، ويتهجّمون عليها، ويجعلون من أنفسهم أبواقًا مضلّلة للحضارة الغربية وثقافتها، فإن هذه الأمور عرض زائل، وظلمة ليل ستنقشع،

ومرحلة موقوتة وعابرة لن يكتب لها استمرار الحياة. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فعوامل بقاء الإسلام ومصادره وثوابته، ستظل باقية ومصونة ومحفوظة؛ لأنّها محاطة بتحصين الله لها، وبما يقيّضه الله ﷻ لهذا الدِّين في كلّ زمان ومكان من بعض أبنائه من العلماء والدّعاة، مَن يُجدِّد أموره، ويحمي مصادره، ويصون ثوابته، ويَنفي شوائبه، ويدافع عنه.

قال ﷺ: ((إنّ الله يَبعث على رأس كلِّ مائة سَنة مَن يُجدِّد لهذه الأمّة أمْرَ دينها)).

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

[الأنبياء: ١٠٥].

تابع: من خصائص الدعوة الإسلامية

عناصر الدرس

العنصر الأول :	توافق الدعوة الإسلامية مع العقل والفطرة	٢٥٩
العنصر الثاني :	وسطية الدعوة الإسلامية وملاءمتها للفطرة	٢٦٤
العنصر الثالث :	قواعد الاعتدال والتوسط	٢٦٦
العنصر الرابع :	أمارات الاعتدال والوسطية في الدعوة الإسلامية	٢٧٢

توافُق الـدّعوة الإسلامية مع العقل والفطرة

إنّ ممّا تفرد به الإسلام أنه دِين لا يتعارض مع العقول السليمة، ولا يصادم الفكر السّـديد، ولا يتنـاقض مـع الفطـرة النّقيّـة. ومـن خـلال التّعريـف اللّغـوي والاصطلاحي للعقل يبرز مدى الارتباط بين شرْع الله وأحكامه، وبين العقل وخصائصه.

"العقل" هو العلْم بصفات الأشياء، مِن حُسْنها وقُبْحها، وكمالها ونقصانها، أو العلْم بخير الخيرَيْن وشرّ الشَّرَّيْن، أو هو القوة التي يكون بها التمييز بين القبح والحسن، وأنه نور روحاني به تُدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية.

وسُمي عقلًا لأنه يعقل صاحبه عن التّورّط في المهالك.

والعاقل هو الإنسان المدرِك الفاهم للشيء، أو هو الذي يَحبس نفسه ويردّها عن هواها أخذًا من قولهم: "اعتُقِلَ لسانه، إذا حُبس ومُنع الكلام".

والشيء المعقول: ما يعتقله الإنسان بعقله، ويطمئنّ له قلبه، وينشرح له صدره.

مكانة العقل في الإسلام:

حظي العقل في رحاب الإسلام بمكانة سامية ومنزلة عليا، وقد أشار ﷺ إلى هذه المكانة في قوله: ((ما خَلق الله خلقًا أكْرمَ من العقل)) وقال ﷺ: ((ما كسب أحدٌ شيئًا أفضلَ من عقلٍ يهديه إلى هدى، أو يَرُدّه عن ردى)).

ولقد امتدح القرآن الكريم أصحاب العقول السليمة التي تَهدي إلى الحق، فكلّ أمر حسنٍ ذي بالٍ يوصف أصحابه بالعقل والعلم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وكل موضع يذمّ فيه الكفّار يكون بسبب الجهل وفقدان العقل الراشد والفكر السديد، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

ولقد أطلق القرآن الكريم أسماءً كثيرة على العقل، ممّا يدلّ على شرف المسمَّى ومكانته؛ ومن ذلك ما يلي:

أ. الفؤاد: وهو الذي تستقرّ فيه العلوم والمعارف الثابتة والعقائد الراسخة، مقترنة بشحنة من العواطف. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

ب. اللّب: وهو الدائرة الواقعة في عمق مركز التفكير، وهو مركز استقرار المعرفة العلْمية، ومركز التّذكّر والاعتبار والاتّعاظ، وعنه تصدر النتائج الفكرية إلى الفؤاد والقلب والصدر، لتحريك العواطف. قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ولقد وصف الله ﷻ المتّقين من عباده -الذين يتفكّرون في خلْق السماوات والأرض، ويشاهدون عظَمة الخالق لهذا الكون، ويعلمون مدى حاجة البشر إلى شرع الله الحكيم- بأنهم: "أولو الألباب"؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

كما يُطلق على العقلاء بأنهم "أولو النُّهَى"؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٤]، وأنهم "ذوو حِجْر"، أي: عقل وفهم وإدراك؛ قال تعالى: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥].

أي: لِذي عقل ولبٍّ وحِجا. وإنما سمي العقل "حِجْرًا" "لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، ومنه: حِجر البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطائف من اللّصوق بجدره".

حفظ الإسلام للعقل:

حرص الإسلام على العناية بالعقل والمحافظة عليه، وذلك بما يلي:

أولًا: حرَّم الإسلام تحريمًا قاطعًا كلّ ما يُذْهِب العقل ويُغيِّب الفكر، وجعَل المحافظة على سلامة العقول إحدى ضروريات الإنسان الخمْس، وهي: النفْس، والدِّين، والعقل، والعِرض، والمال.

ولذلك حرّم الله الخمر والمُسكرات والمُفترات بكافة أنواعها، السائلة منها والجامدة، ما يُشرب منها وما يُحقن أو يُشمّ، وكلّ ما يُخامر العقل ويَستره ويُغطّيه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ((لعَن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: عاصرَها ومُعتصرَها، وشاربَها، وحاملَها، والمحمولةَ إليه، وساقيها، وبائعَها، وآكلَ ثمنها، والمشتري لها، والمشترَى له)) رواه ابن ماجه والترمذي.

ثانيًا: أطلق الإسلام للعقل عنان الفكر بما لا يتصادم مع عقائد الدِّين وثوابت الشّرع، ومنَحه حرية التعبير عما يجيش بعقله؛ فلا يصادر الإسلام رأيًا، ولا يكبت فكرًا، إلا إذا كان فكرًا يُنكر ما هو معلوم من الدِّين بالضرورة، أو يعارض قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية، أو يخالف فطرة الله التي فطر الناس

عليها، كأن يُزيّن لفاحشة، أو يدعو إلى مُنكَر من خلال الفنّ الساقط والأدب الرخيص.

ولقد أعطى الإسلام الحرية للعقل في مجالات كثيرة، ووضع له الضوابط التي تحول بينه وبين الانحراف في الفكر والضلال في الرأي. ومن ذلك:

أ. النظر في ملكوت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

ب. إمعان الفكر في النفس البشرية، وما تحمل بين ثناياها من آيات العظمة، ودلائل القدرة، وأسرار الخلْق؛ قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥].

ج. أن يبني العقل أفكاره على الدليل القاطع والبرهان الساطع، والعلْم الذي يقوم على اليقين، وأن يبتعد عن التخمين والظن وعدم البرهان؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤]، وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤].

وقد طلب الله من المعاندين والمعارضين لِدعوة الرسول ﷺ أن يخرجوا ما لديهم من علْم، وما تحت أيديهم من أدلّة؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

د. أن يتمهّل العقل في الحُكم على الأشياء، وأن يتأنّى للوصول إلى الحقيقة. وينبغي أن تتعاون العقول وتتلاحم الأفكار، لمعرفة الحقّ والصواب. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ه. أن يتحرّر العقل من اتّباع الهوى؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وأن يتخلّص من مؤثّرات البيئات المُنحرفة، ومن عادات وتقاليد ما توارث عن الآباء من عادات وتقاليد تتنافى مع صحيح العقيدة. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخرف: ١٩ - ٢٣].

وهكذا يتعانق العقل ويتصافح مع الإسلام في مودّة صادقة وتعاون مستمر، لبناء حضارة إنسانية مرتبطة بوحي السماء ورسالات الأنبياء، التي تزيل غشاوة العقول، وتذيب صدأ القلوب، وتحقّق للإنسان ما خلَقه الله لأجله. أمّا حينما ينطلق العقل الإنساني بعيدًا عن ضوابط الشّرع، ويندفع وراء الأهواء والظّنون، ويتّبع خطوات الشيطان الذي يُزيِّنُ له الانحراف في الفكر تحت مسمًّى الحرية، والضلال في الرأي تحت دعاوى الإبداع، فإنه يكون كالجواد الجامح وكالثور الهائج الذي يُحطِّم كلّ ما حوله. وإنّ ما تشاهده البشرية من انحراف في العقيدة،

وإفساد للنظرة، ونزوع للشهوات، وميل شديد إلى الظلم واستعباد الشعوب وإشعال الحروب- ما هو إلا حصادٌ سيِّئ لانفلات العقل، وفساد الفكر، واتّباع الهوى. قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

وسطيّة الدعوة الإسلامية وملاءمتها للفطرة

إنّ من خصائص الدعوة إلى الله أنها تقوم على التّوسّط والاعتدال ومراعاة وملاءمة الفطرة الإنسانية، فلا تميل للغلوّ، ولا تجنح للتشرّد، وتنأى عن الإفراط والتفريط. فهي تراعي العدل في التشريع، والوسطيّة في العقائد والعبادات؛ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فمعنى الوسط في الآية، أي: عُدولًا؛ لتتوافر في المسلمين الشهادةُ على الأمم السابقة.

أو معنى الوسط: الوقوع في المنتصف بين الأمريْن، فتعاليم الإسلام وسط في الأحكام لا تُلحِقُ بالإنسان مشقّة، ولا تُنْزِل به حرجًا، ولا تُسبِّب له ضيقًا أو عنتًا. قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

إنّ السماحة والرحمة والتوسط والاعتدال هي من أخلاق الرسول ﷺ ومعلَم ظاهر في شخصيته.

فقد روى البخاري عن أم المؤمنين عائشة < قالت: ((ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بيْن أمرَيْن إلّا اختار أيسرَهما ما لم يكن إثمًا. فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناس منه)).

وقد ذكَر القرآن الكريم أنّ سهولة العبادات ويُسْر الطاعات أمْر مشترَك بين الرسالات السماوية، فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد نهى ﷺ عن التّنطّع في الدِّين، والغلوّ في الفكر، والتشدد في العبادة. فعن ابن مسعود > أن النبي ﷺ قال: ((هلك المتنطعون)) قالها ثلاثًا. رواه مسلم.

والتنطع هو: المبالغة في العبادة.

وعن جابر بن عبد الله } قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنّ مِن أحبِّكم إليّ وأقربكم منِّي مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا. وإنّ أبغضَكم إليّ وأبعدَكم منِّي مجالس يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدِّقون، والمُتفيْهقون)) رواه الترمذي، وقال: "حديث حسن".

وعن عمر > قال: ((نُهينا عن التّكلّف)) رواه البخاري.

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

وعن منهج الدّعوة إلى الله في التيسير وعدم التعسير روى أنس > عن النبي ﷺ قال: ((يَسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشِّروا ولا تُنَفِّروا)) متفق عليه.

وقال ﷺ: ((إنّ الدِّين يُسر، ولن يُشادّ الدِّين أحدٌ إلّا غلَبه؛ فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدْوة والرّوْحة وشيء من الدُّلْجة)) رواه البخاري.

وعن ابن مسعود > قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا أخبركم بمَن يَحرُم أو بمَن تحرم عليه النار؟ تحرم على كلّ قريب هيِّن سهْل)) رواه الترمذي وقال: "حديث حسن".

وإنه من الاعتقاد الخاطئ اعتقادُ البعض أنّ اليُسر وعدم التّشدّد في الدِّين، والانفلات من قيوده وحدوده، والتكاسل عن أداء العبادات، والتساهل في القيام بالطاعات، والاندفاع نحو رغبات النفس -أمر لا حرج فيه، تحت مقولة: "الدِّين يُسر لا عُسر".

وقد يرى البعض -بهتانًا وإفكًا- أنّ مِن سماحة الإسلام ومِن عدم التشدد في الدِّين أن يتقبّل المسلم أفكارَ الآخَرين ومعتقداتِهم وثقافاتهم وأخلاقهم التي تتعارض مع ثوابت الإسلام وخصائصه، تحت دعوى السماحة وعدم التّشدّد. فرأينا من يشارك الكفّار في أعيادهم، ومن يريد أن يخرج المرأة من حصنها الإسلامي المنيع، بدعوى أن الدين يُسر لا عسر، فيتخفّف من أمر الحجاب... فهذا فهم خاطئ للدِّين...

قواعد الاعتدال والتّوسّط

وقد وضع الإسلام قواعد الاعتدال وضوابط التّوسّط في الدِّين على النحو التالي:

أولًا: الإسلام يهدف من شرائعه وأحكامه أن يرقى بعقائد الإنسان وعباداته وأخلاقه ومعاملاته بصورة مُثلى تقارب الكمال الإنساني، ولكن بدون تشدّد في العمل وغلوّ في الاعتقاد؛ لأنهما يدفعان بالإنسان إلى غياهب الفكر وشطحاته. ولقد ساق القرآن الكريم حصاد الغلوّ، وما أدّت إليه المبالغة، وذلك من خلال معتقدات النصارى وغلوِّهم فيما اعتقدوه في عيسى # قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

وكمغالاة بعض الشِّيعة في حبّ علي > وآل بيته الأطهار.

وقد دفعت المغالاة بالبعض إلى التّطاول على صحابة الرسول ﷺ.

وكغلوّ بعض المتصوِّفة في الأولياء، حتى إن البعض يُنزلونهم منزلةً تتصادم مع العقيدة الإسلامية.

فالإغراق في التّشدّد والمبالغة في التّطرّف يؤدِّيان إلى عواقب لا تُحمد عقباها.

ولهذا كان حرْص الرسول ﷺ أن يُبعد أمّته عن أي طريق يؤدِّي بها إلى متاهات الغلوّ. فعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تُطروني كما أطْرت النّصارى عيسى بن مريم؛ فإنّما أنا عبد الله، فقولوا: عبْد الله ورسوله)) مسند الإمام أحمد.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، أن رجلًا قال: يا محمد، يا سيِّدَنا وابن سيِّدِنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال ﷺ: ((أيها الناس، عليكم بقوْلكم! ولا يستهْوِيَنّكم الشيطان؛ أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله. واللهِ ما أحبّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل)).

ولقد كانت الرحمة واللِّين واليسر من مفاتيح القلوب لأصحابه -رضوان الله عليهم- وسرُّ اجتماعهم عليه والتفافهم حوله، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثانيًا: إنّ التكاليف التي شرعها الله لعباده لا تتجاوز حدود الطاقة البشرية، وإنما هي وفْق طاقة الإنسان وقدراته؛ قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال ﷺ: ((إذا أمَرْتُكم بأمْر فأْتوا منه ما استطعتم، وما نهَيْتُكم عنه فانتهوا)) رواه البخاري.

وتطبيقًا لهذه الأصول الإسلامية تصبح تكاليف العبادات وغيرها من أعمال الطاعات وأمور الدنيا مقترنةً بتوافر شرط الاستطاعة. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما يلي:

أ. الحجّ أحد أركان الإسلام الخمسة، أداؤه يتوقف على شرط الاستطاعة المالية والبدنية وأمْن الطريق؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ب. قصْر الصلاة وجمْعها في السفر، وفي ميادين الجهاد، وأداؤها من قعود إذا تعذّر القيام. قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء: ١٠١].

ج. الصوم حينما يعجز المسلم عن صيامه لِمرض أو سفر، فيباح له الفطر، ثم القضاء. فإن عجز عن القضاء لِعِلّة مُزمنة وجبت الفدية، وهي إطعام مسكين عن كلّ يوم أفطره. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

د. وكذلك فريضة الزكاة لا تجب إلا على من يملك النّصاب، وحالَ عليه الحوْل.

ه. راعى الإسلام طبيعة المرأة وقدّر خصائصها، فأسقط عنها بعض التكاليف الشرعية التي قد يشقّ عليها أداؤها، كإسقاط فريضة الصلاة عند الدورة

الشهرية وخلال فترة الولادة والنفاس، ولم يوجب الإسلام عليها القضاء. كما أباح لها الإفطار في رمضان بسبب الولادة والرضاعة أو خلال فترة الحيض والنفاس، وأوجب عليها القضاء بعد زوال هذه الأسباب.

و. في شئون الحياة وأمور الدنيا دعا الإسلام إلى التوسط والاعتدال في كل شيء، ومن ذلك ما يلي:

١. الإنفاق المالي: يضع الإسلام قواعده الاقتصادية، فلا يمسك الإنسان يده عن الإنفاق ويكنز المال ويحرم منه نفسه وأهله، ولا يبعثره في تبذير وسَفه ذات اليمين وذات الشمال. قال تعالى مبيِّنًا ضوابط الإنفاق، وألا يتجاوز حدّ التوسط والاعتدال ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وبيّن القرآن الكريم أنّ من صفات المتّقين من عباده الاعتدال في الإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

٢. في مجال الأكل والشرب، فإن الاعتدال فيهما هو ميزان صحّة الإنسان وسلامته، قال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثالثًا: ذمّ الإسلام أن يبالغ الإنسان في أداء العبادات وأنواع الطاعات إلى الحدّ الذي يُخرجها عن حدود ما شرعه الله وسَنّهُ الرسول ﷺ ويفوق الطاقة البشرية، ويصِل بها إلى الإجهاد البدني؛ لذلك نهى النبي ﷺ عن الابتداع في الدِّين، فقال ﷺ: ((مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ)) متفق عليه.

لهذا كان ﷺ يرقب أصحابه، فإذا رأى غلوًّا أو تشدّدًا في الطاعات نبّه عليه، وحذّر من عواقبه؛ ومن ذلك:

١. عن أنس > قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ. فلمّا أُخبروا، كأنهم تقالّوها، وقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخَّر.

قال أحدهم: أمّا أنا فأصلي اللّيل أبدًا. وقال الآخَر: وأنا أصوم الدّهر ولا أفطر. وقال الآخر: وأنا أعتزل الناس فلا أتزوج أبدًا.

فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمَا والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطِرُ، وأصلِّي وأرقد، وأتزوّج النساء. فمن رغِب عن سنّتي فليس مني)) متفق عليه.

٢. عن أنس > قال: دخل النبي ﷺ المسجد، فإذا حبلٌ ممدود بين الساريتيْن، فقال: ((ما هذا الحبل؟)) قالوا: هذا حبلٌ لزينب، فإذا فتَرَتْ تعلّقت به. فقال النبي ﷺ: ((لا. حُلُّوه! لِيُصَلِّ أحدُكم نشاطَه، فإذا فتَر فلْيرقُدْ!)) متفق عليه.

٣. عن عائشة > أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: ((من هذه؟)) قالت: فلانة تذكر من صلاتها. قال: ((مَهْ! عليكم بما تطيقون! فوالله لا يَمَلّ الله حتى تَمَلّوا)) متفق عليه.

((مهْ)) كلمة نهْي وزجْر.

٤. عن ابن عباس } قال: بينما النبي ﷺ يخطب، إذ هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل؛ نذَر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا

يستظل، ولا يتكلّم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: ((مُروه فلْيتكلّمْ، ولْيستظلّ، ولْيقعدْ، وليتمّ صومه)) رواه البخاري.

٥. عن أبي عبد الله جابر بن سمُرة { قال: ((كنت أصلّي مع رسول الله ﷺ الصّلوات، فكانت صلاته قصدًا، وخطبتُه قصدًا)) رواه مسلم.

ومعنى قصدًا: أي: متوسطة بين الطول والقِصَر.

رابعًا: رفَع الإسلام التكليف في الأمور التي لا يَملك الإنسان دفْعها، ومنها:

أحوال النسيان والخطأ والإكراه؛ فهي أمور قد تعترض الإنسان فتُوقعه في بعض الأخطاء التي ينأى عن فِعْلها إذا كان في غير هذه الحالات الثلاث. ومن رحمة الله بعباده أنْ رفَع عنهم الحرج والمشقّة؛ قال ﷺ: ((وُضع عن أمّتي الخطأ، والنسيان، وما استُكرهوا عليه))؛ لأن هذه من العوارض التي تعتري الإنسان، ولا يملك لها دفعًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أمّا النّسيان المتعمَّد لأوامر الله، والاستخفاف المستمرّ بشرع الله، فهذه أمور لا ينبغي على الإنسان أن ينساها ولا يتناساها طوال عمره. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ويدخل في قسم النّسيان والخطأ الذي لا يُعذر صاحبهما كلّ نسيان أو خطأ ناشئ عن التّهاون والإهمال والتقصير وعدم المبالاة؛ ولذلك أمَر القرآن الإنسان إذا ما نسي تذكّر الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، وأن يبادر إذا ما

أخطأ بالتوبة والاستغفار، قال ﷺ: ((كلّ بني آدم خطّاء، وخيْر الخطّائين التّوابّون)).

ولذلك خفّف الإسلام من عقوبة القتل الخطأ، وأثاب على اجتهاد الحكّام والعلماء، وجعل لهم أجرًا عن الخطأ وأجريْن عن الصواب؛ فعن عمر بن العاص } قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا حكَم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران. وإذا حكَم فاجتهد ثم أخطأ فله أجْر)) رواه الشيخان.

كذلك من أمَارات دفْع الحرج ودفْع المشقّة رفْع المؤاخذة عن المُكره إذا أُرغم على قوْل أو فعْل يخالف الإسلام، ولم يستطع الصّمود والمقاومة؛ قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ١٠٦].

أمَارات الاعتدال والوسطية في الدّعوة الإسلامية

من أمَارات الوسطية والاعتدال في الدّعوة إلى الله مراعاة غرائز الإنسان، وتحقيق مطالب النّفْس والجسد.

لقد أودع الله داخل الإنسان أنواعًا من الغرائز تتفاعل داخل كيانه، وتتدافع في تعادل دقيق وتوازن مُعجز، وهي أمر مشترك بين البشر جميعًا؛ غير أنهم متفاوتون فيها، إما بانضباطها والارتقاء بها والاعتدال في ممارستها، أو الانحراف بها عن الطريق السّويّ والسلوك المهذّب. فالغرائز استعداد فطري لا يحتاج إلى تعلّم، تدفع الكائن إلى القيام بسلوك خاص.

والدوافع التي تكمن وراء الغرائز صنّفها العلماء إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: دوافع تَكْفل المحافظة على بقاء الفرد، كالجوع والعطش اللّذان يُحرِّكان غريزة البحث عن الطعام.

النوع الثاني: دوافع تَكْفل المحافظة على بقاء النوع، كالجنس والأبوّة اللّذان يدفعان غريزتَيْ تجاذب الرّجُل للمرأة من خلال الحبّ الفطري الذي يوثِّقه عقد الزواج.

النوع الثالث: دوافع الطوارئ، وهي وثيقة الصّلة بالمحافظة على بقاء الفرد والنوع، كدافع المقاتلة، والخوف، والهرب.

النوع الرابع: دوافع تمكّن الفرْد من التّعرّف على البيئة التي حوله، كدافع الاجتماع، والتّعاون، وحبّ الاستطلاع.

وهذه الغرائز إن لم تُحكم بميزان الشّرع أو تُضبط بمقاييس العقل السليم فإنها تنطلق مسعورةً لإشباع حاجاتها دون رويّة وتدبّر، ودون الْتفات لأوامر الله، متجاهلة الأحكام الشرعية، ومحطِّمة للتقاليد الاجتماعية.

ولقد وضع الإسلام هذه الغرائز في حدود ما خلَقها الله مِن أجْله، ووضَع لها الضوابط وفْقَ ما شرعه الله من ثواب وعقاب وإقامة الحدود، وجعل السلوك الإنساني في إشباع تلك الغرائز يسير حسب سنن الفطرة، دون كبْت أو حرمان أو قهرٍ لها. ولم يترك الإسلام لها الحبْل على الغارب، لتندفع هائجة تُحطِّم القِيَم وتنتهك الأعراض.

فغريزة الجنس وضَع لها الإسلام الضوابط، حيث جعَل علاقة الرجل بالمرأة لا تتمّ إلا في إطار عقد الزواج، وسمّاه ﴿مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، ويسّر سُبل الزواج، وأباح التّعدّد لِمَن يقدر على ذلك. وأيّ علاقة بين الرجُل والمرأة بعيدة عن علاقات الزوجيّة فهي علاقة آثمة، ومن الكبائر التي توجب إقامة الحدّ في الدنيا وعذاب الله في الآخِرة إن لم يعلن ذوو هذه العلاقة عن توبتهما.

وغريزة حبّ المال وجمْعه وإنفاقه وضَع لها الإسلام النّظم والتشريعات التي تُشبع هذه الغريزة؛ فجعل جمْعه لا يكون إلّا من حلال، ولا يُنفق إلّا على الأهل أو في وجوه الخير، مع الاعتدال في النفقة. وقد أباح الإسلام حرّيّة التّملّك والتّصرّف، ولكن في حدود ضوابط الشرع وأحكامه.

وكذلك حرّم الله بعض المطعومات والمشروبات التي تَدفع بالإنسان إلى ضياع عقْله وهلاك صحّته، لتستقيم بذلك حياةُ الإنسان في تعادل وتناسق وتوازن يتلاءم مع فطرة الله التي فطر الإنسان عليها. قال تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولهذا حرّم الإسلام بعض الأمور التي قد تعود على الإنسان بالضرر، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌ﴾ [المائدة: ٣].

هذه بعضُ خصائص الدّعوة إلى الله التي تفرّد بها وتتميّز عن كافّة الشرائع والنُّظم الأخرى، قال تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

من صفات الدعاة

عناصر الدرس

العنصر الأول	: التمهيد في بعض صفات الأنبياء عامة، وصفات نبينا محمد ﷺ خاصة، وصفات الأمة الإسلامية	٢٧٧
العنصر الثاني	: الالتزام بما يدعو إليه، والبصيرة في الدعوة	٢٨٢
العنصر الثالث	: الاقتداء برسول الله ﷺ والتأسي به	٢٨٨
العنصر الرابع	: الإخلاص في القول والعمل	٢٩٣
العنصر الخامس	: نواقض الإخلاص	٣٠٣

التمهيد في بعض صفات الأنبياء عامة، وصفات نبينا محمد ﷺ خاصة، وصفات الأمة الإسلامية

إنّ تاريخ البشرية الضّارب في أعماق الزمن، والمُمتدّ عقِب قرون طويلة وحقبٍ متتابعة ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالدّعوة إلى الله، وامتزج بوحي السماء ورسالات الأنبياء امتزاجًا يتغلغل داخل النفْس البشرية، فأثّر في مشاعرها وسلوكها. وتطلّعت الإنسانية واشرأبّت أعناقها، وتعلّقت آمالها إلى تلك الكوكبة من الأنبياء والمرسَلين، الذين اصطفاهم الله من بيْن خلْقه، وربّاهم تربية خاصة، يتمثل فيهم الكمالُ الإنساني بأسمى صُوَره وأنبل مُثُلِه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج:٧٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

وذكر القرآن الكريم صُنْع الله المُتقَن في تكوين الأنبياء والمرسلين، وإعدادهم الدقيق ليتحمَّلوا أعباء الدعوة إلى الله؛ فقال الله عن موسى # : ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩].

وتحدّث القرآن عن يوسف # فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤].

وأخبر القرآن الكريم عن إعداده لِيحيى # وهو ما زال صبيًّا، فقال تعالى: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴾ [مريم: ١٢].

وتُوِّج هذا الإعداد والاصطفاء والاختيار بأشرف الخلْق وخاتم الرّسُل محمد ﷺ الذي أعدّه الله للنبوّة والرسالة قبل خلْق آدم # ؛ فعن العرباض بن سارية

قال: قال رسول الله ﷺ: ((إني عند الله لَخاتَمُ النّبيِّين، وإنّ آدم لَمُجَنْدَلٌ في طينَتِه)) مسند الإمام أحمد.

قال تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩] عن ابن عباس { قال: "تقلّبك من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجتُك نبيًّا".

قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [التوبة: ١٢٨] بفتح الفاء، وقرأ جمهور القراء بالضّمّ.

وروى عليّ بن أبي طالب > عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾، قال: ((نَسَبًا وصِهرًا وحَسَبًا؛ ليس في آبائي مِن لدن آدم سِفاح. كلّها نكاح)).

وهذا الإعداد الإلهي أشار إليه القرآن الكريم في مطلع سورة (النجم)، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾ [النجم: ١ - ٥].

ولقد وصفه الحق -تبارك وتعالى- بأوصاف انفرد بها ﷺ عن غيره؛ فهو نور، قال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة: ١٥].

وهو سراج منير، قال تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٦١].

وهو خالد الذّكر إلى يوم القيامة وما بعدها، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ [الشَّرح: ٤]. قال قتادة: "رفَع الله تعالى ذكْره في الدنيا والآخرة؛ فليس خطيب، ولا مُتشهِّد، ولا صاحب صلاة إلا يقول: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله".

وروى أبو سعيد الخُدْري > أن النبي ﷺ قال: ((أتاني جبريل # فقال: إنّ ربّي وربّك يقول: تدري كيف رفعتُ ذكْرَك؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: إذا ذُكرتُ ذُكرْتَ معي)).

هذا الاجتباء والاصطفاء والاختيار والإعداد لرسول الله ﷺ شَمل فضلُه وشرفُه هذه الأمّة.

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فازدادت مكانة الأمّة وعلا شأنها بين العالمين بِشرف اتّباعهم لرسول الله ﷺ والتزامهم بشرْعه، وحملهم لدعْوته، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

وعن فضْل رسول الله ﷺ وفضْل أمّته قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهذه الأمّة نبْت طيِّب مبارك، غُرستْ جذورها، وتسامتْ فروعها، وامتدّ خيْرها، وعمّ نفعُها العالمين، مِن خلال القرآن الكريم وسُنّة الرسول ﷺ فهي تتحمّل على عاتقها وحْدها دون سواها من الأمم حفْظ وتبليغ وحْي السماء، ورسالات الأنبياء، وسلوك الأتقياء، ومطالَبَةٌ شرْعًا، وواجبٌ عليها أن تَحمل أمانة الماضي والحاضر والمستقبل؛ فسعادة البشرية في الدنيا والآخرة مرتبطة بهذه الأمّة، ومرتبطة بدعْوتها إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فأمّة الدّعوة إلى الله مطالبةٌ وجوبًا وشرعًا أن تصحّح عقائد البشرية، وأن توجّهها إلى الصراط المستقيم والسلوك القويم، وأن تُقيم موازين الحقّ والعدل والأمْن في العالم، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٣].

هذه الوصايا هي الأسس العقائدية والسلوكية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، وتُمثِّل وحدة التربية العقائدية والعقلية، والتزكية القلبية، والطهارة النفسية للبشرية، والتي قامت عليها الدّعوة إلى الله والتزكية عبر مسيرة الإنسانية، حتى وصلت إلى خاتَم الرسل ﷺ. وتحمّل المسلمون شرَف تبليغها، والجهاد من أجلها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٤٤].

ولقد ذكَر القرآن الكريم أنّ عُلوّ مكانة المسلمين، وارتفاع شأنهم وذِكْرهم بين العالمين لن يكون إلا بهذا الدِّين؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

ولن يتسنّى تحقيقُ هذا الواجب الشرعيّ على المسلمين إلا بوجود دُعاة إلى الله ذوي مواهب خاصّة، وملَكات معيّنة، وقدرات متميّزة؛ لأنهم يدْعون إلى وحي السماء ورسالات الأنبياء.

إنهم دُعاة إلى الله، فهم يتحرّرون من التّبعيّة لأيّ عقيدة وفكْر غير الإسلام، ولا يخضعون لرأي يُخالف ثوابتهم الدِّينية وأصولَهم العقائدية. إنهم يحملون في صدورهم خير الأعمال منزلةً وأشرفها مكانةً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣].

ويجب أن يعرف الدّعاة أن الدّعوة إلى الله هي تاجٌ على رءوسهم، وشرَف يزيّن جباهَهم، لأنهم يضمّون بين حنايا قلوبهم وطوايا نفوسهم أشرفَ عمل لأعظم رسالة، وأسمى هدف لأكرم غاية، توجب على الناس السماعَ إليهم وإجابة دعوتهم، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢].

وعلى الأمّة أن تنتقي مِن بين أبنائها صفْوة العقول وخلاصَة النابهين، وأن تُعِدّهم إعدادًا عقائديًّا وفكريًّا وسلوكيًّا للقيام بأعباء الدَّعوة إلى الله.

هذا هو الواجب المأمول وما ينبغي أن يكون. غير أنّ واقع الدّعاة في جميع بلاد المسلمين يُرثى له ويؤسَف عليه؛ فالدعوة إلى الله وما يتعلّق بشئونها تأتي في مؤخّرة الاهتمامات، وأقسام الدّعوة في الكلّيّات تكاد تغلق أبوابها من قلّة الراغبين فيها، ولا يلتحق بها إلا أصحاب المجاميع المتدنّية والقُدرات المتواضعة. وقد يبرز من بين هؤلاء من وهَبَهم الله ملَكات الدّعوة ومقوّماتها، ولكنّ عددَهم في كلّ دفعة لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، ليتحقّق بهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩].

وسوف نبيِّن في المباحث التالية صفات الداعي، وما يجب أن يتحلّى به خُلُقيًّا وفكريًّا وعلميًّا.

الالتزام بما يدعو إليه، والبصيرة في الدعوة

أولًا: الالتزام بما يدعو إليه:

إنّ أُولى خُطوات نجاح الدّاعي في دعْوته، واستماع الناس له، وتأثّرهم به والتفافهم حوله يرجع إلى القُدوة الحسَنة والأسْوة الطّيِّبة، وأن يكون في تصرّفاته ومعاملاته مرآةً صادقة ونموذجًا حيًّا لِمَا يدعو إليه.

ولقد كان من أبرز عوامل نجاح الرسول ﷺ في دعْوته إلى الله أنه كان يجسِّد الكمال البشريّ أمام قوْمه، حتى أنهم قبل البعثة كانوا يُلقِّبونه بـ"الصادق الأمين". وظهرت أخلاقه الحميدة وسجاياه الكريمة منذ أن كان شابًّا؛ فقد تحدّث عمّه أبو طالب عنه حينما ذهب يخطب إليه السيدة خديجة > مِن عمّها عمرو بن أسد، وممّا جاء في خطبة النكاح: "ثم إنّ هذا محمدٌ بن عبد الله، لا يوزن به رجُلٌ إلا رجح به شرفًا ونبلًا وفضلًا وعقلًا. وإن كان في المال قلّ فإنّ المال ظلّ زائل، وأمْر حائل، وعارية مُسترجَعة. وهو -والله- بعد هذا له نبأ عظيم وخطْبٌ جليل".

فقال عمرو بن أسد عمّ السيدة خديجة > عن رسول الله ﷺ: "هو الفحل لا يُجدع أنفُه".

وحينما وقف النبي ﷺ على جبل الصفا يُعلن على أهل مكة الإسلام، فقال لهم: ((لو أخبرتُكم أنّ خيلًا وراء هذا الوادي تُريد أن تُغير عليكم، أكنتم مُصدِّقيّ؟)) قالوا: "نعم؛ ما جرّبنا عليك كذبًا قط".

فلقد كان ﷺ موضع ثقة قريش، ومحلّ احترامها. وكان له الفضل الكبير قبل البعثة في رأب الصدع، ومنْع الحرب التي كادت تنشب حينما اختلفوا على مَن ينال منهم شرَف وضْع الحجر الأسود مكانَه عند إعادة بناء الكعبة. وحينما أبصروه ﷺ قالوا: "هذا هو الأمين! ارتضيناه حَكَمًا".

إذا كان هذا خُلُق الرسول ﷺ قبل البعثة التي تفرّد بها بين أقرانه فإنّ الأمْر بعد البعثة وخلال مراحل الدّعوة في مكة المكرمة والمدينة المنورة اختلف اختلافًا كثيرًا؛ فلقد أصبح ﷺ رسول الله إلى الإنسانية جمعاء؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومِن ثَم، أصبح ﷺ القُدوة الحسَنة والأسوة الطيبة، فكان بحقٍّ قرآنًا يمشي على الأرض.

فقد سئلت السيدة عائشة > عن خُلُقه ﷺ فقالت: ((كان خُلُقه القرآن)).

وأخبر القرآن الكريم عن خُلقه ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ولقد وجد الصحابة -رضوان الله عليهم- في الرسول ﷺ المَثل الأعلى والنموذج العظيم في الخُلُق الكريم، والأدب الرفيع، والسلوك المهذّب العالي؛ فاقتدَوْا به، والتزموا بأقواله وأفعاله. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

يقول ابن كثير: "هذه الآية: أصل كبير في التّأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمَر الله -تبارك وتعالى- الناس بالتّأسي بالنبيّ ﷺ يوم

الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، وانتظار الفرَج من ربه ﷻ صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدِّين".

وقد أصبح من كمال إيمان المؤمن: الاقتداء برسول الله ﷺ والتّحلّي بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيم، ومحامد الفضائل، التي اشتهر بها ﷺ وإذا كان هذا لازمًا للمسلمين جميعًا فإنه للداعي أكثر لزومًا وأشدّ وجوبًا. فينبغي أن يكون في سلوكه وتصرّفاته مثلًا أعلى لِمَن يَدْعوهم، ونموذجًا يَقتدي به ويحتذي حذْوه الآخَرون. فحيثما يدعو إلى فضيلة من الفضائل يكون عنوانها والرائد فيها. وإذا ما دعا إلى عمل من أعمال الخير والبرّ يكون له قصب السّبْق في هذا المضمار ولو بالقليل. ولو نهى عن منكر يكون أوّل البعيدين عنه.

وإن من معوقات الدّعوة، ومن أسباب فشل بعض الدعاة أنّ أفعالهم تُخالف أقوالهم، وأنّ سلوكهم يتنافى مع ما يَدْعون إليه. فيدعو أحدُهم إلى الكَرَم وهو لا يجود ببعض ماله -وإن قلّ- في سبيل الله. ويتحدّث عن الشجاعة وهو يرتعد خائفًا مذعورًا من كلمة حقّ أمام سلطان جائر.

ولقد عاتب الله جماعة من المؤمنين؛ لأنّ أفعالهم تتناقض مع أقوالهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣].

كما فضح الله سلوك بني إسرائيل ومَنْ على شاكِلتهم ممّن يأمُرون الناس بالبرِّ ولا يفعلونه، وينهوْن عن الفحشاء والمنكر ويرتكبونها، قال تعالى: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤].

فإنّ من أعظم القبائح والذنوب أن يعْرف العالِم والدّاعية الخير ويدعو إليه، وهو أبعد الناس عنه، وينهى عن المنكر ويفْعله.

ولقد شبّه الرسول ﷺ مَن يَعِظ غيره ولا يَتّعظ بمن يكون كالسراج: يُضيء للناس ويُحرق نفْسَه.

فعن جُندب بن عبد الله > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَثَل العالِم الذي يُعلِّم الناسَ الخيْر ولا يعمل به، كمَثَل السِّراج يُضيء للناس ويُحرِق نفْسَه)) رواه الطبراني.

وعن أنس بن مالك > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مررتُ ليلة أُسْرِي بي على قوم تُقرَض شِفاهُهم وألسنتُهم بمقاريض من نارٍ، قلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خُطباء أمّتك الذين يأمرون الناس بالبِرّ وينْسَوْن أنْفسَهم)) رواه ابن حبان.

وعن أسامة بن زيد بن حارثة > قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((يُؤتَى بالرّجُل يوم القيامة، فيُلقَى في النار، فتندلِق أقتاب بطنه -أي: تخرج أمعاؤه- فيدور بها كما يدور الحمار في الرّحَى. فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لَك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهَى عن المنكر؟ فيقول: بلَى، قد كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه)) متفق عليه.

وممّا تجدر ملاحظته: أنّ الداعية قد يأمر ويحثّ على فعل خير وليس في استطاعته القيام به؛ فهذا لا حرج عليه، كمَن يدعو إلى الجهاد في سبيل الله، وتمْنعه من المشاركة عاهة أو كِبَر سنّ، أو كمَن يحثّ الأغنياء بدفْع زكاة أموالهم، وهو لا يَملك نصابًا. أمّا الجرم الأكبر: أن يقترف المنكرات، وهو يعلم حرمتها.

فعن أنس > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله يعافي الأمِّيِّين يوم القيامة ما لا يُعافي العلماء)) ابن كثير.

روى الوليد بن عقبة > عن النبي ﷺ قال: ((إنّ أناسًا من أهل الجنّة يطّلعون على أناس من أهل النار، فيقولون: بِم دخلْتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنّة إلا بما تعلّمْنا منكم. فيقولون: إنّا كنّا نقول ولا نفعل)) ابن كثير.

قال الإمام علي بن أبي طالب > : "من نصّب نفسه إمامًا للناس فلْيَبْدأْ بتعليم نفْسه قبْل تعليم غيره، ولْيَكنْ تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه. ومعلّم نفْسه ومُهذِّبها أحق بالإجلال من معلِّم الناس ومهذِّبهم".

وهل يجني الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ولا يتّعظون، ويُرشدون ولا يسترشدون إلا سخرية العباد وسُخط ربّ العباد.

ولهذا قيل: "فِعْل رجل في ألْف رجُل أقوى من قول ألْف رجُل في رجُل".

وعلى الدّاعية: أن يكون أحرص على إصلاح سِرّه منه على إصلاح جَهره، وليكن اهتمامه بنظافة باطنه أكثر من اهتمامه بنظافة ظاهره.

وعلى الدّاعية: أن يكون صريحًا من نفسه، فلا يخادعها، ومع الناس فلا يرائيهم؛ وليس هذا شأن الدعاة فحسب، ولكن شأن كلّ مَن يلي أمرًا من أمور المؤمنين في كلّ شئون الحياة.

ولقد تحدّث الشعراء والأدباء عن أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون؛ ومن ذلك:

يا واعظ الناس قد أصبحت مُتّهَمًا ❖ إذ عِبت منهم أمورًا أنت تأتيها
أصبحت تنصحُهم بالوعظ مُجتهدًا ❖ والموبقات لَعَمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناسًا راغبين لها ❖ وأنت أكثرُ الناسِ رغبةً فيها

ومن عيون الشعر العربي:

لا تَنْه عن خُلُق وتأتي مثلَه ❖ عارٌ عليك إذا فعَلتَ عظيمُ

وإنه من عوامل نجاح الدّعاة إلى الله أن تتحقّق فيهم الأمور التالية:

الأمر الأول: عُمق الإيمان بما يَدْعون إليه، وكمالُ الاقتناع بما ينصحون به:

وهذا الشرط واجب التّحقيق في كل داعٍ. فإن تستّر بستار زائف من الإيمان الظاهري الذي لم يتغلغل في عقله ويستقرّ في مشاعره وعواطفه، وإن تظاهر في صورة حَمل وديع، ولكنّ قلبه قلب ذئب مفترس، فقد نقله الشّرع من جماعة المؤمنين إلى زمرة المنافقين؛ قال ﷺ: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذَب، وإذا وعَد أخلف، وإذا اؤتُمِن خان)).

فإنّ هؤلاء يخدعون أنفسهم، قال تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩].

الأمر الثاني: القيام الفعليّ بأداء الدّاعي ما يدعو إليه أو ينصح به:

إنّ قيام الدّعاة إلى الله بأداء ما افترض الله على عباده من عبادات، وما أمَر به من طاعات: معيار النّجاح في دعْوتهم واقتناع الناس بهم؛ ولذلك أمَر الله ﷻ الرسول ﷺ والمسلمين معه بالاستقامة في أداء العبادات واجتناب المنهيّات، قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [هود: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ [الشورى: ١٥].

ولقد كانت أهمّ عوامل انتشار الإسلام، واقتناع الناس به: أنهم وجدوا في أقوال الرسول ﷺ وأفعاله صورة صادقةً وواقعًا ملموسًا لِما يدعو إليه.

وهذا ما بيّنه جيفر بن الجلَنْدى ملك عُمان عن سبب إسلامه بعد أن أرسل ﷺ له برسالة مع عمرو بن العاص.

قال جيْفر: "إنه -والله- لقد دلّني على هذا النبي الأمّي أنه لا يأمر بخير إلا كان أوّل مَن أخذ به، ولا ينهى عن شرّ إلا كان أوّل تاركٍ له، وأنه يَغلب فلا يَبطر، ويُغلب فلا يَضجر، وأنه يفي بالعهد ويُنجز الوعد".

الأمر الثالث: الدّعوة إلى الله على بصيرة:

فإنّ من عوامل نجاح الدّعاة إلى الله: أن يكونوا على علْم وافٍ لِما يدعون إليه، وعلى بصيرة بأمور الدِّين، ووعي تامّ بأحوال المجتمعات التي يدعون إلى الله فيها، وأن تكون لديهم رؤية ثاقبة ونظرة فاحصة لِما يطرأ على ميادين الدّعوة إلى الله من موانع ومعوقات، وكيف يتعاملون معها بالحكمة والموعظة الحسَنة دون إثارة الشحناء والبغضاء؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وسوف نوضّح مفهوم الدّعوة على بصيرة في مبحث خاص -إن شاء الله تعالى-.

الاقتداء برسول الله ﷺ والتّأسّي به

لقد تجمّعت ينابيعُ وروافدُ الرسالات السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه ورسُله عبر تاريخ الإنسانية في رافد واحد وهو: الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

وتجسّدت أخلاق وشمائل الأنبياء والمرسلين جميعًا في شخص سيّدنا محمد ﷺ الذي نسختْ رسالته كلّ الرسالات، وختم الله به الأنبياء والرسُل، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وشخصية الرسول ﷺ تكمن فيها جوانب العظمة، ويتعدّد فيها الكمال البشريّ المتوّج بوحي الله، فيزيده تألّقًا وجلالًا وجمالًا. وقد وصَفه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

إنّ شخصية الرسول ﷺ كنجوم السماء المتلألئة التي تُبدِّد ظلمة الليل وتُبشِّر بضوء الصباح، ولا يعرف الناس عن أحجامها وأجرامها إلا القليل؛ ومهما استجلى حقيقتَها العلماء ورصدتْها المراصد والمطالع الفلَكية فإنها لا تحصل إلا على النّزر اليسير عن مقدارها.

والرسول ﷺ اصطفاه الله من بين البشر، وفضّله على سائر الخلْق، وأسبغ عليه من فضائل الأخلاق ومحامد الصفات وحسن الأقوال والأفعال، ما لا يُمكن حصْره، ممّا جعلَه قدوة حسَنة وأسوة طيّبة ورحمة للعالمين؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولقد حدّد القرآن الكريم معالم وملامح الرسول ﷺ وبيّن هدف رسالته والغاية المرجوّة فيها في آيتيْن، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وحياة الرسول ﷺ غزيرة العطاء، كثيرة المحامد، تتعادل كلّها وتتوازن في تناسق وتكامل، فلا يبرز خُلُق عن خُلُق آخر، ولا تعلو صفة على صفة أخرى.

فهو ﷺ مَعين لا يَنضب لكلّ خُلُق، ونهر عذب فرات يروي ظمأ كل مغترف منه. فهو البشر الرسول المؤيَّد بالوحي، المعصوم من الزلل والخطأ. تتألّف فيه شخصية المربِّي والمعلِّم والموجِّه لأصحابه إلى مجامع الخير. وهو القائد البارع الذي

يقود الجيوش، ويبعث بالسرايا، ويُعطي المَثَل الأعلى في تنظيم الجيوش وآداب الحروب. وفي ميدان السياسة، فهو ﷺ السّياسيّ البارع الذي يملك نواصي القلوب بالحكمة والموعظة الحسنة، يستقبل الوفود، ويرسل الرسل، ويبعث بالكتب إلى أكاسرة الفُرس وقياصرة الرّوم وأمراء الجزيرة. وهو ﷺ خير زوج يُحسن معاملة زوجاته، ويَعدل بينهنّ، ويستمع إليهن، ويأخذ برأيهنّ، وتتملّكه الرحمة والشفقة بالمؤمنين وبالإنسانية جمعاء، وعلى كلّ من حوله حتى الحيوانات.

وهكذا كلّ ميدان من ميادين الحياة الدِّينية والاجتماعية، تتألق فيها عظمة الرسول ﷺ ويكون هو الرائد فيها، والمَثَل الأعلى لأمّته وللإنسانية إلى قيام الساعة.

وما انتكست البشرية في أخلاقها، وما تدهورت أوضاعُها، وما فقد العالَم الأمن والأمان، إلا بسبب عدم الاقتداء برسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

والاقتداء برسول الله ﷺ ليس ترفًا فكريًّا، أو سلوكًا اختياريًّا، تأخذ به الأمّة متى شاءت، وتتغاضى عنه متى أرادت؛ بل هو أصْل من أصول الإسلام، وجوهر عقيدة هذا الدِّين، ومعْلم بارز من ثوابت هذه الأمّة وملامح شخصيّتها التي تميّزت بها عن الناس جميعًا؛ قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وحبّ الرسول ﷺ ليس كلمات تُردَّد، وأناشيد يشدو بها المُنشِدون، ولكنه حبّ عميق، والتزام بشرْعه، واقتداء بسنّته واتِّباع لشخصه؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

هذا الاقتداء والحبّ يجب أن يضعَه المسلم في مقدّمة أموره، ويجعله من أوّليات حياته، وأن لا يعادل به الدنيا بأسرها.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ولقد بيّن القرآن الكريم: أن الاستجابة لأمْر الله والاقتداء برسول الله هو إكسير الحياة الكريمة العزيزة لهذه الأمّة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولقد وضحت شفقةُ الرسول ﷺ على هذه الأمّة، ورحمتُه بها، ومدى حاجتها إلى سُنّته والاقتداء به، ولا سيما الدّعاة إلى الله؛ فعن جابر > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَثَلي ومَثَلكم كمَثَل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفراش يقعْن فيها، وهو يذبّهن عنها. وأنا آخذ بحُجزكم عن النار، وأنتم تفلّتون من يديّ)) رواه مسلم.

الجنادب: مثل الجراد والفراش الذي ينجذب للنار، والحُجُز: جمع حُجزة، وهو: معقد الإزار. ولقد تعدّدت النصوص من القرآن والسُّنّة على وجوب الاقتداء بالرسول ﷺ.

فمن القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

ومِن السنة:

١. عن العرباض بن سارية > قال: وعَظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغةً، وجلتْ منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع، فأوْصنا! قال: ((أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطاعة، وإن تأمّر عليكم عبدٌ حبشيّ. وإنه مَن يعِشْ منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا. فعليْكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديِّين! عَضّوا عليها بالنواجذ! وإيّاكم ومُحدَثات الأمور! فإنّ كل محدَثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة)) رواه أبو داود، والترمذي وقال: "حديث حسن صحيح".

٢. قال ﷺ: ((تركْتُ فيكم ما إن تمسّكتُم به لن تضِلّوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسُنّتي)).

وإذا كان الاقتداء برسول الله ﷺ أمرًا واجبًا على مجموع الأمّة، فهو على الدّعاة إلى الله أشدّ وجوبًا؛ لأنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، وينبغي عليهم أن يتّبعوا خُطى النبي ﷺ في دعْوته، وأن ينهجوا نهجه في وسائل الدّعوة وأساليبها، ويتأسّوْا به ﷺ في التّغلّب على معوقات الدّعوة والصبر على القيام بها.

ويجب على الدّعاة إلى الله أن لا يقف الأمر على مجرّد الاقتداء والاتّباع، ولكن ينبغي عليهم أن يُدافعوا عن سُنّة الرسول ﷺ وأن يَردّوا عنها شبهات المستشرقين ومطاعن بعض العلمانيِّين من أبناء المسلمين، الذين تربّوْا على موائد الغرب، وتبنّوْا ثقافتهم وفكرهم المُعاديَ للإسلام.

بهذا يصبح الاقتداء فكرًا وعملًا وتخطيطًا، وإبرازًا لدعوة الرسول ﷺ من كافّة جوانبها.

الإخلاص في القول والعمل

الإخلاص هو: تجريد قصْد التّقرّب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب. فكلّ شيء يُتصوّر أنه يشوبُ لغيره، فإذا صفا عن شوْبه وخلُص سُمِّي: خالِصًا.

ويُسمَّى الفعل المصفّى المخلّص: "إخلاصًا"، قال تعالى: ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦].

فإنما خلوص اللّبن بأن لا يكون فيه شائبة من الشوائب، من الدم أو الفرْث، ومن كلّ ما يمتزج به.

والإخلاص يضادّه: "الإشراك"؛ فمن ليس مخلِصًا فهو: مُشرِك. والشّرك درجات، كما أنّ للإخلاص درجات. فالتوحيد يضادّه: الإشراك في الألوهية. والشرك منه خفِيّ ومنه جليّ، فالجليّ هو الشِّرك الأكبر، كاتخاذ الشركاء والأنداد؛ وهو من الكبائر التي لا تُغتفر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال ﷺ: ((اجتنِبوا السّبْع الموبقات)) وعدّ في مقدّمتها الإشراك بالله. أمّا الشّرك الخفيّ فهو ما يتسرّب إلى أعمال القلوب وخفايا النفوس؛ وهذا لا يطّلع عليه إلا علام الغيوب، قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [النساء: ١٤٩].

والاعتبار في الإخلاص يتوقّف على حُسن النِّيّة وصحّة قصْد الفعل لله؛ فكلُ حظّ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النّفْس ويميل له القلب -قلّ أم كثُر- إذا تطرّق

إلى العمل، تكدّر به صفوُه وزال به إخلاصه. والإنسان قلّما ينفكّ فعلٌ من أفعاله أو قولٌ من أقواله مِن أغراض الدنيا. وتتوقّف درجة الإخلاص على مدى الباعث على أداء العمل؛ فكلما تجرّد العمل لله، وخلُص القصد له صحّ الإيمان؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولقد ذكّر الله عبادَه بالإخلاص في كلّ صلاة يؤدّونها، حيث يقرأ المسلم في كلّ ركعة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والمعنى: قصْر العبادة والاستعانة بالله دون أحدٍ من الخلْق.

وهذا ما أمَر به ﷺ عبد الله بن عباس } منذ أن كان غلامًا؛ فقد روي عنه أنه قال: ((كنتُ خلْف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: يا غلام، ألاَ أعلِّمْك كلمات؟ قال: بلى، يا رسول الله. قال: احفظِ الله يحفظْك. احفْظ الله تجدْه تجاهك. وإذا سألْتَ فاسأل الله. وإذا استعنْتَ فاستعِنْ بالله. واعلمْ أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك. واعلمْ أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفعت الأقلام وجفّت الصّحف)) الحديث.

ولقد كان الإخلاص في الدّعوة إلى الله منذ فجر الإسلام من أكبر عوامل نجاحه وانتصاراته.

فالرسول ﷺ خلال مراحل الدّعوة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، كان نموذجًا حيًّا، ومثالًا صادقًا للإخلاص، حتى أن انشغاله بأمور الدّعوة مَلَك كلّ لحظات حياته لدرجة أن الله ﷻ أشفق عليه من همومه وحرْصه على إدخال الناس في

دين الله ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦].

كما ظهر إخلاصُه ﷺ في العبادة، فكان يقوم من اللّيل حتى تتورّم قدماه ﷺ، فلما سُئل عن ذلك قال ﷺ : ((أفلا أكون عبدًا شكورًا!)).

وإخلاصه ﷺ في الجهاد في سبيل الله كان من أكبر عوامل انتصاراته، يُرى هذا من خلال الإخلاص في الإعداد الجيِّد للمعركة، والتعبئة المعنوية والقتالية، والحرص على سماع آراء أصحابه. ويتّضح عمْق إخلاصه ﷺ في معركة بدر الكبرى، بعد أن أتم الاستعداد، وعبّأ النفوس، أخذ يدعو الله بإخلاص وصدْق، مستغيثًا بالله وملتجئًا إليه طالبًا النصر، حيث قال : ((اللهم إنّ هذه قريش أتت بخيلها وخُيلائها تُحادُّك وتكذّب رسولك، اللهم فنَصْرك الذي وعدْتَني به، اللهمّ إنْ تهلْكْ هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض بعد اليوم)). وظلّ يدعو حتى سقط الرداء من على كتفيْه.

وأبو بكر الصديق > يردّ عليه رداءه ويقول : "يا رسول الله. بعض مناشدتك ربّك! إن الله منجزٌ لك وعْدَه".

وكان من ثمار هذا الإخلاص : أن تنزّلت الملائكة بقيادة جبريل # حيث بشّر ﷺ أبا بكر > وقال له : ((أبْشِرْ يا أبا بكر ؛ هذا جبريل على مثار النقع، جاء يحارب في سبيل الله)).

قال تعالى : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢]. وما ذلك إلا أثرٌ من آثار الإخلاص.

ولقد تشرّب الصحابة } روح الإخلاص، وضربوا في ذلك أمثلة نادرة فيه، تلألأت بها صفحات الإسلام. ومن ذلك: إخلاص جعفر بن أبي طالب في مناقشته مع نجاشي الحبشة، وصدْقه وإخلاصه في إبداء رأي الإسلام في عيسى # . وقد كان من ثمرة إخلاصه > : أنّ النجاشي رقّ قلبه وبكى، حتى اخضلّت لحيتُه، وقال: "إنه وعيسى ليخرجان من مشكاة واحدة"، وأبقاهم في الحبشة هو ومَن معه من المسلمين، ولم يُسلمهم لعمرو بن العاص.

ولقد كان الإخلاص الذي تخلّق به مصعب بن عمير > من أكبر أسباب دخول الأوس والخزرج في الإسلام.

وأصبح الإخلاص خُلُق المسلمين، يتميّزون به وينفردون به عن غيرهم من الأمم، يأخذونه من سلَف الأمّة إلى خلَفها، من الفقهاء والدعاة. وغدا الإخلاص من أهمّ عوامل نجاح الدّعوة إلى الله، ومن الأسباب الرئيسة والوسائل المفيدة في اقتناع المَدعُوِّين وتأثّرهم واستجابتهم لِما يُلقى عليهم من تعاليم الشّرع الحكيم وبيان أحكامه.

وما انتشر الإسلام في أرجاء العالَم إلا مِن خلال صدْق النية، وإخلاص التّوجّه إلى الله، والتجرّد من كلّ شوائب الإشراك في الأعمال، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

تابع الإخلاص في القول والعمل:

فخُلُق الإخلاص من محامد الإسلام وفضائله، وقد حظي في رحاب القرآن والسُّنّة بتوجيه المسلمين إليه، وحثّهم عليه.

والرسول ﷺ هو القدوة الحسنة والأسوة الطّيبة في الإخلاص، وقد أمره الله به في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٢، ٣].

وخوطب به الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة: ٥].

ومعنى ﴿حُنَفَآءَ﴾ سُمحاء، ومن ذلك قوله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: ((إني أُرسِلْتُ بحنيفيّة سَمْحة)).

ومن معنى ﴿حُنَفَآءَ﴾ أي: مُتحنِّفين، أي: مائلين عن الشرك إلى التوحيد، ومعنى ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، أي: المِلّة القائمة العادلة، أو الأمّة المستقيمة المعتدلة.

وإخلاص القلوب، وسلامة النوايا، وحسْن الطّوايا: سرّ من الأسرار، لا يطّلع عليه إلا علام الغيوب والعالِم بما في الصدور، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

ولذلك كان ميزان صحّة العقيدة وإخلاص القصْد لله هو: السلامة من كلّ مظاهر الشرك، وحُسْن النّية في أداء العبادات والطاعات وسائر الأعمال؛ فعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى. فمَن كانت هجرْتُه إلى الله ورسوله فهجْرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لِدنيا يُصيبها أو امرأة يَنكحها فهجْرتُه إلى ما هاجَر إليه)) رواه الشيخان.

فهذا الحديث الشريف أصلٌ عظيم من أصول الإسلام، وقاعدة ثابتة تحكُم على تمحيص الأعمال وتخليصها مِن كلّ شوائب الشّرك وكلّ علامات الرياء.

فعن أبي هريرة > قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: أنا أغنى الشّركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركْتُه وشِركَه)) رواه مسلم.

وقد بيّن الرسول ﷺ أنّ أوّل ما يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة هو إخلاص النّيّة لله عند أداء العمل؛ فعن أبي هريرة > قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إنّ أوّل الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهد، فأُتِيَ به فعرّفه نِعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدْتُ. قال: كذبْتَ! ولكنك قاتلْتَ لأن يُقال: جريء؛ فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلّم العلْم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتِيَ به فعرّفه نِعمَه فعرفها. قال فما عملْتَ فيها؟ قال: تعلمت العلْم وعلمّته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبتَ! ولكنك تعلّمت ليقال: عالِم، وقرأت لِيُقال: قارئ؛ فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كلّه، فأتيَ به فعرّفه نِعَمَه، فعرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تُحبُ أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبتَ! ولكن فعلت لِيُقال: هو جواد؛ فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه، ثم ألقي في النار)) رواه مسلم.

إن هذا الحديث الشريف يوجب على الدّعاة أن يراجعوا مواقفهم، وأن يعيدوا ترتيب حساباتهم في كلّ موعظة يعظون الناس بها، ويسألون أنفسهم: كم هي بعيدة أو قريبة من فضيلة الإخلاص؟

وعلى العلماء والمفكّرين أن يتساءلوا: أين ميزان الإخلاص في نتاجهم الفكري وآرائهم العلْميّة؟ وما هي طوايا نفوسهم؟ وإلى من يقصدون بأفكارهم؟

فعن أبي هريرة < قال: قال رسول الله ﷺ: ((من تعلّم علمًا ممّا يُبتغى به وجهُ الله ﷻ لا يتعلّمه إلّا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا، لم يجِدْ عَرْفَ الجنّة يوم القيامة)) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

عَرْف الجنة: أي ريحها.

أمّا إذا توجّه العلماء والدّعاة في ميدان العلْم والدّعوة، وهم يتجرّدون من شبهة الرياء والنفاق، ثم أُثنِيَ عليهم ولهجَتْ ألْسنة الناس بشكرهم، فإنّ هذا لا يُقلِّل من قيمة إخلاصهم؛ فعن أبي ذر < قال: قيل لِرسول الله ﷺ: أرأيتَ الرّجُل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: ((تِلك عاجِل بُشرى المؤمن)) رواه مسلم.

وعلى أولي الأمْر أن يفتحوا قلوبهم ويمدّوا أيديهم للمخلصين الصادقين الذين يتوسّمون فيهم الإخلاص والصّدق، ولا يُبعدونهم عنهم ولا يتخلّصون منهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

إنّ قيمة المؤمن -ولا سيما الدّعاة إلى الله- لا تكمن في رفعة منصب أو علوّ منزلة، وإنما تكمن فيما يحمله قلبه من إخلاص، ينعكس هذا على ما يدعو إليه

الناس. روي عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله تعالى لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالِكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) رواه مسلم.

وروي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: ((يُبعثُ كلّ عبدٍ على ما مات عليه)) رواه مسلم. أي: من الإخلاص أو عدَمه.

والإخلاص ثوابه كبير ومَهره غالٍ. وقد يُبتلى الدّعاة ويُفتنون ليُتبيّن حقيقة إخلاصهم وصدقُ نواياهم، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

فعلى قدْر إخلاص الدّعاة يكون العوْن من الله؛ فكلّما زاد الإخلاص زاد التأييد والتوفيق من الله. وكلّما ضعُف الإخلاص وتلاشى قلّ عون الله وتأييده.

ويحكى في هذا قصّة رمزية: "أنّ عابدًا كان يعبد الله دهرًا طويلًا، فجاءه قومٌ فقالوا: إنّ ها هنا قومًا يعبدون شجرة من دون الله تعالى. فغضب لذلك، وأخذ فأسَه على عاتقه، وقصَد الشجرة ليقطعها. فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة. قال: فإني لا أتركك أن تقطعها. فقاتله. فأخذه العابد فطرَحه إلى الأرض، وقعد على صدره. فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلِّمك! فقام عنه. فقال إبليس: يا هذا، إن الله تعالى قد أسقط عنك ولم يفرضه عليك. وما تعبُدها أنت، وما عليك من غيرك. ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض، ولو شاء لبعَثهم إلى أهلها وأمَرهم بقطْعها. فقال العابد: لا بدّ لي مِن قطْعها. فنابذه للقتال. فغلبه العابد وصرَعه، وقعد على

صدره. فعجز إبليس، فقال له: هل لك في أمْر فصْل بيني وبينك؛ وهو خير لك وأنفع. قال: وما هو؟ قال: أطْلِقْني حتى أقول لك. فأطلقه. فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك، وإنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك. ولعلك تحبّ أن تتفضّل على إخوانك وتواسي جيرانك، وتشبَع وتستغني عن الناس؟ قال: نعم.

قال: فارجع عن هذا الأمر، ولك عليّ أن أجعل عند رأسك في كلّ ليلة دينارَيْن إذا أصبحت أخذتَهما، فأنفقتَ على نفسك وعيالك، وتصدّقت على إخوانك؛ فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين مِن قطْع هذه الشجرة.

ففكّر العابد وقَبِل ما عرَضَه عليه إبليس، وذهب إلى متعبده وبات. فلما أصبح وجَد تحت رأسه دينارَيْن، فأخذهما. وكذلك من الغد. ثم أصبح في اليوم الثالث وما بعده، فلم يجد شيئًا، فغضب، وأخذ فأسه على عاتقه. فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة، فقال: كذَبْتَ والله! ما أنت بقادر على ذلك، ولا سبيل لك إليها. قال: فتناولَه العابد ليفعل به كما فعل أوّل مرة، فقال: هيهات! فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين يديْه. وقعد إبليس على صدره، وقال: لتنتهِينّ عن هذا الأمْر أو لأذبحنّك؟

فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا، غلبْتني، فخلِّ عني، وأخبرني كيف غلبْتُك أولًا وغلبتَني الآن؟

قال: لأنك غضبت أوّل مرة لله، وكانت نيّتك الآخِرة، فهزمني الله لك. وهذه المرّة غضبتَ لنفسك وللدنيا فصرَعْتُك".

هذه القصة الرمزية تُبيّن في وضوح وجلاء: حينما تصْدق النّية ويتحقّق الإخلاص، يكون العون والفرَج من الله. وحيثما تمتزج النية والعمل بالدنيا، ويتوجّه الإنسان بالعمل مجرّدًا من الإخلاص، تكون الهزيمة والاندحار.

يؤيّد ما ذكرناه: ما جاء في حديث الغار الذي رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر بن الخطاب } قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((انطلَق ثلاثةُ نَفَر ممّن كان قبلَكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار. فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلّا أن تدْعوا الله بصالح أعمالكم...)) إلى آخر الحديث.

وأخذ كلٌّ منهم يسرد عملًا قام به مخلصًا لله، فانفرجت الصخرة، وخرجوا سالمين نتيجة حُسن نيّتهم وإخلاصهم لله فيما قاموا به من أعمال.

وإنّ من ثمرات حُسن النية والإخلاص أن المسلم إذا حبَسه مرضٌ أو عذرٌ عن عمل كان يقوم به مخلصًا فإن الله يمنحه ثواب صدْق نيّته، ويعطيه الأجر عن هذا العمل الذي كان ينوي صادقًا ومُخلصًا أن يقوم به. ومن ذلك: أولئك النفر الذين رغبوا في الجهاد صادقين، ونفروا في سبيل الله مُخلصين، غير أنّ رسول الله ﷺ اعتذر لهم بعدم وجود ما يَحملهم عليه، فحزنوا وبكَوْا لِحرمانهم من شرَف المجاهدة والغزو مع رسول الله ﷺ فنزل قول الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

وكان من ثمرة هذا الإخلاص في صدْق النِّية: أن أعطاهم الله أجْر مَن شارك في تلك الغزوة. فعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري } قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاةٍ، فقال: ((إنّ بالمدينة لَرجالًا ما سِرتُم مسيرًا، ولا قطعْتُم

واديًا إلّا كانوا معكم، حبَسهم المرض)) وفي رواية: ((إلا شاركوكم في الأجْر)) رواه الإمام مسلم.

والإخلاص يتحقّق إذا شعر المسلم أنه مراقَب مِن قِبَل الله تعالى في سِرِّه وعلانيته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

فإذا استشعر المسلم -ولا سيما الدّاعي إلى الله- أنه تحت سمْع الله وبصَره، فإنّ هذا يتولّد منه ملَكة المراقبة التي تؤدّي إلى درجة الإحسان، وهي أعلى درجات الإيمان؛ ففي حديث جبريل # حينما سأل الرسول ﷺ: ((ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)).

نـــــــواقض الإخـــــــلاص

ومن نواقض الإخلاص ونقائصه: أن يكون الدّاعي في دعوته كالحرباء، فيجعل من الدّعوة إلى الله تزلّفًا لذي سلطان، أو رياءً ليشتهر أمْرُه ويرتفع شأنُه؛ وهذا هو الرِّياء المُحبط للعمل، المُذهِب لثوابه؛ قال ﷺ: ((إنّ أخْوفَ ما أخافُ عليكم الشِّرك الأصغر. قالوا: وما الشِّركُ الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرِّياء. يقول الله يوم القيامة إذا جزى النّاسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدّنيا، فانظروا هل تَجِدون عندهم جزاءً)) رواه الإمام أحمد.

وقد جاء رجل إلى عُبادة بن الصّامت > فقال: "أَنْبِئْني عمّا أسالك عنه. أرأيتَ رجلًا يُصلّي يبتغي وجْه الله ويحب أن يُحمَد، ويصوم يَبْتغي وجْه الله ويُحبّ أن يُحمَد، ويتصدّق ويبتغي وجْه الله، ويُحبّ أن يُحمَد، ويحجّ يبتغي وجْه الله،

ويُحبّ أن يُحمَد؟ فقال عُبادة: ليس له شيء. إن الله تعالى يقول: ((أنا خير شريك؛ فمَن كان له معي شريك فهو له؛ ولا حاجة لي فيه)) تفسير ابن كثير.

وقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه "الإحياء" الأمور التي تنقض إخلاص الدّعاة إلى الله، وتُبطل أعمالهم فقال: "الرياء بالقول، وهو رياء أهل الدِّين بالوعظ والتّذكير، والنّطق بالحِكمة، وحفْظ الأخبار والآثار لأجْل الاستعمال في المحاورة وإظهارًا لغزارة العلْم، ودلالةً على شدّة العناية بأحوال السّلَف والصالحين، وتحريك الشّفَتيْن بالذّكر في محضر النّاس، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بمشهد الخلْق، وإظهار الغضَب للمنكَرات، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي، وتضعيف الصّوت في الكلام، وترقيق الصّوت بقراءة القرآن لِيدلّ بذلك على الخوف والحزن، وادّعاء حفْظ الحديث ولقاء الشيوخ، والمجادلة على قصْد إفحام الخصم ليُظهر للناس قوّته في علْم الدين".

وهكذا كلّ عمل لا يُقصد به وجْهُ الله، وينتفي منه الإخلاصُ وصدْقُ النِّية، فإنّه يكون هباءً منثورًا، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ لأن هذه الأعمال فقدَتْ الشرط الشرعي وهو الإخلاص، وسلامة النّية، وصحة قصْد وجه الله بتلك الأعمال.

ممّا سبق يتّضح أن الإخلاص هو روح الدِّين، وجوهر العبادة، وأساس قبول الأعمال، وأن الدّعاة إلى الله يجب عليهم أن يتجمّلوا بخُلُق الإخلاص في القول والعمل، وأن يتّجهوا بوعْظهم وإرشادهم في الإخلاص لله -تبارك وتعالى- وأن يبتعدوا عن كلّ مظاهر الشّرك والرياء والنفاق، وأن يجعلوا الإخلاص يتحقّق على النحو التالي:

أولًا: توجيه النشْء منذ نعومة أظفارهم على مفهوم الإخلاص وثمراته المرجوّة وفوائده من الدنيا والآخرة.

ثانيًا: أن يجد الأبناء صُوَر الإخلاص واقعًا ملموسًا أمامهم، يرَوْنه في الأب الذي يُخلص لزوجته. ويشعرون بهذا الإخلاص ويرَوْنه ماثلًا أمام أعْينهم في الأمّ التي تتفانى في خدمة زوجها وأولادها، وتتفانى في الإخلاص لهم. يشاهدون الإخلاص حيًّا يتحرك أمام أعينهم في المُدرِّس الذي يبذل قصارى جهده لأبنائه الطلاب، حيث يُتقن عمَله ويُخلص في درْسه، وكذلك في سائر الأعمال. يُرى في الأمّة فيما بينها، حيث يؤدِّي كل فرد فيها عمله بإتقان وإخلاص، ممّا يعود عليها بالخير، حيث الجميع يقصدون بعملهم وجه الله تعالى.

والدعاة كلما أخلصوا لله في أفعالهم وأقوالهم تفتّحت لهم القلوب، وأصغت لمواعظهم النفوس والعقول، واستبصرت بقدومهم الأندية والمجالس، وانعكس ذلك على رُقيّ المجتمع وازدهاره؛ وهذا من أعلى فوائد الإخلاص وثمراته.

قائمة المراجع العامة

١. (الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية)

فتحي يكن ، لبنان ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ.

٢. (الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة)

حياة بن محمد بن جبريل ، السعودية ، دار المسلم ، ١٤٢٥هـ.

٣. (الأحكام السلطانية والولايات الدينية)

أبي الحسن علي بن محمد الماوردي ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٠م.

٤. (الأخلاق الإسلامية وأسسها)

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ١٣٢٨هـ.

٥. (الأخلاق و السير في مداوات النفوس)

ابن حزم الظاهري الأندلسي ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥م.

٦. (الأذكار النووية)

يحيى بن شرف النووي ، الرياض ، دار الهدى ، ١٤٠٨هـ.

٧. (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

أبو أحمد بن محمد بن هارون الخلال ، دار القلم ، ١٩٩٦م.

٨. (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، المملكة العربية السعودية ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، ١٤١٨هـ.

٩. (الإسلام دين الفطرة)

عبد العزيز جاويش ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٨٠م.

١٠. (الإسلام في عصر العلم)

محمد فريد وجدي ، دار الحداثة للطباعة ، ١٩٨٨م.

١١. (**الإعلام بمناقب الإسلام**)

أبي الحسن محمد بن يوسف العامري ، الرياض ، دار الأصالة ، ١٩٨٨م.

١٢. (**الإيمان أركانه ، حقيقته ، نواقضه**)

محمد نعيم ياسين ، عمان ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ٢٠٠١م.

١٣. (**البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها**)

عزت علي عيد عطية ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧١م.

١٤. (**التعزير في الشريعة الإسلامية**)

عبد العزيز عامر ، القاهرة ، دار الأحمدي للنشر ، ٢٠٠٦م.

١٥. (**الثقافة الإسلامية وتحديات العصر**)

شوكت محمد عليان ، الرياض ، دار الرشيد للنشر والتوزيع ، ١٩٨١م.

١٦. (**الحدود والتعزيرات عند ابن القيم**)

بكر بن عبد الله أبو زيد ، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤١٥ هـ.

١٧. (**الحضارة الإسلامية**)

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٦م..

١٨. (**الدعوة إلى الإصلاح**)

محمد الخضر حسين ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٦ هـ.

١٩. (**الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم**)

محمد بن سيدي بن الحبيب ، جدة ، دار الوفاء ، ١٤٠٦ هـ.

٢٠. (**الرسالة**)

محمد بن إدريس الشافعي ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١م.

٢١. (**الزواجر عن اقتراف الكبائر**)

أبو العباس أحمد بن حجر الهيثمي ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٥م.

٢٢. (**السنة قبل التدوين**)

محمد عجاج الخطيب، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١م.

٢٣. (**السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**)

تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن تيمية، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

٢٤. (**السيرة النبوية**)

ابن هشام المعافري، مؤسسة المعارف للطباعة، ٢٠٠٤م.

٢٥. (**الشفا بتعريف حقوق المصطفى**)

أبي الفضل عياض اليحصبي، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٧٩م.

٢٦. (**الكبائر**)

محمد شمس الدين الذهبي، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

٢٧. (**المدخل إلى علم الدعوة**)

أبو الفتح البيانوني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٥م.

٢٨. (**المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**)

عبد الكريم زيدان، بيروت، دار الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٩٩م.

٢٩. (**المدخل للتشريع الإسلامي**)

محمد فاروق النبهان، بيروت، دار القلم، ١٩٨١م.

٣٠. (**الموافقات في أصول الشريعة**)

أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

٣١. (**النبوات**)

تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن تيمية، لبنان، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٢م.

٣٢. (**أصول الدعوة**)

عبد الكريم زيدان، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥م.

٣٣. (**إحياء علوم الدين**)

أبو حامد محمد الغزالي، دار الأرقام للطباعة، ٢٠٠١م.

٣٤. (**إسلامنا**)

السيد سابق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٧م.

٣٥. (**إعلام الموقعين عن رب العالمين**)

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

٣٦. (**إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**)

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م.

٣٧. (**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**)

محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروز آبادي، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.

٣٨. (**بهجة الناظرين فيما يصلح الدنيا والدين**)

عبد الله جار الله بن إبراهيم آل جار الله، جدة، مكتبة السوادي، ١٤١٠هـ.

٣٩. (**ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة**)

الطاهر أحمد الزاوي، دار البخاري للنشر والتوزيع، ١٤١١هـ.

٤٠. (**تفسير القرآن العظيم**)

أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

٤١. (**تلبيس إبليس**)

جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن الشهير بابن الجوزي، دار الفكر، ٢٠٠١م.

٤٢. (**تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين، وتحذير السالكين من أعمال الهالكين**)

أحمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن النحاس، الرياض، مكتبة الحرمين، ١٤٠٧هـ.

٤٣. (**جامع البيان**)

أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

٤٤. (**جامع العلوم والحكم**)

زين الدين ابن رجب الحنبلي، دار الفكر، ٢٠٠٢م.

٤٥. (**حد السرقة بين الإعمال والتعطيل وأثره على المجتمع الإسلامي**)

فارس عبد الرحمن القدومي، رسالة ماجستير بجامعة الأزهر، دار المصطفى للنسخ والطبع، ١٩٧٧م.

٤٦. (**خلق المسلم**)

أبو حامد محمد الغزالي، دار الدعوة، ١٩٩٠م.

٤٧. (**دعوة الرسل إلى الله تعالى**)

محمد أحمد العدوي، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٤هـ.

٤٨. (**زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه**)

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الرياض، مكتبة دار القلم والكتاب، ١٩٩٦م.

٤٩. (**شرح العقيدة الطحاوية**)

ابن أبي العز الحنفي، بيروت، لمكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ.

٥٠. (**شرح العقيدة الطحاوية**)

محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤١٤هـ.

٥١. (**صحيح مسلم**)

مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.

٥٢. (**صفة الصفوة**)

عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٩هـ .

٥٣. (**عالمية الدعوة الإسلامية**)

علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء، ١٤١٢هـ.

٥٤. (**فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**)

عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، دار الخير، ١٩٩٣م.

٥٥. **(فقه الدعوة إلى الله وفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)**

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٦م.

٥٦. **(كتاب العهد الجديد)**

إنجيل يوحنا، بيروت، البشرى : ترجمة جديدة للعهد الجديد للغة العربية من اللغات الأصلية، نشر جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، ١٩٨٨م.

٥٧. **(كتاب العهد الجديد)**

إنجيل متى، دار الثريا للنشر الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٥٨. **(لسان العرب)**

محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م.

٥٩. **(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)**

أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٩١م.

٦٠. **(مباحث في علوم القرآن)**

مناع القطان، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ.

٦١. **(مجموع الفتاوى)**

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار الكتب العلمية ١٩٩٥م.

٦٢. **(محمد رسول الله ﷺ منهج ورسالة)**

محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار ابن كثير للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤٠٩هـ.

٦٣. **(مذكرة في أصول الفقه)**

محمد الأمين الشنقيطي، مكتبه العلوم والحكم، ٢٠٠١م.

٦٤. **(مرشد الدعاة)**

محمد نمر الخطيب، بيروت، دار المعرفة، ١٤٠١هـ.

٦٥. **(مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر)**

علي بن صالح المرشد، دمنهور، مصر، مكتبة لينة، ١٤٠٩هـ.

٦٦. (**مسند الإمام أحمد بن حنبل**)

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

٦٧. (**معجم المقاييس اللغة**)

أبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مركز النشر ومكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

٦٨. (**مفاتيح الغيب**)

فخر الدين محمد بن عمر الرازي، لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

٦٩. (**مفتاح الخطابة والوعظ**)

محمد أحمد العدوي، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٨١م.

٧٠. (**هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة**)

علي محفوظ، دار الاعتصام، ١٣٩٩هـ.

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2008